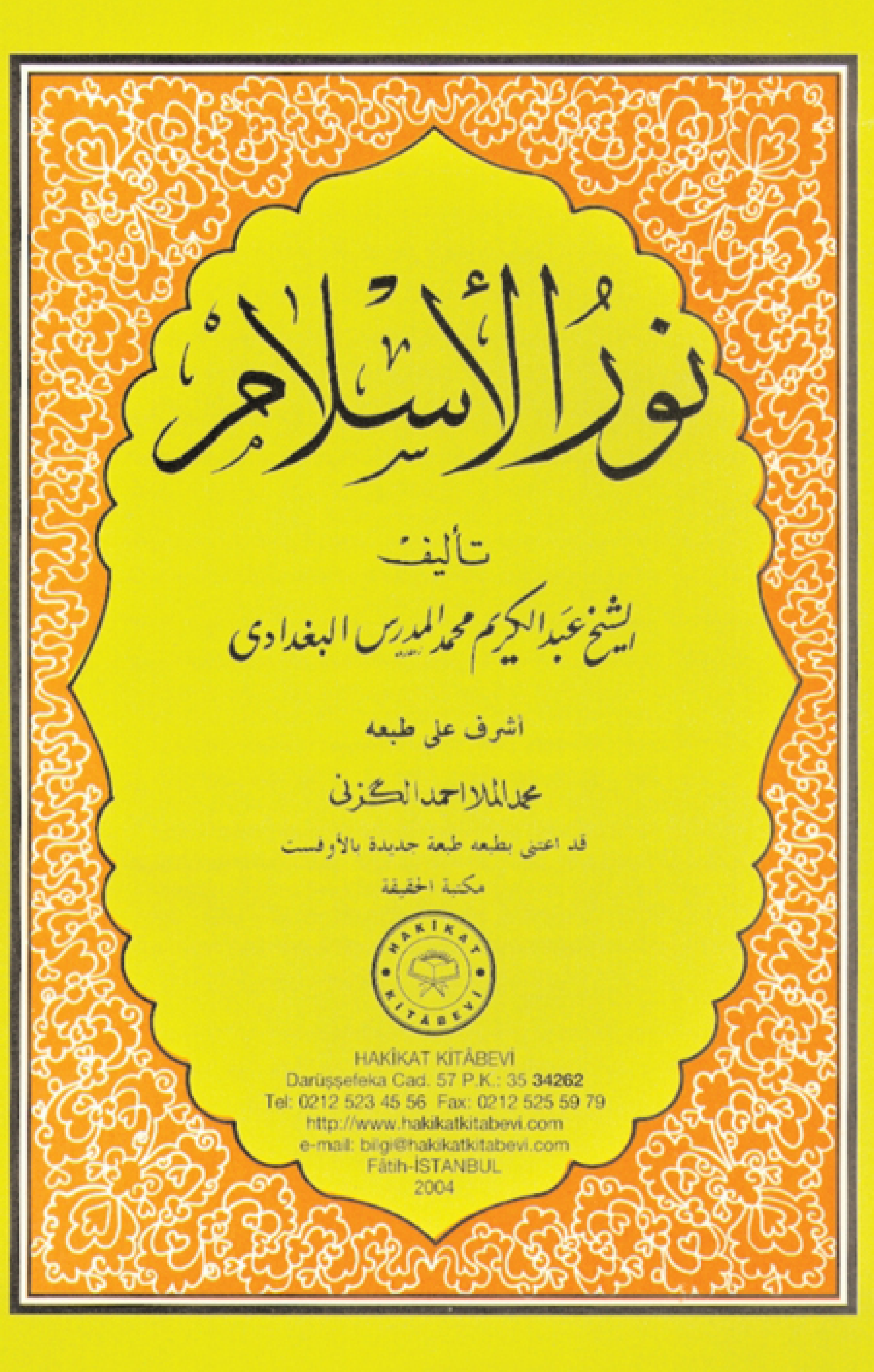


نور الإسلام
تأليف
الشيخ عبد الكريم محمد المدرس البغدادي
أشرف على طبعه
محمد الملا احمد الگزني
قد اعتنى بطبعه طبعة جديدة بالأوفست
مكتبة الحقيقة
HAKİKAT KİTÂBEVİ
HAKİKAT KİTÂBEVİ
Darüşşefeka Cad. 57 P.K.: 35 34262
Tel: 0212 523 45 56 Fax: 0212 525 59 79
http://www.hakikatkitabevi.com
e-mail: bilgi@hakikatkitabevi.com
Fâtih-İSTANBUL
2004

نُورُ الإِسْلامِ

تأليف

الشيخ عبد الكريم محمد المدرس البغدادي

تأريخ التأليف ١٣٩٧ هـ. [١٩٧٧ م.]

أشرف على طبعه

محمد الملا أحمد الگزني

قد اعتنى بطبعه طبعة جديدة بالأوفست

مكتبة الحقيقة



يطلب من مكتبة الحقيقة بشارع دار الشفقة بفاتح ٥٧ استانبول–تركيا

هجري قمري	هجري شمسي	ميلادي
١٤٣٣	١٣٩٠	٢٠١٢

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم (**خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه**) وقال ايضا (**خذوا العلم من افواه الرجال**)

ومن لم تتيسّر له صحبة الصالحين وجب له ان يذكّر كتبا من تأليفات عالم صالح وصاحب إخلاص مثل الإمام الرباني المجدد للألف الثاني الحنفي والسيد عبد الحكيم الارواسي الشافعي واحمد التيجاني المالكي ويتعلم الدين من هذه الكتب ويسعى نشر كتب أهل السنة بين الناس ومن لم يكن صاحب العلم أو العمل أو الإخلاص ويدعي أنه من العلماء الحق وهو من الكاذبين من علماء السوء واعلم انّ علماء أهل السنة هم المحافظون الدين الإسلامي وأمّا علماء السوء هم جنود الشياطين[١]

---

(١) لاخير في تعلّم علم مالم يكن بقصد العمل به مع الإخلاص (الحديقة الندية ج ١ ص: ٣٦٦، ٣٦٧ والمكتوب ٣٦، ٤٠، ٥٩ من المجلّد الأوّل من المكتوبات للإمام الرّبّاني المجدّد للألف الثاني قدّس سرّه)

تنبيه إنّ كلاّ من دعاة المسيحية يسعون إلى نشر المسيحية والصهاينة اليهود يسعون إلى نشر الادعاءات الباطلة لحاخاماتها وكهنتها ودار النشر - **الحقيقة** - في استانبول يسعى إلى نشر الدين الاسلامي وإعلائه اما الماسونيون ففي سعي لإمحاء وازالة الاديان جميعا فاللبيب المنصف المتصف بالعلم والادراك يعي ويفهم الحقيقة ويسعى لتحقيق ما هو حق من بين هذه الحقائق ويكون سببا في إنالة الناس كافة السعادة الابدية وما من خدمة اجلّ من هذه الخدمة اسديت إلى البشريّة

Baskı: İhlâs Gazetecilik A.Ş.
29 Ekim Cad No 23 Yenibosna-İSTANBUL
Tel 0212454 30 00

نور الإسلام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد المبعوث رحمة للعالمين. **وبعد** فإن كتاب نور الإسلام يضئ طريق الحق والصواب ينير مسالك السعادة في الدنيا والآخرة، ويزيل القشور الفاسدة عن لب حقيقة الإسلام والإيمان، بأسلوب بديع رفيع وسط بين الأطناب الممل والإيجاز المخل سابكا الأدلة النقلية بالأدلة العقلية سبك الصائغ الماهر الأحجار الكريمة في الذهب. ومن حسن الحظ إن أتاح الله لي الفرصة لأقوم بتخريج آياته وأحاديث، وأن أعلق عليه بعض التعليقات.

محمد الملا أحمد الگزني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه المعونة والاعتصام

اللّهمّ يا من كفت هدايته للدلالة على ذاته، ووفت عنايته بالإرشاد إلى آثار صفاته حار الناس إلا من هديته، وغار في البأس إلا من نجيته.

أين الدليل عليك، وأنت لكل مدلول دليل؟ وكيف الوصول إليك، وأنت المنزه عن كل قال وقيل؟ نتوجه إليك ونتوكل عليك، ونطلب الهدى منك، فوجهنا بإحسانك إليك، وعرفنا وجوب وجودك بهدايتك، ووفقنا على طاعتك بعنايتك، لنحمدك حمدا يوافي نعمك، ويكافئ مزيد فضلك، ونشكرك شكرا يماثل شكر خواص عبادك وأهلك وصل وسلم من سماء جودك اللامحدود على حبيبك المحبوب المسعود، سيدنا محمد الأحمد المحمود، الذي هدى العباد إلى المعبود، هداية إرشاد إلى ذلك الموصوف بالكرم والجود، وعلى جميع إخوانه العباد المصطفين الأخيار وآله وصحبه الكرام الأبرار ومن تبعه بإحسان إلى يوم القرار.

وبعد فقد وجدت الناس في وجد إلى تذكرة لمقاصد الدين وإلى تبصرة حول مهمات الإسلام للمسلمين، فبادرت بتقديم هذا الكتاب الناطق بالصدق والصواب،

وسلكت فيه مسلك الاعتدال بين الإخلال والإملال، بغية الاستفادة منه في كل وضع وحال، وجعلت عنوانه (**نور الإسلام**) لمن أراد الفوز بالمرام، وعلى الله التوكل وبه العون والاعتصام.

فمن نور الإسلام الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالى: أي الاعتراف والتصديق والإذعان بأن لهذه الكائنات من العلويات والسفليات، وما احتوته من سائر الموجودات صانعا واجب الوجود وخالقا لكل موجود، وهو اللايق بأن يطاع، وهو المستحق للتعظيم، وهو المعبود وكل ما سواه مسخر لقدرته، وخاشع لهيبته، ورافع كف الرجاء إلى باب رحمته، لفيض إحسانه وكرمه ونعمته. لا حاجة لصاحب العقل السليم إلى الفلسفة في هذا الباب، بل يكفيه أن ينظر بعين العناية إلى الوجوه الآتية:

أولا- منذ وجد البشر وهو أرقى الموجودات على هذه البسيطة الغبراء، وتحت أشعة شمس السماء، كان أصحاب سلامة العقل والإدراك منهم يعترفون بأن لهم خالقا أوجدهم، وربا رباهم، يستغيثون به في الملمات، ويتضرعون إليه في المهمات، ذلك أنهم يشعرون بنقص في ذاتهم، وعجز في إدراكهم، وحيرة في عقولهم، وفتورا أمام مأمولهم، ومن كان له شعور بالنقص في النفس، حتما يسعى حول الوصول إلى كامل يستنجد به، وعظيم يستعين به، ولا شك أن الكامل المطلق فوق الكل هو الله الواجب الوجود، فهو المطلوب والمقصود. فإذا كان أولوا سلامة العقل هكذا، فما علينا من أصحاب النقص في الإدراك، فقد اتفقت العقول السليمة على المطلوب.

ثانيا- لا شبهة أن الموجود المحسوس لدينا لا يخلو: إما جماد، أو نبات، أو حيوان، ونرى كل ذرة من ذرات الجمادات مسخرة تحت سيطرة التكوين والتحويل، فمن ماء يتحول بخارا، وبخار يتحول سحابا، وسحاب يتقطر ماء، وما مواد أرضية تتكون بالتأثيرات، والانفعالات معادن. ومن بذر يخرج من الأرض فيؤزره المؤثر، ويستغلظ فيستوي ويثمر، وبعد زمان يسقط فيتحول إلى مواد أرضية أخرى، ومن

نطفة تتربى وتتصور وتخرج إلى عالم العيان، فيستفيد ويفيد إلى أجل مسمى، فعلم أن كل ذلك واقع تحت سيطرة وقوة، وإن كل قوة مدركة فهي أيضا تحت تأثير قدرة فوقها إلى أن يصل إلى ما لا قوة تعلوه، وإن أشرفها وأقومها وهو الإنسان، هو دائما في الجهد للخلاص من جهل إلى علم، ومن ضعف إلى قوة، ومن محنة إلى استراحة، فيستمر في حاجة للتطور من طور إلى آخر. ويعود سلسلة حاجاته إلى ميسر للأمور، ومسبب للأسباب، وقوة فوق القوى، ومعنى هذا كله أن كل موجود مشهود ضعيف ومسخر ومحدود ولا يمكن تصرف هذا المسخر الضعيف في نفسه وفي غيره، فقد تبين حاجة الجميع إلى متصرف مطلق له الإبداع والتصرف الكامل، يغير ولا يتغير، ويسخر ولا يتسخر، وذلك هو المقصود والمطلوب.

ثالثا- لا خفاء في أن الله ميز الإنسان بالعقل والعرفان وبه يتدرج من حال إلى حال، ومن نقص إلى كمال، وهو في كل حال من أحواله يدرك تمام الإدراك أنه لم يحصل له ولا يحصل ولن يحصل له أقل شيء مما يحتاج إليه، بدون سبب من الأسباب وعلة من العلل، ولا يمكن له دفع أية مضرة من المضار إلا بدافع وعلاج، ولم يحصل له بدون حركة وحول منه أو من غيره خبز يأكله، وماء يشربه، ولباس يلبسه، ومحل يسكن فيه، بدون سبب ومنشأ، فكيف يعقل هذا العاقل المتطور، والمدرك المتطور الذي يحسب لنفسه ألف حساب؟ كيف يتصور ويصدق؟ بأن شخصه نفسه وقواه وما احتواه حصل أو سيحصل بلا سبب، وكيف يتصور أن العلويات بما فيها، والسفليات بما عليها حصلت بدون تأثير مؤثر، وسببية مسبب، يؤثر في إبداعه، وإخراجه إلى الوجود؟ ولا شك أنه بأدنى إنصاف ومراجعة إلى وجدانه يعلم أن نفسه وما عداها خلقها خالق وسواها وإليه منتهاها وهو المطلوب.

رابعا- لا اشتباه في أن كل من نظر إلى وردة جميلة بديعة، أو صنعة عجيبة، أو آمر مخترع لم يره قبل ذلك، أو نقوش مستحسنة، أو أنسجة متلونة، علم أن لذلك المنظور عامل وصانع مبدع، متخرج قدير، ولا يتوهم أن ذلك كان صدفة بلا

أساس فكيف يتصور أن تلك القوى المودعة فيه من العين وأغشيتها وأنوارها ومن المشاعر وإدراكها وأسرارها، ومن تركيب الجمجمة والدماغ ومحتوياتهما، ومن المعدة وصنعتها، ومن المفاصل وانسجامها، ومن الكف والبنان وخطوطها، نشأت من دون مؤثر؟ بله سائر المعنويات التي تتوالى عليه من الأحزان والأفراح والذوق والنشاط وأضدادها، ومن طموح وميول وما تؤول إليها كيف يقبل أن هذه الأنفس العظيمة الآثار نشأت بدون خالق؟ بل بالعكس يضطر إلى إرجاعها إلى باريها وخالقها ومبدعها، وذلك هو المقصود المطلوب.

خامسا- ارفع نظرك إلى خيمة السماء، وإلى الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، وإلى الشمس المشتعلة الملتهبة التي تزيد على كرة الأرض بنحو (ربع مليون) مرة، وتفكر من أين هذه الكرة الملتهبة ومن أي جهاز تشتعل؟ وكيف تقف كمركز لمجموعتها؟ وكيف تجري لمستقر لها؟ وكيف تدور حولها السيارات على مدارات خاصة مائلة أو مستوية؟ وكيف يحافظ على سير تلك الحركات، ومراقبة موازينها، بحيث لا يتعدى أي كوكب من مداره، ولا من مقدار آثاره؟ وكيف لا ينحرف عن المدار ولا يتخلف عن عمله في دقيقة، أو أن من الليل والنهار؟ وكيف تدوم على هذه الأحوال تلك المجموعة على الاستمرار؟ وكيف يدور السيارات على محورها كما يدور حول أمها ومركزها فما تلك الجواذب المركزية؟ وما تلك الموازين الاجتماعية؟ وفوق هذه المكتشفات ما وراءها مما لم يكتشف إلى الآن لا يعلم علمها أحد غير مبدعها، ألا يقف العقل السليم في مقام الاعتراف بمبدعها مترنما بقوله: (**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ** * طه:١١١) لا شك أن الناظر البصير، والناقد الخبير، يرجع إلى رشده، ويعترف بأن الأجهزة المسخرة المطيعة للأوامر لها آمر مطاع، له الملك والآثار يكور النهار في الليل، ويكور الليل على النهار، وهو المطلوب.

سادسا- إن شئت فانظر نظرة خاطفة في هذا المجموع، وقل إن الكل إما ممكن مستوي الوجود والعدم، وإما واجب ثابت الوجود من القدم، أو بعضه واجب

أزلي وبعضه ممكن خرج إلى الوجود من العدم، إذا تأملت دقيقة علمت أن الاحتمال الثاني فاسد بلا شبهة، لأنك تعلم أن الفناء طرأ على كثير من أجزاء المجموع، والحدوث ثبت لكثير مما شاهدته، كما ترى أن الجبال تزلزلت ببركان، وإن المياه تبخرت بحرارة في طغيان، وهذا مما يخالف وجوب الوجود.

وكذا الاحتمال الثالث أي أن بعضه واجب قديم وبعضه ممكن، إذ لا رجحان للحجر على المدر، ولا للأرض على الماء، ولا للماء على الهواء، فعروض الكون والفساد في البعض دليل صحة طروهما في الباقي، فلم يبق إلا الأمر الأول وهو أن الكل ممكن الوجود يستوي عدمه ووجوده، وكل ما استوى طرفا وجوده وعدمه محتاج إلى فاعل مؤثر واجب الوجود موصوف بكماله وقدمه وهو المرام والمطلوب.

سابعا- أن علة هذه المجموعة من حيث العموم، أما نفسها، أو بعضها، أو أمر خارج عنها، لا يمكن بالعقل البديهي أن يؤثر المجموع في نفسه لأنه المؤثر يجب أن يتقدم الأثر، فلو كان المجموع علة لنفسه لزم أن يتقدم هذا على نفسه، وذلك مستحيل بالبديهة. وكذا لا يمكن أن يكون المؤثر في المجموعة بعضها، لأنه يلزم تقدم هذا البعض على نفسه وعلى غيره، فيعود الفساد السابق، فلم يبق إلا الاحتمال الثالث وهو أن علة المجموعة أمر خارج عنها، ومعلوم أن الموجود الخارج عن مجموعة الممكنات واجب الوجود، فثبت المرام والمطلوب.

ومن هنا يظهر كمال الظهور أن القول بتأثير الطبيعة شيء غلط يجري على اللسان، ولا أساس له من الصحة، لأن ما يسمى بالطبيعة إما صفة لمجموع الكائنات، أو نفسها، أو خارج عنها. فإن كانت الطبيعة صفة وخاصة عارضة على مادة الكون وأجزائها، فمعلوم أنها تتأخر عن موصوفها، أي أنه يجب أن تكون المادة موجودة، ثم يعرض عليها الطبيعة، فلا يكون تأثير هذا المتأخر في الأمر المتقدم معقولا، وكذا إن كانت نفسها أو جزءها، فإنه لا معنى لتأثير الشيء في نفسه، فحينئذ يجب أن يكون الأمر المسمى بالطبيعة خارجة عنها.

وهذا وإن كان خلاف المعقول، لأنه لا معنى لكون طبيعة الشيء خارجة عنه، لكنّا نسامح ونرتضيه جدلا، ونقول هذا الآمر الخارج عن مجموع الكائنات المسمى بالطبيعة: أما قوة بلا حياة وعلم وارادة وقدرة وباقي الصفات الكمالية، فليس من المعقول أن يكون أمر هكذا منشأ ومؤثرا للكائنات ونظامها وحركاتها وبركاتها وآثارها واستمرارها، وعقلية أشرف نوع فيها وإدراكاتها. فلم يبق إلا القول بأن الأمر الخارج من هذه المجموعة المشهودة ذو قوة وكمال وجمال وجلال واجب الوجود المتعال، موصوف بجميع صفات الكمال متره عن سمات النقص والاختلال. وله الوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، وأنه هو المؤثر المطلق، وهو الذي يستند إليه جميع الممكنات الموجودة بالذات، بلا واسطة في الخلق والإيجاد، وإن كل سبب من الأسباب يعتبر من الأمور العادية التي جرت عادة الله لخلق الأشياء عندها، لا بها، وأن ذلك المؤثر مختار في جميع أفعاله. لا يجب عليه شيء، ولا يضطر في حدوث أي أثر منه تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

وحاصل ذلك هو كما أن وجود الكائنات معلوم ومشهود كذلك وجود المؤثر الخارج معلوم ومشهود غير أنا لا نعلم أن ذلك المؤثر ما هو وما كنهه وحقيقته، فإن العلم بوجود الشيء لا يوجب العلم بحقيقته، ولا يقدح ذلك في الاعتراف بذلك والاعتماد إليه، فإن العلم بالصوت يوجب العلم بالمصوت، لا بحقيقته، وانفتاح الباب يوجب العلم بوجود الفاتح، لا بحقيقته، وآثار البرق والنور توجب العلم بوجودهما، ولا يوجب العلم بماهيتهما، وعلمك بحياتك وعلمك وإرادتك وقدرتك يوجب علمك بوجود الروح، أي النفس الناطقة لك، ولكن لا يوجب العلم بماهية روحك، وليس ذلك الجهل بقادح في علمك ذلك. ولذلك ترى كتاب الله سبحانه وتعالى ينطق بوجود الباري وحياته وعلمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه، ولا يتعرض لبيان حقيقته، وذلك لأن التكليف لا يتوجه إلا بما في الوسع، وليس في الإمكان إحاطة الممكن بالواجب، والناقص بالكامل، والمحدود باللامحدود.

لا تبدع الكون كعقد نظيم * وتردع الذر نظام السديم

طبيعة عمياء في ذاتها * وإنما المبدع رب عظيم

وفي عين الوقت تشير الآيات الكريمة إلى أدلة قاطعة تتحير أمامها العقول فيأتي بقوله تعالى (**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** * طور: ٣٥) يعني بعد أن شعر الإنسان بأنه مخلوق حي مدرك له صفاته وكمالاته، هل يزعم أنه مخلوق بدون خالق، وبدون الحاجة إلى منشأ؟ وهو مستحيل بداهة، أو يزعم أن أفراد هذه السلسلة البشرية بعضها خالق لبعض، مع أن ذلك من أوضح المستحيلات؟ وذلك لأن الأب لو كان هو الخالق لولده، لاختار ولدا يكون أكبر أفراد السلسلة تقويما وصورة وسيرة وآثارا، مع أن كثيرا من الناس يموتون حاملين أسف العقم وعدم وجود النسل، وكثير منهم يلدون أولادا ضعاف النفوس سخاف الطبع مشوهي الصورة والسيرة يخجل الإنسان من صحبته فضلا عن قبول علاقته ونسبته.

ويأتي بقوله تعالى: (**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** * إبراهيم: ١٠) وهذا يشير إلى أقوم البراهين، وهو برهان السببية، يعني أن الإنسان لما نظر إلى هذه الأجرام العلويات بما فيها من الشمس والقمر والكواكب المستضيئة المنورة للكون، ونظر إلى الأرض ومعادنها ونباتها وحيوانها، وإلى البحر وما فيها من الجواهر والحيوانات العجيبة، فهل يعقل أن تكون هذه الأشباح والمواد وخيراتها ناشئة بدون سبب وفاعل؟ وهذه الآية برهان على وجود ذات كامل الصفات مختار في التأثيرات، وهو الله سبحانه وتعالى. ويأتي بقوله تعالى (**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** * الروم: ٢١) وهذه مع كونها ناطقة بمنة خلق الزوجات، لتكون قرينة صاحبها في تأسيس كيان العائلة وكسب الراحة والسعادة، فهي أيضا رد بأبلغ وجه إلى أقوال الزاعمين للصدفة، وأن الكون أثر صدفة واتفاق، لا فاعل مختار خلّاق. فيقول هب إن الاتفاقات المتكررة وصلت إلى تكوين رجل عاقل، فهل يعقل أن تصل الاتفاقات الصدفية إلى ترتيب سلسلة من

متطلبات هذا الرجل العاقل؟ لتكون في جانبه كائنا آخرا مماثلا له في الصورة والظاهر، ومودعا فيه آثار الجمال المؤنس، ومباينا له في بعض التركيبات الداخلية من الرحم وغيرها، حتى تكون عونا للمخلوق الأول في نيل السعادة الأبدية. وعلى هذا المنوال قوله تعالى (**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا** * النحل: ٦٨)، فهل يعقل أن تصل الصدفة إلى خلق حشرات في أرقى درجات الإدراك لبناء الكورة ومنافذها على الشكل المسدس الذي قلما يبقى في خلاله فرجات خالية، ثم يكون فيه عقلية الإدارة والرياسة والتبعية والجوقة الموسيقية أمام الرئيس وخروجها من الكورة مغنية مطربة حتى يخرج الرئيس فيطير ويطيرون وراءه، حاشا ثم حاشا ولا مجال لتصور ذلك إلا بإيحاء خالق حكيم خبير يلهم مخلوقاته الحكمة.

ويردّ القرآن الكريم على مزاعم الدهريين الذين ينسبون الحوادث إلى الدهر وتصريفاته بنص (**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** * الجاثية: ٢٤) يعني أنهم ينسبون خلق الإنسان وحياته وبقائه إلى أجل، ومماته إلى الدهر، ويشتبه عليهم الظروف والزمانية بالفاعل القادر المختار، مع أن هذا الاشتباه لا يليق إلا بأبسط الناس عقلا وإدراكا، وأن تلك النسبة نسبة إلى ما لا تأثير له إلا بحسب الخرص والظن الغير المفيد، وذلك لأن الدهر عبارة عن المدة والاستمرار الناشئ عن الدورات والحركات المتعاقبة، وتلك الحركات حاصلة من قدرة القادر المحرك، وتلك القدرة قدرة واجب الوجود العالم بما يخلقه المختار في تصرفاته، فالحق هو نسبة الآثار إليه لا إلى الحركات الحاصلة في أشياء جامدة خالية عن العقل والشعور والإرادة.

وهكذا يرد القرآن الكريم على التعطيل والصدفة وتأثير القوى اللاشعورية، والدهر والطبيعة، بعبارة سهلة سليمة خالية عن التعمق والتكلف، وفي عين الوقت تأتي بالأدلة الدامغة للأوهام الدافعة للاشتباهات السائقة لأولي العقل إلى الحق واليقين. ويدعو في كثير من الآيات إلى التوحيد والاعتراف بأن خالق الكون واحد،

لأن الخالق إنما يليق بالخلق والإيجاد والإبداع، إذا كان قادرا مختارا له الخلق والأمر، وحينئذ لا معنى لاعتبار الشريك معه، لا سيما إذا كان الشريك مما لا حول له ولا طول، فيقول (**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** * البقرة: ١٦٣) ويقول (**اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** * البقرة: ٢٥٥) ويقول (**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** * الزمر: ٦٢) وربما يتحدى المشركين بأنه يفعل أشياء عظيمة عجيبة فهل من الشركاء من يفعل مثل ذلك فيقول (**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** * يونس: ٣٤) وربما يأتي بدليل واضح جلي اعتيادي على التوحيد مثل قوله تعالى (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا** * الأنبياء: ٢٢) فإن ظهر الآية دليل إقناعي خطابي مبني على أن تعدد الشركاء يوجب التراع والاضطراب وعدم انتظام الأمور، وهو حق لا يكاد أن يقع خلافه إلا نادرا، كما أن حقيقتها دليل برهاني على التوحيد، وتقريره أنه لو كان فيهما آلهة بالمعنى الصحيح للألوهية، لأمكن بينهم التمانع، ولو أمكن بينهم التمانع، لزم إمكان عجز كل منهم، ولو أمكن عجز كل منهم، لم يكن شيء منهم إلها، ولو لم يكن شيء منهم إلها، لم يوجد السماء والأرض وغيرهما، فيكون المراد بفساد السماوات والأرض انتفاؤهما وعدم خروجهما إلى الوجود، كما قررها علماء التوحيد.

والحاصل أن الآيات القرآنية، وإن دلت بسلامة العبارة على المقصود، ولكنها محتوية على تحقيقات وتدقيقات لا يصل إليها، إلا عقول العلماء الأعلام، وهذه أيضا في حد ذاتها دليل على أن القرآن كلام الله، ويستدل به على وجوده سبحانه وتعالى من طريق خروجه عن طوق البشر.

الصفات

ويأتي القرآن الكريم بذكر صفات الباري سبحانه بصورة جلية مفهومة لعامة أهل العقل، مع أنها فيها إفادة لدقايق وحقايق تندهش أمامها عقول الفحول، فيأتي

في سورة موجزة بجميع صفاته تعالى فيقول (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** * الإخلاص)

قل يا أيها الرسول الجليل في جواب من يسألك عن وصفي: الشأن أن الذات المعلم بلفظ (**اللهُ**): العلم على الذات الواجب الوجود الجامع لجميع الكمالات والمتره عن كل نقص (**أَحَدٌ**) فرد واحد في حقيقة ذاته، ولا يماثله شيء، وفرد لا نظير له في صفاته، وهو الكامل المطلق، فاندرج في تلك المفردات الموجزة ذاته وصفاته النفسية والسلبية والثبوتية، وما ذكر بعدها إيضاح لها وجملة (**اللهُ الصَّمَدُ**) أي المصمود إليه في كل شيء فجميع ما سواه محتاج إليه، أي أنه تعالى قائم بالذات، وغيره قائم به لا يحتاج إلى أي شيء، وغيره محتاج إليه في كل شيء (**لَمْ يَلِدْ**) أحدا لاستغنائه عمن ينوب عنه كالولد للوالد، فهو آخر الآخرين والباقي أبد الآبدين (**وَلَمْ يُولَدْ**) من أحد و لم يستفد الوجود من أي مصدر، فهو الواجب الوجود الأزلي (**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**) لا يماثله أي شيء بحال من الأحوال، فليس جسما ولا جوهرا ولا عرضا، فاندرج في صمدانيته وجوده الواجب وحياته وعلمه وإرادته وقدرته وسمعه وبصره وكلامه، لأن من لم يكن موصوفا بتلك الصفات لا يكون مصمودا إليه لكل شيء في كل شيء، واندرج بقاؤه في قوله (**لَمْ يَلِدْ**) كما أندرجت أزليته في قوله (**وَلَمْ يُولَدْ**) واندرج عدم مماثلته لما سواه مطلقا في قوله (**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**) كما أفاد وحدته، وعدم وجود المماثلة له في وجوب الوجود، وفي الخالقية وفي المعبودية، هذه الوحدة التي بها كمال التوحيد لكل مؤمن موحد. ويفيد أزليته وأبديته، أي قدمه وبقاءه وظهوره أمام العقول بالآثار، وخفاءه بالكنه والحقيقة على أساس الاستئثار، أي أن العالم بذاته وصفاته هو ذاته فقط قوله تعالى (**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** * الحديد: ٣)، وذلك لأن الأولية الحقيقية لا يتحقق، إلا بالأزلية كما أن البقاء بمعناه السليم، لا يتحقق إلا بالأبدية والآخرية. ويأتي القرآن الكريم بذكر صفاته الباقية في صياغة حسنة مفهومة، فيأتي ببيان حياته تعالى

بقوله (**الْحَيُّ الْقَيُّومُ** * البقرة: ٢٥٥) وفي عين الوقت أفادت علة حياته تعالى بأنه قيوم للجميع ومدبر لأمورها، والتدبير والقيمومة، لا يمكن إلا من الحي لبداهة أن الموت والجمود ينافيان الإدارة والمراقبة وهو ظاهر.

ويذكر القرآن الكريم صفة علمه تعالى بأبلغ العبارات فيقول (**إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** * الحجرات: ١٦) ويقول (**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** * يونس: ٦١) فينسب العلم بالكليات والجزئيات إلى الله سبحانه، ويرد على الجهلة المتفلسفة الذين أنكروا علمه تعالى بالجزئيات بما لا مزيد عليه، ويقول (**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ..** * الملك: ١٢) يستنكر عدم علمه ويثبت علمه، ويستدل عليه بأنه خالق، والخالق لا بد أن يكون عالما بما يخلقه معنويا أو ماديا، بسيطا أو مركبا من الأجزاء، ويعلم بقدرها وحالها ومآلها، وإلا فلا يميز شيئا عن شيء ولا يصل إلى إيجاد شيء. ثم في القرآن الكريم صفة إرادته، أي أنه تعالى حسب علمه الأزلي بالكائنات يخصص شيئا بالجود وشيئا بالعدم، وينفذ ما أراده بقدرته واختياره فيقول (**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** * البروج: ١٣-١٦) ويرشد إلى أن كل ما يفعله سبحانه فهو بإرادته ويرد على من يقول بعجزه تعالى واضطراره ووجوب شئ عليه تعالى عن ذلك.

وكذلك يصرح بقدرته وسيطرته على كل ممكن من الممكنات سواء كان جاريا على سننه الكونية الاعتيادية، أو على طريق خرق العادة، فيقول (**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** * هود: ٤٠) ويقول (**وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** * الرحمن: ٧) ويقول (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** * الإسراء:١)

ويصرح بأنه سميع بصير فيقول (**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** *

المجادلة: ٧) ويقول في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمرأة المجادلة (**وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** * المجادلة: ١) ويعلن كلام الله سبحانه في آيات (**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا** * النساء: ١٦٣) (**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** * البقرة: ١٥٣) (**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ** * الأعراف: ١٤٣) (**إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي** * الأعراف: ١٤٤) (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌ حَكِيمٌ** * الشورى:٥١) إلى غير ذلك من الآيات البينات الناطقة بصفاته تعالى. ونحن سمعناها وأخذناها وآمنا بها وفوضنا كنهها إليه تعالى، ذلك أنا إذا راجعنا أنفسنا وجدنا علمنا صورا وانكشافات نفسية ناقصة عن الإحاطة بكثير ووافية ببعض الأشياء، ووجدنا إرادة وتخصيصات لفعل أشياء أو تركها، وربما نعجز عن تنفيذ ما أردناه، ونجد قدرتنا قاصرة لا تتوجه إلى أشياء بسيطة وإن سمعنا: بوصول الهواء المتكيف بكيفية الصوت إلى الصماخ، وإن أبصارنا: بانكشاف صورة المرئي لنا سواء كان الانكشاف بالانطباع أو بخروج الخطوط الشعاعية من الحدقة إلى المرئي، وإن كلامنا النفسي عبارة عن قوة تنبعث منها عبارات نفسية مخزونة تناسب العلم والإرادة. وإن كلامنا اللفظي عبارة عن أصوات مقطعة في مخارج متعددة يتركب منها المفردات والجمل، وكل ذلك لا يكون فينا إلا محدودا معدودا، وأما تلك الصفات بالنسبة إليه فليست على ذلك المنهج فعلمه شامل أزلي أبدي ثابت، وإرادته أزلية وقدرته أزلية نافذة حسب تعلق العلم والإرادة، وإن سمعه وبصره (كشفان) آخران لا مناسبة بينهما وبين ما عندنا، فيقال في التعاليم إن سمع الله بالنسبة إلى صوت دبيب نملة صغيرة على صخرة لمساء أعلى من صوت نعال جواد ركبه فارس عظيم الهيكل يركض به على حجارة خشنة، وكذلك كلامه تعالى بعيد عن مناسبته لكلامنا، فما يقول بعض علمائنا الأعلام أن سيدنا موسى كان يسمع كلامه[١] سبحانه من جميع الجهات، لا من جهة واحدة

---

(١) قال الإمام الغزالي – رحمه الله –: إن سيدنا موسى سمع كلام الله بغير حرف ولا صوت، كما يرى الأبرار ذات الله في الآخرة من غير جوهر ولا عرض، **الإحياء** (١/٨٠) منه.

وبجميع ذرات جسده لا بالسمع فقط، وليس من مقدورنا الإحاطة بكنه ذاته تعالى، ولا بكنه صفاته، بل ولا بكنه الأشياء المحسوسة عندنا، وإنما تعرف منها خواص وأوصافا نميز بها بعضها عن بعض، ونستفيد من تلك الصفات والآثار بقدر (تيسير) الله تعالى لنا، فشأننا في هذه الصفات الأزلية لا يتعدى عن ذلك، فالآثار تدل دلالة قاطعة على ذاته تعالى وصفاته حياته وعلمه وإرادته وقدرته وكلامه وغير ذلك، بحيث لا يبقى مجال شبهة للعاقل المنصف، وما أتانا الرسول الأعظم بشيء فوق مقدورنا (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** * الحشر: ٧) فإنا نؤمن بالله وصفاته لا نعطل ولا نشبه ونسلك سبيل الاعتدال على الصراط المستقيم فاسلك أيدك الله و(**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِي إِلَىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** * الأنعام: ١٦١)

زبدة وخلاصة

تكلمنا في هذه الصفحات عن ذات الباري سبحانه وتعالى وصفاته بما يناسب المقام، ومما ينبغي أن تعلم أن الإنسان ليس مخلوقا خلق سدى، وإنما خلق لتحمل مسؤوليات عظيمة شاء أو أبى، فهو كشخص وقع في فلاة تركه أصحابه، فيجب عليه الجهد بقدر المستطاع للنجاة والخلاص، فلا يمكن للعاقل أن لا ينظر إلى نفسه الضعيفة الغير القادرة على تكوين شخصه وما يحتاج إليه، ولذلك علمنا هنا أن الإنسان من سابق الأزمان إلى الآن اعتبر واستبصر وتفكر ونظر وجاهد واجتهد، كي يعلم الحقيقة ويصل إلى ما تطمئن له قبله، فمنهم من شرح الله صدره ووهبه إدراكا وحضورا واطمئنانا لا يحتاج بعده إلى دليل وتعليل، كما روي عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال (لو كشف الغطاء ما زدت يقينا) أي لو شاهدت ربي بعين باصرتي ما حصل لي يقين أعلى مما وهبه الله تعالى ونور به عين بصيرتي. وهذا هو مقام الحضور والشهود، والمطيع في هذا المقام محسن أي أنه يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يرى ربه فيوقن بأن الله يراه.

ومنهم من آتاه الله مقام الاستدلال، فاستدل على ذات الباري وصفاته، وكل

ما استدل به حسب الاستقراء لم يخرج عن وجوه أفادها القرآن الكريم بسلامة المنطوق ووضوح الدلالة. ذلك أن استدلالهم على وجوه:

الأول- الاستدلال على ذات الباري بإمكان السماوات والأرض وما فيهما، أي أنها موجودات ممكنة يستوي وجودها وعدمها، أي لا يجب وجودها ولا يجب عدمها، وذوات كذلك تفتقر إلى ذات واجب الوجود يكون مبدءً لها ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** * فاطر: ١) أي أنتم الممكنات المحتاجة إلى مبدأ غير محتاج، وذلك المبدأ الغني هو الله الحميد في كافة شؤونه فإذا كان أشرف الموجودات كذلك فالجوامد والمواد الغير الحساسة كذلك بالأولى.

الثاني- الاستدلال بإمكان صفات الممكنات، أي أن كل صفة من صفاتها يستوي وجودها وعدمها، فعلوية الأجرام العلوية واستدارتها واستنارتها وحركاتها وعوارضها وعوارض الأجرام السفلية تتطور وتتحول وتتسخر فهي من المحتاجات إلى بارئ يأتي بها إذا شاء ويزيلها إذا شاء وإليه الإشارة في قوله تعالى (**جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** * غافر: ٦٤) فانبساط الكرة ووهداتها وصحاريها وجبالها، وجريان عيونها واخضرارها وجدبها، وعواصف الجو ونزول أمطارها وضياؤها وظلماتها كلها مما يتقلب ويتغير ومبدؤها هو الله الخالق الحكيم.

الثالث- الاستدلال بحدوث الأجسام وزوالها، وإليه الإشارة بقوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام (**فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ** * الأنعام: ٧٦) أي فلما زال القمر وانتقل من الأفق قال لا أحب الزائلين.

الرابع- الاستدلال بحدوث الأعراض والصفات في الأنفس والآفاق، أما دلالة حدوث الصفات في الأنفس، فلأن كل أحد يعلم أنه لم يكن موجودا قبل ولادته، وهو الآن موجود بهذا الهيكل والعوارض والصفات يولد صغيران فينمو، يصح فيتمرض، يحزن ويفرح، يقوى ويضعف، وكل ما يوجد بعد العدم لا بد له من موجد، وذلك الموجد ليس نفسه ولا الأبوان ولا سائر الناس، لأن عجزهن عن

إبداع مثل هذا الموجود معلوم بالبديهة، فلا بد من موجد يخالف هذه الموجودات حتى يصح منه إيجاد هذه الموجودات بحكمة وإتقان. ولما توهم متوهم لم لا يجوز أن يكون لطبائع الأرض والسماء والفصول والأفلاك والنجوم دخل وتأثير، ألفت الله أنظار العقلاء إلى رد ذلك بقوله (**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا** * النازعات: ٢٧-٣٢) أي أن كل ما يتوهم أنه مؤثر فهو ضعيف ومخلوق ومتأثر بسيطرة القادر العزيز. ومن هنا يتبين أيضا دلالة الآفاق على العليم الخلاق، فالأرض والجبال جبال يتصرف الباري سبحانه وتعالى في هذه الأجزاء السفلية والعلوية. فيكون في بعض الأراضي والجبال العيون والمعادن والأشجار، وفي بعضها لا يوجد أثر من ذلك، وجعل أضواء النجوم على أوجه مختلفة بالزيادة والنقص وسخرها لمشيئته وإرادته فسبحان الله عما يصفون.

ومما يجب أن يعلم أنه ليس الغرض من الآيات القرآنية ودلائلها المجادلة، بل الغاية تحصيل العقايد الحقة وتوجيه العباد إلى الله واطمئنان قلوبهم، فالدين وعظ وإرشاد ومجاملة، لا مراء ونزاع ومجادلة، فالمنصف يجب أن ينظر بنفسه لنفسه حتى يستوي ويعتدل ويراعي جانب نفسه وجانب قدسه، فأشرف الأوصاف هو الانصاف، وأكمل الأحوال هو الاعتدال، ولذلك نرى ونسمع أن العارفين لم يأتوا في هذا الموضوع إلا بما يجذب القلوب إلى المطلوب، بالتعبير اللطيف وحسن الأسلوب.

ومن ذلك ما يحكى أن جمعا من الدهرية دخلوا المسجد الذي فيه الإمام أبو حنيفة يريدون قتله، فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا له هات، فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأثقال، قد احتوشها في البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا لا، هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينة

تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ؟ فبكوا جميعا وقالوا: صدقت وأغمدوا سيوفه وتابوا. وسئل مرة أخرى عن الخالق المختار فتمسك بأن الوالد يريد أن يولد له ذكر فيولد أنثى، وبالعكس، فدل هذا على الصانع. وسأل هارون مالكا عن ذلك فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات.

وسئل الشافعي رضي الله عنه ما الدليل على وجود الصانع، فقال: ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا نعم قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الإبريسم، وتأكلها النحل فتخرج منها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج منها البعر، ويأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد، فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر.

وسئل أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فقال: قلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل، يريد بالقلعة: البيضة، وبالحيوان الفرخ.

رؤيته سبحانه وتعالى

ومن أحواله جل شأنه أنه يراه المؤمنون يوم القيامة عيانا بعيون رؤوسهم مطمئنة بها نفوسهم مستغرقة في أنوار تجلياته الحسنى التي لا حسنى فوقها قال تعالى (**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** * يونس: ١٠) وفسرت الزيادة بالرؤية لوجهه الكريم وقد ثبت في أحاديث كثيرة وروايات مختلفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم رؤية المؤمنين ذات الباري سبحانه.

في تفسير القرطبي وروى جرير بن عبد الله قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسا فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال (**إنَّكُمْ سَتَروْنَ ربَّكمْ عياناً كمَا تَرونَ هذا القَمَرَ لا تُضَامُونَ فِي رُؤيتِه، فإن اسْتَطَعْتُم أن لا تغْلبُوا عَلى صلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ غُروبِهَا فافْعَلُوا**) ثُمَّ قَرَأ: (**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ**

الغروب * ق: ٣٩) متفق عليه وخرجه أيضا أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح، وقال السعد في شرحه للنسفية أن حديث الرؤية رواه واحد وعشرون من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم.[١] ويدل على امتياز المؤمنين بهذه الزيادة العظمى قوله سبحانه وتعالى (**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىَ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** * القيامة: ٢٢-٢٥) والتفسير: وجوه يوم القيامة حسنة متنعمة ذات نضارة وبهجة ناظرة إلى وجه ربها الكريم. ووجوه يوم القيامة كالحة عابسة توقن وتعلم أنه يفعل بها ما لا يستوفيه إلا الداهية الكبرى والبلية العظمى، ويدل على حرمان الكفار أيضا عن هذه النعمة قوله تعالى (**كَلاَ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** * المطففين: ١٥) وهذا الذي ذكرناه من تمتع المؤمنين برؤية الله يوم القيامة، ومنع الكفار عنها مذهب جمهور أهل السنة والجماعة.

ومخالفة أهل البدعة ساقطة عن الاعتبار، واستدلالهم بآية (**لاَ تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ** * الأنعام: ١٠٣) مردود بحمل ذلك على الدنيا، أو على الإدراك بحيث يوصل إلى كشف شخصيته الكريمة، ويدل على ذلك آخر الآية الشريفة أي (**وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** * الأنعام: ١٠٣) فإن اللطيف لا يدرك تمام الإدراك. ثم يستفاد من قوله: (**وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ**) أنه تعالى يرينا ويرى أبصارنا فكما تحقق رؤيته لنا يتحقق رؤيتنا له بلا شبهة والحمد لله.

وأما استنادهم إلى اعتبار شروط في الرؤية يستحيل تحققها في رؤية الباري سبحانه فساقط، لأنه قياس الغائب على الشاهد وهو قياس فاسد كاسد، ومن مشى

---

(١) قال السيوطي قلت أما بهذا اللفظ فأخرجه الشيخان من حديث جرير البجلي، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأخرجه اللالكائي من حديث حذيفة بن اليمان وأخرجه أحمد وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي رزين العقيلي ولا سادس لهم. وأما مطلق الرؤية من غير تقييد بهذا اللفظ فورد من حديث أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وأنس، وجابر بن عبد الله، وزيد بن ثابت، وصهيب، وعبادة بن الصامت، وابن عباس، وابن عمر، وعدي بن حاتم، وعمار بن ياسر، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة، وأبي موسى. أنظر تخريج الأحاديث والآثار في شرح العقائد النسفية للسيوطي مخطوط.

على ذلك مشى على أشواك، فإن الجنة ونعيمها وأهلها خالدة مؤبدة، وإن ثمارها دائمة وظلها دائم، وإن أهل الجنة يتنعمون بلا أذى مادي أو معنوي وإن نتايج مأكولاتهم ومشروباتهم رشحات عرق تخرج وتفوح، وأنه لا لغو فيها ولا تأثيم، ويستفاد من ذلك أن قوى عالم الآخرة غير قوى عالم الدنيا، وإن الله قادر على كل شيء، فلا مانع عقلا ونقلا على تنعيم المؤمنين برؤية ذاته (**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** * آل عمران: ٧٤)

(الملائكة)

الإيمان بوجود الملائكة، وهم أجسام لطيفة نورانية قادرة بإذن الله تعالى على التشكل بأشكال مختلفة طيبة نظيفة. ذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم أوصافهم وأصنافهم، وأوصافهم كثيرة: **أحدها** الرسالة لبعض منهم بين الله تعالى وأنبيائه ورسله، أي أنهم يوصلون وحيه تعالى إليهم قال تعالى (**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً** * الحج: ٧٥) **والثاني** اجتنابهم عن النواهي وامتثالهم للأوامر قال تعالى (**لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** * التحريم: ٦)

وأما ما دار على الألسنة من قصة هاروت وماروت، من أنهما ابتليا بالمعصية فكذب صريح لا أصل له ولا أساس، لأنه على قراءة الملِكين (بكسر اللام) وهي قراءة متواترة، فالأمر واضح، لأنه يتبين أنهما لم يكونا من الملائكة بل من الملوك، وكانا عالمين بالسحر ويعلمانه الناس مع التوصية على أن لا يكفروا بمزاولته، بل يتعلمونه ليقوا أنفسهم من شر السحر، وأما على قراءة الملَكين (بالفتح) فتعليمهما الناس السحر كان حكمة من الله حتى يميز الناس المعجزات والكرامات من السحر، وحتى يحفظوا أنفسهم من الوقوع في شبكة السحرة، وظاهر الآية دال على هذا المعنى، فإن قيل كيف يعقل ثبوت القراءتين مع منافاتهما. قلنا: لا منافاة، لأنه على قراءة الكسر يستفاد أنهما كانا ملكين من ملوك بابل وكانا صاحبي إيمان وأخلاق ولذلك يوصون الناس بالخير. وأما على قراءة الملكين (بالفتح) فمعناها أنهما مع

كونهما من الملائكة كانا من كبار الملائكة وفي درجة الملوك بينهم[١]
والوصف **الثالث** دوام طاعتهم قال تعالى (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ** * الأنبياء: ٢٠) **والرابع** خوفهم من الله تعالى، قال تعالى (**هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ** * الأنبياء: ٢٨) **الخامس** قرب منزلتهم ورفعة درجتهم لقوله تعالى (**بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** * الأنبياء: ٢٦) **السادس** أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة قال تعالى (**وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ** * الزخرف: ١٩) استنكر الله تعالى اعتقاد الكفار أنوثة الملائكة، وإذا لم يكن فيهم إناث لا يكون فيهم الذكور أيضا، لأن إباء الماهية النوعية عن أحد الزوجين يقتضي إباءها عن الآخر كما حقق في محله.

وأما الأصناف فكثيرة أيضا: **أحدها**- حملة العرش قال تعالى (**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** * الحاقة: ١٧) **الثاني**- الحافون حول العرش لقوله تعالى (**حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** * الزمر: ٧٥) **الثالث**- أكابر الملائكة، ومنهم جبريل وميكائيل صلوات الله عليهما لقوله (**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ** * البقرة: ٩٨) ومنهم عزرائيل وإسرافيل كما ورد في الآثار الكثيرة. **الرابع**- المتهيئون لنصر أولياء الله وقهر أعدائه كما في قوله تعالى (**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ** * آل عمران: ١٢٤) **الخامس**- ملائكة الجنة لقوله تعالى (**وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** * الرعد: ٢٣) **السادس**- ملائكة النار لقوله تعالى (**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** * المدثر: ٣٠) **السابع**- الموكلون ببني آدم لقوله تعالى (**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** * ق: ١٨) **الثامن**- من كتبة الأعمال لقوله تعالى (**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** * **كِرَامًا كَاتِبِينَ** * الانفطار: ١٠-١١)

التاسع- مأمور سؤال الموتى كما ورد في الحديث الشريف (**إنه يأتي الميت**

---

(١) للتأكيد من صحة كلام الأستاذ ومتانته بإمكانك أن تراجع تفسير الإمام فخر الدين الرازي عند قوله تعالى (**وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** * البقرة: ١٠٢)

ملكان يسألانه عن ربه وعن دينه) إلى آخره[١] **العاشر**- الموكلون بأحوال العالم وهم المرادون بقوله تعالى (**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا** * الصفات: ١) وقوله (**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا**) إلى قوله (**فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا** * الذاريات: ١-٤) وبقوله تعالى (**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** * **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا**) إلى قوله (**فَالْمُدَبِّرَاتِ** * النازعات: ١-٥) وغيرهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله قال تعالى (**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ** * المدثر: ٣١)

(الجن)

الإيمان بالجن، وهم أجسام لطيفة نارية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة مطلقا، ويوصفون بالذكورة والأنوثة، وأبوهم الأول الجان، وقد قال تعالى (**وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** * الحجر: ٢٧) وفيهم المطيع والعاصي وقد أرسل إليهم الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، والكافرون منهم شأنهم الاستكبار والطغيان والكفر وإغواء الناس ولا تأثير لهم في أي شيء إلا بإذن الله تعالى، قال تعالى (**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ** * الأحقاف: ٢٩) وقال (**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** * **يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ** * الجن: ١-٢) الآية والشياطين من ذرية إبليس، وإبليس من الجن لقوله تعالى (**كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** * الكهف: ٥٠)

ولا يمتنع ظهور الملائكة والجن والشياطين على بعض الأبصار في بعض الأحوال، والحاصل أن وجود الملائكة والجن والشياطين مما ورد به نصوص الدين من الكتاب والسنة وإن إنكار وجودهم خروج عن الدين وكفر صريح. ولا يمتنع ظهور الملائكة والجن والشياطين على بعض الأبصار في بعض الأحوال دون بعض.

وليس كل ما لا يدرك بالبصر معدوما فإن في الكون أشياء لم تنكشف للناس

---

(١) عند مسلم جاء في حديث طويل بلفظ (**يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل**) الحديث. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٢١/١٠)

إلى يومنا هذا ولم يبصره أحد مع أن اختراعات المتتالية تفيد وجودها ووجود أمثالها.

الكتب

ومن نور الإسلام الإيمان بالكتب المترلة على الرسل من الله سبحانه وتعالى إجمالا وتفصيلا، أما الإجمال ففي ما لم يصل إلينا تفصيله، فنؤمن بأنه سبحانه وتعالى أنزل الصحف على سادتنا: آدم، وشيث، وإدريس، وإبراهيم، وغيرهم من المرسلين، والمشهور أن المترل على سيدنا آدم عشرة صحائف، وعلى شيث خمسون، وعلى إدريس ثلاثون، وعلى إبراهيم عشرة، والمجموع مع الكتب الأربعة مائة وأربعة كتب، والرسول الذي لم يترل عليه مستقلا كان يعمل بالكتاب السابق.

وأما التفصيل فبأن نؤمن بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، والزبور على داود، والإنجيل على عيسى، والقرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر إخوانه أجمعين. ولابد في الإيمان بالكتب من أمور:

الأول- الإيمان بأن هذه الكتب وحي من الله تعالى إلى رسله، وأنه ليست من الأمور الاكتسابية، ولا من قبيل الكهانة والسحر، ولا من باب إلقاء الشياطين والأرواح الخبيثة.

والثاني- الإيمان بأن هذه الكتب المترلة نزلت مع جبريل الأمين، ولم يكن في إمكان أي جن أو أنس التعرض لها وإلقاء شيء من ضلالاتهم فيها كما قال تعالى (**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ** * الإسراء: ١٠٥)

والثالث- الإيمان بأن الكتاب المترل على سيدنا محمد لم يتطرق إليه خلل وعيب منذ نزل بالحق إلى يومنا وسيبقى هكذا لقوله تعالى: (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** * الحجر: ٩)

والرابع- الإيمان بأن القرآن مشتمل على آيات محكمات هن أم الكتاب وآيات متشابهة، وإن المحكمات حاكمة على المتشابهات فلا يجوز في المتشابهات اعتقاد معنى يخالف النصوص المحكمة. ولنا في المتشابهات رأيان:

الأول- الإيمان بها وتفويض المعنى المراد منها إلى الله سبحانه وتعالى، فلا نتكلم في تفسيرها وتأويلها ونقف عندها وقفة الاحترام والإجلال، ونفوض المراد منها إلى الله المتعال، وهذا رأي السلف.

والثاني- تأويلها تأويلا صحيحا سليما ماشيا مع مقتضيات الآيات المحكمات حيث أن الآيات جاءت للإرشاد والإصلاح وإنما يتيسر الإرشاد بما يفهم معناه ومغزاه، وهذا رأي الخلف رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وبحثنا نحن المسلمين مع القرآن الكريم، فإنه أصل ديننا ودستور إلهي أنزله الباري سبحانه وتعالى إلى حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن هو الكتاب المترل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مدة ثلاث وعشرين سنة، للعمل بمقتضاه عقيدة وعملا، والتعبد بتلاوته، والإعجاز بمقدار أقصر سورة منه وكان مبدأ نزول هذا القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في السابع عشر من رمضان المبارك الواقع في العام الأربعين من عمره الشريف، وكان صلى الله عليه وسلم في غار (حراء) من بعض جبال نواحي مكة المكرمة، وأول ما نزل عليه (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ اْلاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَرَبُّكَ اْلاَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** * العلق: ١-٤)[١]

وبعد ذلك نزل بالتدريج حسب ما اقتضته الحكمة الإلهية في مدة ثلاث وعشرين سنة وآخر ما نزل منه آية (**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** * البقرة: ٢٨١)[٢]

وكان نزول أمين الوحي جبريل عليه السلام على أوجه منها أنه يتمثل له بصورة ملكية مهيبة، ومنها أنه يتمثل بصورة إنسان معتدل يسمى (بدحية) وهو من أصهاره صلى الله عليه وسلم، ومنها أنه يأتيه بلا انكشاف الصورة مع صلصلة

---

(١) انظر صحيح البخاري باب كيف كان بدأ الوحي قبل كتاب الإيمان.

(٢) فمن أراد المزيد بإمكانه أن يراجع كتاب البرهان في علوم القرآن ٢٠٩/١.

كصلصلة الجرس يسمعها الرسول صلى الله عليه وسلم ويغيب عن حالته الاعتيادية، وذلك أشد أحوال نزول الوحي عليه صلى الله عليه وسلم.

ولما كان أوقات مبادئ دعوى الرسالة منه وإيمان الناس به أوقاتا حرجة دقيقة، وكان من يدخل في الإسلام يدخل في آفاق واسعة من انشراح الصدر، وفي عين الوقت يدخل في موجة رهيبة من الاضطهاد والأذى بتعدي المشركين وكانت الدعوة في إختفاء ما أمكنهم الكتابة بصورة واسعة وإنما يحفظون ما قرأه عليهم الرسول عن ظهر القلب وتلاوته وتكراره، مع العلم أن أمة العرب كانت أمة أمية، وكان اعتمادهم في قصصهم وأدبهم على الحفظ في الصدور، فأخذ القرآن موقع الصدارة من صدورهم، لا سيما وكان ينبعث القرآن من عالم الغيب المتلاطم بموجات الأنوار، ويحدث بكل ما نزل من الآيات تطور لقلوب المسلمين، وتدرج من درجة إلى درجة أعلى كلما (**تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** * الأنفال: ٢)

إلى أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة واستقر بها المسلمون، فأمر رجالا كراما من الصحابة بكتابة الوحي من أول ما نزل إلى ذلك اليوم ومن ذلك التأريخ إلى وفاته عليه الصلاة والسلام.

وبلغ عدد كتاب الوحي نيفا وأربعين شخصا منهم الخلفاء الراشدون، ومعاوية ابن أبي سفيان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وغيرهم كما هو مذكور في كتب السير، وبما أنه لم يكن إذ ذاك أوراق قرطاسية وما كان الناس يتمكنون من صحايف جلود مصفاة كانت كتابتهم على عظام الأكتاف وسعاف النخل والحجارة الملساء، وكان أخص الناس بكتابة الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت، وكان كل ما نزل من الوحي يبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم وإلى غيرهم فيكتبونه ويحفظونه يكررونه آناء الليل وأطراف النهار، ويعلم الحفاظ أهلهم وذويهم، فعندما يمر الإنسان بأطراف دور الأصحاب يسمع دويا كدوي النحل من قراءة القرآن، فتنور العالم الإسلامي بأنوار القرآن، ولم يكن عندهم كلام ووعظ وإرشاد وحكمة

يصل درجة آية من آيات القرآن فالاعتناء بها كان في أعلى درجات الاعتناء.

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كتاب الوحي بضم الآيات بعضها إلى بعض ويعلمهم انتهاء سورة من السور بنزول (**بسم الله الرحمن الرحيم**) فلم تكمل سورة إلا بتوقيف جبريل للرسول وإعلام الرسول أصحابه الكرام ولم تأخذ آية من أي سورة محلها إلا بإعلام الرسول وتوقيفه[١]

وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن المحفوظ عنده في رمضان كل سنة مرة على جبريل عليه السلام، ولكنه قرأه عليه في الرمضان الأخير من حياته مرتين كما قرأ زيد بن ثابت ما عنده من القرآن مرتين فيها، ولعل هذا الأمر نعى بوفاته صلى الله عليه وسلم، وإعلان أن زيد بن ثابت أمين على الوحي المنزل.

وهذا لجميع الموجود عند زيد بن ثابت هو الجمع الأول الموجود في آخر حياته صلى الله عليه وسلم وعند وفاته في ربيع الأول في العام الحادي عشر الهجري.

ولما ألقت الخلافة قيادها إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ووقعت وقايع حربية مدهشة في جزيرة العرب، ولا سيما ما وقع بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب وأعوانه في اليمامة، واستشهد في هذه الواقعة نحو سبعين صحابيا من قراء القرآن الكريم خاف عمر بن الخطاب من ضياع القرآن بموت القراء وأشار إلى سيدنا أبي بكر بجمع القرآن في صحايف مضبوطة ووافق أبو بكر على ذلك وأسمعوا زيد بن ثابت ما عندهم وترجياه الوفاء بهذا الأمر ووافقهما وشرعوا في انجاز المهمة العظيمة. فجمعوا كل من كان عنده قرآن مسطور أو محفوظ في الصدور فكتبوا جميع ما عندهم بعد الاطمئنان والاستيثاق في صحائف من الجلد، وحفظت عند سيدنا أبي بكر الصديق في حياته واستلمها عمر بعد استخلافه، وبقيت عنده إلى استشهاده، وبعد وفاته

---

(١) حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنه كان النبي لا يعرف فصل السورة، حتى ينزل عليه (**بسم الله الرحمن الرحيم**) وفي رواية لا يعرف انقضاء السورة، رواه أبو داود. والحاكم وقال: إنه صحيح على شرط الشيخين، انظر نصب الراية ١/٣٢٧.

بقيت عند أم المؤمنين حفصة بنته رضي الله عنها إلى أيام خلافة عثمان رضي الله عنه.

وفي أيام عثمان رضي الله عنه زادت الفتوحات واتسعت رقعة الخلافة شرقا وغربا جنوبا وشمالا، فصادف أن وقع بين المجاهدين من الأصحاب الكرام عندنا وصلوا إلى (باب الأبواب شمال أذربيجان) اختلاف في بعض القراءات كادت أن تؤدي إلى فتنة كبيرة أطفأها الله تعالى برحمته. وكان حذيفة بن اليمان صاحب أسرار الرسول صلى الله عليه وسلم شاهدا لما جرى، فرجع إلى المدينة المنورة ولم يترل إلا على الخليفة عثمان، ووصاه بجمع القرآن وجمع الناس على وضع لا يكون مثارا للاختلاف وحذره من مغبة إهمال ذلك الأمر العظيم.

فاستشار عثمان رضي الله عنه الأصحاب الموجودين من المهاجرين والأنصار بما فيهم سيدنا علي بن أبي طالب وبقية العشرة المبشرة حول القضية فاتفقت آراؤهم على جمع القرآن الكريم مرة أخرى فأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة لأخذ القرآن المجمع عليه في عهد أبي بكر، فأرسلته إليه، وعهد عثمان في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ، وهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد ابن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثلاثة الأخيرة من قريش. وقرر أن لا يكتبوا في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن، وعلموا أنه استقر في العرضة الأخيرة، وما أيقنوا صحة نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويتركوا ما سوى ذلك نحو (فامضوا إلى ذكر الله) بدل (**فَاسْعَوْا إِلَىَ ذِكْرِ اللهِ** * الجمعة: ٩)، وأمرهم عثمان أن يكتبوا القرآن على الوجه التالي: اللفظ الذي لا تختلف فيه القراءة يرسم بصورة واحدة لا محالة. والذي تختلف فيه القراءة ويمكن رسمه في المصحف محتملا لتلك الوجوه رسموه كذلك كلفظ (**فَتَبَيَّنُوا** * الآية: ٦) في الحجرات حيث يحتمل لقراءات (**فَتَبَيَّنُوا**) مجردة عن النقط فكتبوه برسم واحد محتمل لهما.

وما لم يمكن فيه رسمه محتملا لها كتبوه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف، وكتبوه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر وذلك

نحو (**وصى**) ماضيا من باب التفعيل و (**أوصى**) ماضيا من باب الإفعال.

وقد نسخ بأمر عثمان ستة نسخ أرسل منها إلى مكة المكرمة ومصر، والشام، والبحرين، والكوفة، وبقيت نسخة بالمدينة المنورة، وهي المسماة بالمصحف الإمام، ثم أمر بما سواها من المصاحف أن تحرق وتدفن، وكان بعض من الصحابة يمنع إحراق المصحف الموجود عنده، فوافق أخيرا عندما تبين له أنه خير للإسلام، وكان يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حراق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: رحم الله عثمان حيث جمع الناس على الخير، فلو كنت أنا الخليفة بدله لفعلت هذا بادئ بدء أو كما قال. ومما ينبغي معرفته أن المصاحف العثمانية لم تنقط، ولم تشكل، وبقي الأمر على ذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان، ولما اتسعت رقعة الإسلام، واختلط الأعراب والأعاجم، وكانوا يشتبهون في قراءة بعض الكلمات، أمر الحجاج بن يوسف بتدارك هذا، وهو عهد ذلك الخطب المهم إلى عالمين جليلين هما نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني، وكلاهما كفء قدير لجمعهما العلم والعمل والصلاح والورع والخبرة بأصول اللغة ووجوه قراءة القرآن فكملا مهمتهما وأعجما القرآن الكريم على أتقن وجه وأجوده.

وأما تشكيله فكان هو أيضا من المهمات بعد أن حصل اختلاط الناس بعضهم ببعض، وازداد اللحن في إعراب اللغة. حتى صادف أبو الأسود الدؤلي قارئا يقرأ (**أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** * التوبة: ٣) بجر لام الرسول، فأفزعه ذلك وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى (زياد) والي البصرة، وقال له: قد أجبتك إلى ما سألت وكان يطلب منه سابقا إعراب القرآن وهو يأبى، فشكل القرآن بصور نقاط فوقية وتحتية، وجعل علامة السكون نقطتين، واستمر الناس على ذلك، وزادوا ما يحتاجون إليه، حتى وصل القرآن الكريم إلى هذا الحد المعلوم من الشد والمد والحركة والسكون، فجزاهم الله تعالى عن المسلمين خيرا.

القراآت السبع

ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قال (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**)[١] وفسر بسبعة أوجه من القراآت المختلفة ظاهرا والمتحدة معنى ومغزى ومآلا، وذلك لتيسير قراءته على كافة قبائل العرب. وهذه القراآت السبع متواترة أي ثبت كل منها بنقل جمع يؤمن من اتفاقهم على الكذب عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طبقة بعد طبقة. ولما بعث عثمان بالمصاحف إلى الممالك الإسلامية أرسل مع كل مصحف من يوافق قراءته لذلك المصحف.

والمشتهرون بإقراء القرآن من الصحابة رضي الله تعالى عنهم: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهم، ومن التابعين في المدينة المنورة: ابن المسيب، وعروة، وسالم، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان بن يسار، وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، وابن شهاب الزهري، وعبد الرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ، وفي مكة المكرمة: عطاء، ومجاهد، وطاوس، وعكرمة، وأبن أبي مليكة، وعبيد بن عمير، وغيرهم. وفي البصرة: عامر بن عبد القيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وغيرهم. وفي الشام: المغيرة بن شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء، وغيرهما.

وفي الكوفة: عتبة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والربيع بن خيثم، والحارث ابن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السلمي، وزر ابن حبيش، وعبيد بن فضلة، وابوزرعة بن عمر، وسيعد بن جبير، والنخعي، والشعير رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب **فضائل القرآن**. انظر القسطلاني (٤٥١/٧)

القراء السبعة ورواهم

ثم تفرغ قوم للقراآت يضبطونها ويعنون بها، فكان بالمدينة المنورة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع بن أبي نعيم.[١]

وكان بمكة المكرمة: عبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيص، وكان بالكوفة: يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان بن الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي. وكان بالبصرة: عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبوعمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي. وكان بالشام: عبد الله بن عامر. وعطية بن القيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله ابن المهاجر، ثم يحيى بن حارث الزماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي رضي الله تعالى عنهم.

ثم اشتهرت عبارات تحمل أعداد القراآت، فقيل القراآت السبع، والقراآت العشرة، والقراآت الأربع عشرة، وأحظى الجميع القراآت السبع، وهذه هي القراآت المنسوبة إلى الأئمة السبعة المعروفين، وهم نافع، وعاصم، وحمزة، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعلي الكسائي، التي اشتهرت على رأس المائتين في الأمصار الإسلامية.

فكان الناس في البصرة على قراءة أبي عمرو ويعقوب، وفي الكوفة على قراءة حمزة وعاصم، وفي الشام على قراءة ابن عامر، وفي مكة المكرمة على قراءة ابن كثير، وفي المدينة المنورة على قراءة نافع.

وبقيت القراآت السبع على هذه الحال، دون أن تأخذ مكانها من التدوين حتى خاتمة القرن الثالث، إذ نهض ببغداد الإمام ابن مجاهد أحمد بن موسى بن عباس، فجمع قراآت هؤلاء الأئمة السبعة، وأخذ على نفسه أن لا يروي إلا عمن اشتهر بالضبط، والأمانة وطول العمر في ملازمة القراءة

---

(١) من أراد التفصيل في معرفة القراء والقراآت فليراجع الشاطبي ص ٩.

رواة القراء السبعة

وكان لكل من القراء السبعة رواة كثير، وأشهر رواة (نافع) اثنان: **الأول** عثمان بن سعيد المصري الملقب بـــ(ورش) انتهت إليه رئاسة القراء بالديار المصرية في زمانه ولد سنة مائة وعشر بمصر، وتوفي بمصر سنة مائة وسبعة وتسعين عن سبع وثمانين سنة. **الثاني** عيسى بن ميناء مولى بني زهرة الملقب بقالون لجودة قراءته، فإن قالون باللغة الرومية بمعنى الجيد، ولد سنة مائة وعشرين، وتوفي سنة مائتين وعشرين عن عمر يناهز المائة. وأشهر رواة عبد الله بن كثير المكي اثنان:

(الأول) محمد بن عبد الرحمن المخزومي المكي الملقب بـــ(قنبل) لاستعماله دواء يقال له قنبل ولد سنة مائة وخمسة وتسعين وتوفي سنة مائتين وواحد وتسعين.

(الثاني) أحمد بن محمد البزي المكي مقرئ مكة ومؤذن المسجد الحرام، ولد سنة مائة وسبعين وتوفي سنة مائتين وخمسين عن عمر يقارب الثمانين. وأشهر رواة أبي عمرو زيان بن العلاء التميمي المازني البصري اثنان:

الأول أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري الأزدي البغدادي الضرير نزيل سامراء أمام القراء وشيخ الناس في زمانه. وهو أول من جمع القرآت توفي سنة مائتين وستة وأربعين

والثاني أبو شعيب صالح بن زياد السوسي الرقي، وتوفي سنة مائتين وواحد وستين عن عمر يقارب السبعين. وأشهر رواة أبي عمران عبد الله بن عامر أمام أهل الشام اثنان: **الأول** أبو الوليد هشام بن عمار السلمي الدمشقي إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم، ولد سنة مائة وثلاثة وخمسين وتوفي سنة مائتين وخمسة وأربعين. **الثاني** أبو عمر عبد الله بن أحمد بن بشر بن ذكوان القرشي، ولد سنة مائة وثلاث وسبعين، وتوفي سنة مائتين واثنتين وأربعين.

وأشهر رواة حمزة بن حبيب الكوفي اثنان: **الأول** خلاد بن خالد الشيباني الكوفي الصيرفي وكان إماما في القراءة ثقة عارفا محققا، توفي سنة مائتين وعشرين.

الثاني أبو محمد خلف بن هشام البزار البغدادي الأسدي، ولد سنة مائة وخمسين، وتوفي سنة مائتين وتسعة وعشرين ببغداد، في وقت اختفائه من الجهمية.

وأشهر رواة أبي بكر عاصم اثنان:

الأول حفص بن سليمان الأسدي الكوفي ربيب عاصم وابن زوجته وأعلم الناس بقراءة، وقد اقرأ الناس دهرا ولد سنة تسعين، وتوفي سنة مائة وثمانين.

الثاني أبو بكر ابن شعبة الأسدي الكوفي، وكان إماما كبيرا عالما عاملا وكان من أئمة السنة وعمر دهرا وتوفي سنة مائة وثلاثة وتسعين وقد ناهز المائة.

والمصاحف التي بأيدينا الآن هي بحسب رواية حفص لقراءة عاصم عن عبد الله بن حبيب السلمي عن علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وعلى قراءته ورسم مصحفه طبع المصاحف الموجودة بأيدينا في بلادنا، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ثابتين على خدمة هذا القرآن الكريم بمنه وكرمه.

هذا الذي ذكرناه في القرآن الكريم كان من حيث روايته، وأما من حيث معناه ومغزاه فهو كلام (**لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** * فصلت: ٤٢) لم يوجد ولا يوجد ولن يوجد مثله من جهة فصاحته وبلاغته، واستيعابه لسعادة الدارين اعتقادا وعملا وأخلاقا.

فأنه يوجه المكلف أولا إلى الشعور بمسؤوليته والاعتراف بربه رب العالمين (**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** * الأعلى: ٢-٣)

خلق هذا العالم البديع بعلوياته وسفلياته أبدع الكائنات بعلمه وحكمته وإرادته وقدرته (**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** * الزمر: ٦٢-٦٣) وهو المستحق لأن يعبد ويسجد له ويستعان به ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** * يس: ٨٢) وخلق وراء هذا العالم عالما آخر يجزى فيه المكلف حسب أعماله إن خيرا فخير وإن

شرا فشر. وأنه أرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على حجة بعد الرسل بلغوا أحكامه تعالى، وهم الواسطة بين العباد وربهم، وأنه قرر أن يكون للناس أولوا أمر مطاعين في ما وافق حكم الله. وقرر أن يتشاوروا في كل أمر مهم، وإذا عزموا فليتوكلوا على الله، وأن يحكموا بالعدل ويزنوا بالقسطاس المستقيم، وأن يعدوا ما في طاقتهم من القوة لصيانة العباد والبلاد من الأعداء، وأن يسعوا في أسباب المعاش والاقتصاد، ورغب في أن يستفيد الناس مما في الأرض منابعها ومعادنها وأشجارها وثمارها. وفرض حسن السلوك وتطبيق النظام، وصلة الأرحام، والترحم والإنصاف، ورعاية الضعاف، وأن يجعلوا العلم أمامهم، والصدق شعارهم، والجهاد دثارهم، والصبر درعهم، والتوكل اعتمادهم إلى لقاء رب العالمين.

ومع إفادة هذه الجواهر الثمينة تراه في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة أو ما والاها، يحير العقول ويعجز الألباب، وتحدى الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلم يقدروا واستسلموا أمام عظمته، وهذا أمر مفروغ منه، أي أن هذا الكلام المجيد معجز ولم يصل إليه طاقة المتكلمين البلغاء. وتكفر العلماء لمعرفة سر هذا الإعجاز فمنهم من قال أن هذا الكلام كلام الحق سبحانه وتعالى، ونزل من عالم الغيب، فحفظه علام الغيوب عن أن يعارضه أحد.

ومنهم من اعترف بذلك ولكنه أبدى وجوها عديدة بني عليها إعجازه للناس وعزه: **الأول** أن بلاغة العرب كانت غالبا في المشاهدات من المظاهر والمناظر المحسوسة التي يتمكن الإنسان من إحالة القلم وإحالة اللسان فيها، وهذا القرآن يتكلم غالبا في الأمور الغيبية والروحية البعيدة عن الإحساس مع أنه أبدع فيها وأجاد وبرع فيها وأفاد وزهد الإنسان في ما لا يفيد الخير في المعاش والمعاد.

الثاني أن طراوة الكلام وحلاوته غالبا تأتي من ناحية المبالغة والغلو والإغراق، وفي ما لم ير مثله في الآفاق وتلك مملؤة بالأكاذيب.

وأما القرآن الكريم فإنه أخذ طريق الصدق وإحقاق الحق للأنام، مع أنه أتى

بما بهر العقول والأفهام، وظهر على المصاقع من أصحاب الخطب والتفنن في الكلام.

الثالث أن البلاغة وعلو الدرجات فيها لا تأتي في كلام الناس إلا في مواضع معدودة، وجعل محددة منه، وأما هذا القرآن المجيد فالفصاحة سارية، في أجزائها، والبلاغة جلية في جملها، وحسن الأسلوب ممزوج بسردها بحيث لا يقدر الحاذق أن يتجاوز عن سماع جملة إلا وتأتيه جملة أخرى ألصق وأنسب وأوفق بالمقصد والمطلب.

الرابع أن كل كلام فيه تكرار يتنفر منه الذوق ويمل، ولكن القرآن مع ما فيه من التكرار في مواضع كثيرة لما كان بتغير أسلوب وتفنن في التعبير بالمطلوب، لا يمل منه الإنسان، ولا يسأم، بل يقبله الطبع ويتنعم.

الخامس أن كل بليغ من أصحاب البلاغة تقتصر بلاغةً على ضرب من المقاصد، وأسلوب من الأساليب من حماس، وشجاعة، وإقدام، وتشبيب، وغزل، وغرام، أو حكمة، ووعظ، وإرشاد، أو في وصف المظاهر، والمناظر، أو في الأنهار، والحدائق، والأوراد، والأشجار، أو في التخويف، والترهيب، والترغيب، فلا يتعدى ذلك الموضوع المعين. وأما القرآن الكريم فهو بليغ في كل فن من الفنون، فيقول في الترغيب (**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ** * السجدة: ١٧) ويقول (**فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ** * الزخرف: ٧١) ويقول في الترهيب (**أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ** * الإسراء: ٦٨) وقال (**وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيد..**) إلى قوله (**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** * إبراهيم: ١٥- ١٧) وقال في الزجر (**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِه..**) إلى قوله (**وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا** * العنكبوت: ٤٠) وقال في الإلهيات (**اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ** * الرعد: ٨)

والسادس أن هذا القرآن أصل العلوم كلها، فالدين وأصوله والفقه وأصوله والعربية، وعلم الزهد، والقناعة، وبعبارة أشمل الحكمة العملية والنظرية، أي تهذيب الأخلاق، وتدبير المترل، وسياسة المدن، وعلم ما وراء الطبيعة، أعني الإلهيات المجردة عن المادة، والغيب المطلق، والفلكيات، وسباحة السيارات في أفلاكها، وموازين

الحركات، كل ذلك مذكور في القرآن، ويذكر الأرض والجبال والبر والبحر وجريان السفن فيها، ويثبت أن كل ذلك نعمة خلقت لأشرف خليقة، وهو الإنسان المخلوق في أحسن تقويم من الفطرة السليمة والعقل والإدراك، وشجع الإنسان على النظر في الأنفس والآفاق بغية الوصول إلى حقيقة الإيمان والاطمئنان والاستقامة على الانقياد لله سبحانه وتعالى.

السابع مغايرة أسلوبه لأسلوب كلام الناس في العالم العربي، فلم يدرك أحد أسلوبا يشبه أسلوب القرآن الكريم (بله) ما يجد المسلم في وجدانه بل كل إنسان خالي الذهن عن العناد والاستكبار من جماله الروحي المعنوي الذي يستولي على المشاعر والقلوب، ويحول الإنسان من عالم إلى عالم، ومن نفسية شخصية إلى روحية قدسية، ومن الغفلة إلى اليقظة والشعور، ومن الظلمات إلى النور، ومن الأفق المادي الضيق إلى الآفاق المعنوية الروحية الواسعة التي فيها نجاح الإنسان وقوة القلب وحقيقة التوجه إلى الله والتوكل على رب العالمين.

ومن نور الإسلام الإيمان بالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم

أما النبي: فهو إنسان أوحى الله إليه بشرع سواء أمره بتبليغه إلى الخلق أو لم يأمره به، وأما الرسول فهو إنسان كذلك أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه سواء نزل عليه كتاب مستقل، أو كان مأمورا بتبليغ الكتاب السابق عليه.

وطريق ثبوت الرسالة المعجزة، فإنه إذا أظهر الرسول رسالته وأدعى أنه أرسله الله إلى الخلق لتبليغ الأحكام، فمنهم من يؤمن به لا توقف وتردد، وذلك لصفاء عقله، وقوة إدراكه، ومثله كمثل زيت مسته النار واشتعل فورا، أولئك الناس هم الصديقون، ومنهم من يبقى برهة من الزمان فيتفكر في آثار ذلك الإنسان وأحواله وأخلاقه، وما يدعوا إليه، ويستمع كتابه ودستوره بقلب سليم إلى أن يشرح الله صدره للإسلام.

ومنهم من لا يهتم بذلك ويتعلل بعلل ويأتي بموائق أمام الدعوة إلى أن يتحداهم الرسول بمعجزة من المعجزات، فتستولي على قلوبهم ومشاعرهم، فينقادون له ويؤمنون به، ومنهم من يبقى تائها في ضلاله مغمورا في عناده واستكباره، وقلبه يقسو من سماع المواعظ والإرشادات وينبو عن النظر إلى المعجزات، بل كلما رأى أو سمع شيئا من ذلك تنبعث به نفسه إلى المهالك والعياذ بالله تعالى.

والمعجزة: أمر خارق للعادة قصد الله به أظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله فالعاقل المنصف الموفق عندما نظر إلى المعجزة استدل بأنه لو لم يكن هذا الشخص رسولا من الله سبحانه وتعالى ما كان يؤيده بهذه المعجزة، لكنه أيده بها فهو رسوله، وذلك لأن من ادعى بمحضر جمع من الناس أنه أرسله هذا الملك الجالس على كرسيه إليهم لتبليغ أوامره، وأن ما يقوله لهم فهو قوله، وادعى بأن الشاهد على صدقه هو أن الملك يستجيب أمري، حتى إذا أشرت إليه بأن يقوم من مكانه يقوم، فأشار إليه وقام من محله مرات، حصل علم قطعي عادي للناس بأنه وكيل ذلك الملك، ولم تبق عندهم شبهة في صدقه.

ومما يجب أن يعلم أن المعجزة التي فسرناها بالخارق للعادة ليس على السنن الكونية والنواميس الاعتيادية، ولا مجال فيها للاكتساب والصناعات، وإنما هي تظهر بمحض خلق الله تعالى وإبداعه تصديقا لرسوله.

ثم هي أن ظهرت من الشخص قبل بعثه ورسالته سميت إرهاصا، أي تأسيسا وتوطئة لرسالته، وإن ظهرت منه بعد إظهار الرسالة، فإن كانت مع التحدي سميت معجزة، وإلا فكرامة، وقد تطلق المعجزة على جميع الخوارقة الواقعة بعد دعوى الرسالة سواء اقترنت بالتحدي، أو لا، وإن ظهرت من غير من ادعى الرسالة، فإن كانت ممن كان تابعا لرسوله عاملا بأحكام شرعه سميت كرامة، وإلا سميت استدراجا.

فظهر أن السحر والشعوذة وخفة اليد وأمثالها ليست معجزة ولا كرامة، لأنها أمور ناتجة عن الكسب والصنعة، ومبنية على أسباب وشرائط مادية عادية.

ويجب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل بلا تفرقة بينهم في أصل النبوة والرسالة إجمالا في ما علم إجمالا، وتفصيلا في ما علم تفصيلا، كالرسل المذكورين في القرآن الكريم، وهم ستة وعشرون: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهرون، وإلياس، واليسع، وذو الكفل، ويونس، وداود، وسليمان، وعزير، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام.

وأما سيدنا الخضر فهو ولي من أولياء الله تعالى، ولقمان كان حكيما بارعا دينا وارعا آتاه الله حكمة (**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** * البقرة: ٢٦٩) وأما ذو القرنين فكان ملكا صالحا موفقا للاستيلاء على بقاع المعمورة، وروي في الحديث الشريف أسماء بعضهم كيوشع، وشعيا، وأرمياء، من رسل بني إسرائيل عليهم السلام. وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن عددهم مائتان وأربعة وعشرون ألفا، وفي رواية أخرى مائة وأربعة وعشرون ألفا[١] والحق توقف في التنصيص على عدد معين لقوله تعالى (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** * غافر: ٧٨)

ويجب الإيمان إجمالا بأنبياء آخرين لم يذكروا في الكتاب والسنة بأسمائهم لقوله تعالى (**وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ**)، ولقوله (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ** * فاطر: ٢٤) وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى أفرادا معينين لكونهم في الديار العربية وسمع الناس بعض أخبارهم وأحوالهم، وإلا فالأنبياء كثيرون ولا يعلم عددهم إلا الله الكريم.

ويجب الإيمان بأن الرسل أفضل من الأنبياء الغير المرسلين، وأن أولي العزم من الرسل أفضل من غيرهم، والمراد من أولي العزم الرسل الكرام الذين تحملوا مكابد ومكايد من اهل الشرك والطغيان، وأصابهم الأذى منهم، فصبروا وجاهدوا، حتى

---

(١) راجع تفسير ابن كثير حيث ذكر روايات الأحاديث التي تذكر عدد الأنبياء، سورة النساء عند قوله تعالى (**وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** * ١٦٤) (١/٥٨٥ - ٥٨٧)

قضى الله بما أراد على العباد، وهم خمسة: سادتنا نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيدنا محمد، صلى الله تعالى عليهم وسلم أجمعين.

ويجب الإيمان بأن سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن شريعته ناسخة لما خالفها من شرائع الرسل السابقين، وإذا وجدنا شيئا موافقا لما في الشرائع السابقة، فإنا نعمل به من حيث أنه أتانا به الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لا من حيث التبعية، فإن رسالة رسولنا الكريم رسالة عامة مؤبدة شاملة، كما يجب الإيمان بأن الأنبياء والمرسلين كانوا كلهم متفقين في أصول الدين من الإيمان بالله، ورسله، وملائكته، وكتبه، وباليوم الأخر، وبالقدر، وعلى ذلك نزل قوله تعالى (**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** * الشورى: ١٣)

ويجب في حقهم صفات ثلاث: وهي الصدق، والأمانة، والفطانة، أي الذكاء، فيجب الإيمان بثبوتها لهم وبراءتهم عن أضدادها، أي أنهم صادقون في ما بلغوه من الشرائع والأحكام، وأمناء على الوحي المنزل لم يتركوا تبليغ شئ منها، ولم يزيدوا فيها وأنهم أصحاب فطنة وذكاء، وأما باقي الصفات الاعتيادية فهم فيها مثل سائر البشر يأكلون ويشربون وينامون ويتعبون ويستريحون ويصحون ويمرضون ويحيون ويموتون، ولكن عالم البرزخ وما بعد البعث بالنسبة إليهم أعلى العوالم برحمة رب العالمين.

ويجب الإيمان بعصمتهم من بدأ النبوة إلى وفاتهم من الذنوب الكبائر مطلقا ومن الصغائر عمدا وقال بعض: وسهوا أيضا، كما أنهم معصومون قبل النبوة أيضا من الكبائر وصغائر تدل على الخسة وحاشاهم منها، وما يوهم خلاف ذلك فمحمول على معنى يناسب مقامهم من خلاف الأولى، أو أنها لم تكن في وقت التكليف جمعا بين الأدلة والأصول النقلية والعقلية السليمة.

ودليل ذلك على العموم قوله تعالى (**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** * آل عمران: ٣٣) وآل إبراهيم يشمل سيدنا إسماعيل

وسيدنا محمد، كما يشمل سيدنا إسحاق وأولاده المرسلين من بني إسرائيل، وكذلك يشمل آل عمران سيدنا موسى ومن وراءه منهم، وقوله (**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** * الصافات: ١٨٠-١٨١) وقوله (**قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** * النمل: ٥٩) وقوله تعالى بعد ذكر المرسلين (**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** * الأنعام: ٩٠) وقوله تعالى (**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** * البقرة: ١٢٤) وذلك لأن الاصطفاء والاختيار لا يقع على أهل الفسوق والسيّئات والمجرمين من الناس، والسلام والإكرام والاحترام لا يقدم من الله تعالى إليهم، ولا يؤمر بالاقتداء والاهتداء بأصحاب السيئات، وحاشا أن يكون النور مظلما، والإمام العدل ظالما، والمرشد الأعظم مجرما ذلك أوهام الجاهلين.

والمراد بالعهد في قوله (**لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** * البقرة: ١٢٤) إن كان عهد النبوة والرسالة، فالأمر واضح من حيث التنصيص على أن الظالمين وأصحاب الفسوق لا ينالون عهد النبوة والرسالة، وإن كان عهد الأمانة والقدوة في الدين، فلأنه إذا كان الظالمون محرومين من الرياسة والقدوة الشرعية، فحرمانهم من النبوة والرسالة بالطريق الأولى.

(الحكمة من إرسال الرسل)

الإيمان بأن بعث الرسل إلى العباد لطف من الله ورحمة، لجمع شتات الأفكار، وتنورها بالأنوار، وسوقها إلى العقايد والأعمال والأخلاق العالية، وإن للإنسان حاجة أكيدة إلى الرسالة وإلى الاقتباس من أنوارها: وذلك من وجوه:

(دليل النظام)

أولا- إن الإنسان إذا تفكر قليلا عرف أنه خلق اجتماعيا لا يعيش معيشة الإنسان وحده، ومدنيا لا يعيش بدون نظام عام جامع مانع، وإن النظام يحتاج إلى الرعاية، والرعاية في حاجة إلى محبة الإنسان الراعي لبني نوعه المرعي، وكل إنسان

راع وكل إنسان رعية، وكل راع مسؤول عن رعيته، وإن هذه المحبة لا تتكامل بحيث تسوق الإنسان إلى رعاية النظام، إلا بأمل نتيجة واقعية حميدة في عالم الحياة، ونتيجة مؤبدة في عالم ما بعد الحياة الدنيا، وهذا الأمل الجامع لرغبات الدنيا المحدودة، ولرغبات الآخرة اللامحدودة، أمل يحصل من تعاليم الرسل الكرام، فثبت حاجة البشر إلى رسالة الرسل الكرام.

لقائل أن يقول ما وجه أن هذه المحبة لا تتكامل إلا بذلك؟

وجوابه أن محبة الإنسان للإنسان لعلاقة القرابة أو الدراسة أو المصالح الحيوية كالتجارة والزراعة والإدارة، لا تتجاوز عدة أشخاص متشاركين في ذلك، إلى غيرهم، كغريب مسافر منقطع، ويتيم ليس له معين، ولأرملة ليس لها معيل، ولشياب لا مجال لهم في الناس من أي جهة، ولمرضى، ولمعوزين، ولأهل غير الوطن من المسلمين، ولأهل غير دينك من الذميين والمستأمنين، وأما المحبة المتولدة من قواعد الإسلام فهي محبة جامعة لصلة كل إنسان بكل إنسان في ما أمكن تطبيقه حسب القواعد والأصول.

ولقائل أن يعود ويقول لنفرض أن تلك المحبة ناتجة عن نظام حيوي دنيوي شامل كما في أنظمة الدول العالمية بدون حاجة إلى الدين والرسالة.

وجوابه أنك علمت من مطالعاتك وملاحظاتك أن تلك العلاقة علاقة قصيرة يسيرة لا تتجاوز عن ملاحظة أبناء الوطن المربوط بذلك النظام، ونحن نريد علاقة ودية بعيدة المدى لا تتقيد بزمان ولا مكان ولا قوم دون آخر تربطهم بمبدأ واحد وآله واحد ونظام واحد، وذلك لا يمكن أن يتحقق في غير نظام الرسالة، ثم المحبة الموجبة لفوائد محدودة في عالم الحياة، لا تأثير له غالبا ذلك التأثير البالغ الموجب لنكران الذات والتضحية بالنفس إلا في أفراد معدودين. وأما أمل السعادة الأبدية والرحمة الخالدة، فهو إذا استقر في أي نفس هان عليها كل شيء.

(دليل الرغبة والرهبة)

ثانيا- ثبت بالدليل القطعي بلا نزاع، أنه لا يقدم العاقل المختار على عمل إلا

لرهبة أو رغبة، أي لخوف أو طمع، وهما الأساسان في تكوين الحضارة البشرية بمعناها الواسع. ومعنى ذلك أن الإنسان في الإساءة والإحسان مسخر للقوتين المذكورتين، فقد يترك التعرض لأموال الناس أو أعراضهم، أو نفوسهم خوفا من سلطة تنتقم منه، وقد يقوم على عمل جبار بغية الوصول إلى تحسين عام أو نيل مال وجاه أو ما شاكله، ولما دققنا النظر وجدناهما غير كافيين في الإقدامات البشرية المتسلسلة، بدون الخوف من قوة فوق العادة، وبدون الرغبة في نعمة دائمة وهي السعادة. فإن الضعاف إذا تركوا السفاسف خوفا من السلطة، فالإشراف من السلطة لا يخافون أحدا، بل والضعاف في المحلات المنعزلة عن الناس لا هيمنة عليهم، فليس لهم رادع قاطع هناك إلا الله، والرغبة في تحسين الناس أو في نيل مرام لا يوصل الإنسان إلى درجة خدمة كل يتيم ويتيمة وأرمل وأرملة، وإلى إسعاف المرضى المنقطعين غير المعروفين، وإعانة المحتاجين والمعوزين، وإدارة شؤون الكفار عندنا من الذميين، فالرغبة والرهبة لا تنتجان إلا بالرغبة في ما عند الله والرهبة عما يوجد عنده، وذلك لا يصل نظامه إلينا إلا بالرسالة من الله سبحانه وتعالى.

(دليل الشرف)

ثالثا- إن الإنسان ليس جمادا بلا إحساس، ولا حيوانا مهملا يعيش فقط مع الحواس، وإنما هو خليقة أكبر من كل عوالم الكون، بل الكون خلق له، ولأجل انتفاعه به، وهذا النوع المحترم المزود بالعقل الذي هو أساس كل خير، وبالوجدان الذي يبني عليه العطف والترحم والسماح، وبالعلم الذي يطيره في أجواء السماوات، ويستفيد به الكنوز من خبايا المعادن والمنابع والنباتات، يبعد كل البعد عند الفكرة السليمة أن يعيش هذا الإنسان الكامل كالحيوان، ولا تكون له نتيجة أدبية دائمة ونعيم مقيم غير زائل ووسعة في عالم الوجود يتنعم فيها، إذا كان نجيبا خادما مصلحا نافعا للبشر، أو لا يكون له جزاء ومعاقبة في مقابلة إساءته مع غيره يبطش بهم ويقتل ويسفك وينهب الأموال والأعراض ويؤذي الإنسانية كحشرة فتاكة في

جسد، هذا ما لا يقبله العقل فاحتاج البشر إلى رسالة خالدة، وهي الرسالة الإسلامية التي توضع للعاقل طريق الخير والشر ويحدد له جزاء أعماله الصالحة والسيئة، ويبين أنه لا يغيب عن خالقه مثقال ذرة في السماوات والأرض، وإن الإنسان بعد قضاء أجله في دنياه يلتحق بآخرته وينال ما قدمت له يده، فيكون على بصيرة من أمره وعلى نظام في سيره (**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** * الملك: ٢٢)

(دليل الإعتراف)

رابعا- قد ثبت أخيرا عند كثير من العقلاء والعلماء البارزين المتجردين عن التقليد والارتباط بالبيئات أن وراء هذا العالم المادي الواسع عالما روحانيا غيبيا أوسع، ولولا ذلك ما كان يجيب زارع بدوي بعد أن نوموه[١] عن أسئلة مشكلة هندسية أو جبرية اندهشت لها عقول الحاضرين. وثبت أيضا أن النواميس الكونية الطبيعية يمكن تخلفها عن إفادة آثارها بقوة نواميس أخرى أرقى منها، ويبنى على هذا إمكان وجود الخوارق للعادات التي أتى بها الرسل الكرام.

وثبت أيضا أن الإنسان مرتبط بعالم الروحانيات صلاحا أو فسادا، أي أن كل فرد معرض لتأثيره وانفعالاته بالكائنات الروحية العالية، أو بالكائنات الروحية السافلة، ومن تأثر بالأولى انتفع ونفع، استفاد وأفاد، واسترشد وأرشد، خدم العقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والعكس بالعكس.

ومن هنا اعترف جمهرة من الماديين المنكرين لما وراء الطبيعية عن أفكارهم ورجعوا إلى حظيرة الاعتراف بالقدسيات والمثل العالية، فآمن بالله وبرسوله وبما جاء به من عنده. ونقول على ضوء هذه الحقائق التي اعترف العلماء الأفذاذ في العالم بها:

---

(١) هذا إشارة إلى التنويم المغناطيسي، حيث ينومون إنسانا بواسطة عملية مغناطيسية، ثم يسألونه أنواع الأسئلة فيجيب الجواب الوافي عن كل سؤال وهو نائم، ومن غرائبه أن النائم قد يكون طفلا أو جاهلا، ولو كان يقظانا لا يعرف جواب أي سؤال من تلك الأسئلة التي أجاب عنها عندما كان نائما.

وصول عقولهم إلى تلك الأمور الهامة وصول إلى تعاليم الرسل الكرام أي أن وراء هذا العالم عالما آخر غيبيا يندرج فيه عالم الأرواح، وعالم الملائكة، وعالم ملك الملوك الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي تسخر له القواعد والنواميس المادية وغيرها، وهو الذي يسيطر عليها ويسيرها وقد يمشيها وقد يبطلها، كما آتى القوة القدسية لبعض رسله في عدم التأثر بالنار، وموجة الأثير، وخرق طبقات الأفلاك في أقل وقت من الأوقات، والنفخ في الجوامد لتأخذ روحا سارية وحياة جلية، والتوجه إلى الدماء الفاسدة وتخليصها من الجراثيم ليبرئ الأبرص، والتوجه إلى الروح الغيبي لتتعلق بالجسد بعد فراقها وهجرها ولتصير حيا، كما كان، وهو الذي بيده مفاتيح الغيب، وبيده مقاليد السماوات والأرض، وعن عباده المصطفين هم الرسل الكرام.

وإن الأرواح العالية أرواح الملائكة التي من تعارف معها تمتع بالعقائد والأعمال الصالحة، وإن الأرواح الخبيثة هي أرواح الشياطين المردة التي من تناسب معها سقط في رذائل المادة ومشتهيات النفس الأمارة، ومن هنا يتبين قوله تعالى (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** * **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** * الشمس: ٩-١٠) ويتعين مغزى قوله سبحانه وتعالى (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى** * **فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** * النازعات: ٤٠-٤١) ولكن فوائد إدراك أولئك العلماء لا تتجاوز عن أنفسهم، وعن ناس معدودين يوافقونهم في الاعتراف بتلك المعلومات. وأما الرسل الكرام فبما عندهم من الصفا والنور الوهبي وبما ألقى في روعهم من الوحي الإلهي والفيض القدسي جذبوا أرواح الناس إلى الانقياد والتوجه إلى رب العباد، إلا من غطا قلبه غاشية العناد وتولى عن الحق والرشاد.

(دليل المعرفة)

خامسا- مما يلفت أنظار أهل المعرفة أن الإنسان لم يخلق ليترك سدى، لأنه يبعد عن العقل والإدراك أن يبني شخص دارا قوية الأركان، واسعة الجوانب، رفيعة العمران، مزخرفة بأنواع الزخارف، ومضيئة بألوان اللمع والشمعات والمصابيح، ولم

يكن في قلب بانيها عمرانها بالرجال الأكابر والأصدقاء الأعزة والعلماء الفضلاء ذوي المفاخر، بل أراد أن يجمع فيها المجانين والسفهاء، فالله سبحانه وتعالى خلق هذا العالم الواسع وزينها بمصابيح وورد أزهارها وأجرى أنهارها وزيد ثمارها، ولم يترك للحيوانات البهم، بل جعل فيها أشرف أنواع الموجودات، وهم البشر، فمن سوانح الإدراك أن طلب من هذا النوع الشريف أشرف الأحوال، وهو الإطاعة لله والسجود والتسبيح له، وهذه الأحوال لا يمكن تحققها بدون المعرفة الوافية بالمطلوب، وهذه المعرفة لا تتحقق إلا بتعاليم الرسول الكريم وعليه قال تعالى (**يَا أَيُّهَا النَّبِي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** * الأحزاب ٤٥-٤٦)

(محبة الرسول)

محبة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هدى الإسلام، قال تعالى (**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** * التوبة: ٢٤)

هدد الله سبحانه وتعالى كل من يرجح محبة ذويه وعلاقته على محبة الله ورسوله ومعناه وجوب ترجيح محبتهما على محبتها. وقال صلى الله عليه وسلم (**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**)[١] وقال للسائل عن الساعة بعد قوله إني أحب الله ورسوله (**أنت مع من أحببت**)[٢] والمحبة ميل القلب وشغفه بالنسبة إلى محبوبه، وتتنوع بالإضافة إلى ما تتعلق به أنواعا.

ومن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيمه وتوقيره وكثرة ذكره والصلوات عليه، لا سيما عند ذكره، وزيارته بعد وفاته، والاقتداء به بامتثال أوامره واجتناب

---

(١)رواه البخاري في كتاب الإيمان، انظر القسطلاني (٩٦/١)

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة، القسطلاني (١٠٣/٦)

نواهيه والتخلق بأخلاقه، ومحبة الكتاب والسنة الذين هما أساس سعادة الدارين، ومحبة آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان. ومحبة القراء والحفاظ والمحدثين والأئمة المجتهدين في الدين، والعلماء العاملين، والصديقين والشهداء، والصالحات والصالحين.

وكل ذلك عليه دليل من الكتاب أو السنة أو اتفاق الأكثرية الساحقة من أهل الدين أما تعظيمه وتعزيزه وتوقيره، فالدليل عليه قوله تعالى (**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ** * الفتح: ٨-٩) وقال تعالى (**لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا** * النور: ٦٣) وأخذ المجتهدون من ذلك وجوب الأدب مع الرسول، وحرمة ندائه بـــ(يا محمد)، كيف لا وتشريفه في النداء منهج القرآن الكريم، حيث خاطبه الله سبحانه بقوله (**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ** * المائدة: ٦٧) (**يَا أَيُّهَا النَّبِي** * التحريم: ١) (**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلْ** * المزمل: ١) (**يَا أَيُّها الْمُدَّثِّرْ** * المدثر: ١) إلى غير ذلك وقوله تعالى (**النَّبِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** * الأحزاب: ٦) وأنه صلى الله عليه وسلم كان المبلغ الأول لأحكام الله ومفتاح باب السعادة على البشرية، وأما الاقتداء به صلى الله عليه وسلم، فالدليل عليه قوله تعالى (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** * الأحزاب: ٢١) وقوله تعالى (**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ** * آل عمران: ٣١) وقوله تعالى (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** * الحشر: ٧) وأما الاستقامة على آدابه فالدليل عليه قوله تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ** * فصلت: ٣٠) وقوله تعالى خطابا لرسوله (**وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** * الشورى: ١٥) مع وجوب إتباع بدليل قوله تعالى (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة** * الأحزاب: ٢١)

وأما كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم، فالدليل عليه، هو أن الله قرن الشهادة برسالته مع الشهادة بألوهيته في أنه لا يتم الإيمان باحديهما بدون الأخرى، فجعل

من أركان الإسلام كلمتي الشهادة (**أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله**) وقرن اسمه باسمه في التشهد حيث يقول (**التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**)[١] وفي كلمات الأذان وكلمات الإقامة، وفي آيات الأمر بإطاعة الله كقوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** * النساء: ٥٩) وفي قوله (**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ** * الأحزاب: ٧١) إلى غير ذلك من المواضع المعلومة لمقارنة اسمه باسمه، وكل ذلك حجة بليغة لتقدير حقه صلى الله عليه وسلم وتكرار ذكره في الخلوة والجلوة إلى ما شاء الله، وشخصية هذه المترلة يجب ذكره وذكراه، وأما الصلوات عليه صلى الله عليه وسلم فالدليل عليها قوله تعالى (**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** * الأحزاب: ٥٦) والآية الكريمة نص في أن الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم مطلوبة، فمن العلماء من قال أنها مندوبة وحمل الآية الكريمة فيها على الندب وادعى فيه الإجماع، ومنهم من حملها على الوجوب في الجملة وقرر أنها فرض على المسلم أن يأتي بها مرة، ومنهم من حملها على الوجوب عقب التشهد الأخير وهو الإمام الشافعي وأحمد رضي الله تعالى عنهما وقالا: إنها واجبة عقب التشهد الأخير ولو تركت بطلت الصلاة وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما وهو قول الشعبي وقد رواه عنه البيهقي كما في شرح الإمام النووي على صحيح مسلم[٢] وقال: هنا وأصحابنا يحتجون بحديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه المذكور أنهم قالوا كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ فقال (**قولوا اللّهمّ صل على محمد**) إلى آخره قالوا والأمر للوجوب، وهذا القدر لا يظهر الاستدلال به إلا إذا ضم إليه الرواية الأخرى كيف نصلي عليك إذا نحن صلينا

---

(١) هذه الصيغة من التشهد مروي عن ابن عباس أخرجه مسلم (١٧٤/١)، والترمذي (٣٨/١)، وأبو داود، والنسائي وابن ماجة. انظر نصب الراية (٤٢٠/١)

(٢) راجع شرح النووي في هامش القسطلاني، باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٣ /٤٠ - ٤١)

عليك في صلواتنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (**قُولُوا: اللّهمّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ**) إلى آخرِهِ[١] وهذه الزيادة صحيحة رواها الإمامان الحافظان أبو حاتم بن حبان (بكسر الحاء) البستي والحاكم أبو عبد الله في صحيحهما. قال الحاكم هي زيادة صحيحة. واحتج لها أبو حاتم وأبو عبد الله أيضا في صحيحيهما بما رواه عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول صلى عليه وسلم رأى رجلا يصلي لم يحمد الله و لم يمجده و لم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم (**عجل هذا**) ثم دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال (**إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه والثناء عليه وليصل على النبي صلى الله عليه وليدع ما شاء**)[٢] قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وعلى كل حال فالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم مطلوبة ومرغوب فيها ومؤكدة بالأحاديث التي تنص على مزيد أجر المصلي عليه صلى الله عليه وسلم، وصوغ الآية الكريمة المصدرة بأداة التأكيد على الجملة الاسمية الصدر الفعلية العجز لا سيما وأن الجملة الفعلية المضارعة جملة فعلية استمرارية، ثم تعقيبها بنداء جمع المؤمنين، والأمر بالصلاة وزيادة السلام وتأكيد الجملة بمقارنة المصدر مع العامل، فلو قلنا على ضوء هذا أن الأمر في الآية الكريمة للوجوب بقرينة الآيات الكثيرة الدالة على وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم وتوقيره، وهذا الذي أعتقده إنا بحمد الله تعالى، ولكن الأمر غير محدود وغير مؤقت، فالمطلوب الإتيان بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، بحيث يظهر شعار التعظيم، بأن نقول: بوجوبها في أعظم العبادات وهي الصلاة، وفي الخطب المشروعة للصلاة، وللأمور المهمة ومع الدعاء، وفي ديباجات التآليف الدينية، وفي مجلس سماع اسمه الشريف ولو مرة واحدة، وذلك يطابق وجوب الإتيان بالمأمورات حسب المستطاع عادة، ويختلف بالأزمنة والأمكنة والمناسبات.

---

(١) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما عن محمد بن إسحاق، ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط مسلم (٢٦٨/١) ورواه الدارقطني في سننه، انظر نصب الراية (٤٢٦/١).

(٢) رواه ابن خزيمة والترمذي وصححاه، ورواه أبو داود انظر دليل الفالحين (٢١٩/٧-٢٢٠).

وأما صيغة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فهي كثيرة على ما رواه المحدثون فمن أبي حميد الساعدي رضي الله تعالى عنه أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك فقال: (**قولوا اللّهمّ صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**)[١]

وفي رواية مالك عن أبي مسعود البدري قال (**قولوا اللّهمّ صل على محمد وعلى آله كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد عُلِّمْتم**)[٢] أي أنه جملة السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته (في التحيات) أو ما شابهها من صيغ السلام فيها. وفي رواية كعب بن عجرة (**اللّهمّ صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد**)[٣]

وعن عقبة بن عمرو في حديثه (**اللّهمّ صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد**) وفي رواية أبي سعيد الخدري (**اللّهمّ صل على محمد عبدك ورسولك**)

وعن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه علي عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب قال: عدهن في يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: عدهن في يدي جبريل، وقال: هكذا نزلت أي كلمات الصلوات من عند رب العزة (**اللّهمّ صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهمّ وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**

---

(١) حديث أبي حميد الساعدي أخرجه البخاري في الدعوات، ومسلم في الصلاة، والنسائي في التفسير من سننه، وابن ماجة في الصلاة من سننه، انظر دليل الفالحين (٢٢٤/٧) ومشكاة المصابيح (٢٩٠/١)

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة، والترمذي في التفسير من سننه، وأبو داود في كتاب الصلاة من سننه، انظر دليل الفالحين (٢٢١/٧ - ٢٢٣)

(٣) متفق عليه انظر المشكاة بتحقيق الألباني (٢٩٠/١)، ودليل الفالحين (٢٢١/٧)

إنك حميد مجيد، اللّهمّ وتحنن على محمد وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهمّ وسلم على محمد وعلى آل محمد كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)[١]

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (**من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللّهمّ صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)**[٢] ومعنى عدهن أي كلمات الصلوات في يدي كعد الفلوس في يد شخص هذا كناية عن ضبط الكلمات وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري سألت النبي صلى الله عليه وسلم كيف نصلي عليك فقال (**صلوا واجتهدوا في الدعاء ثم قولوا اللّهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)**[٣]

وعن سلامة الكندي كان علي رضي الله تعالى عنه يعلمنا الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم اللّهمّ داحي المدحوات وبارئ المسموكات اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك على سيدنا محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشات الأباطيل كما حمل، فاضطلع بأمرك بطاعتك مستوفزا في مرضاتك واعيا لوحيك حافظا لعهدك ماضيا على نفاذ أمرك، حتى أَوْرَى قبسا لقابس آلاء الله تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم وأبهج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة، اللّهمّ افسح له في عدنك، واجْزِهِ مضاعفات الخير من فضلك مهنئات له غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللّهمّ أعل على بناء الناس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتمم له نوره واجزه من ابتعاثك له

---

(١) حديث زيد بن خارجة رواه النسائي في كتاب الصلاة من سننه (٤٩/٣)

(٢) رواه أبو داود (٢٢٥/١) ومشكاة المصابيح (٢٩٤/١)

(٣) حديث زيد بن خارجة رواه النسائي في كتاب الصلاة من سننه (٤٩/٣)

مقبول الشهادة، ومرضيّ المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل وبرهان عظيم.

وعنه أيضا في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته يصلون على النبي، لبيك اللّهمّ وسعديك، صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين على محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير وعليه السلام.

وعن عبد الله بن مسعود اللّهمّ اجعل صلواتك، وبركاته، ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير ورسول الرحمة، اللّهمّ ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللّهمّ صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وكان الحسن البصري يقول من أراد أن يشرب بالكأس الأولى من حوض المصطفى فليقل: اللّهمّ صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيته وأصهاره وأنصاره وأشياعه ومحبيه وأمته وعلينا معهم أجمعين يا أرحم الراحمين.

وعن طاوس عن ابن عباس أنه كان يقول: اللّهمّ تقبل شفاعة محمد الكبرى، وأرفع درجته العليا، وآته سؤله في الآخرة والأولى كما آتيت إبراهيم وموسى، وعن وهيب بن الورد أنه كان يقول في دعائه: اللّهمّ أعط محمدا أفضل ما سألك لنفسه، وأعط محمدا أفضل ما سألك له أحد من خلقك، وأعط محمدا أفضل ما أنت مسئول له إلى يوم القيامة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: إذا صليتم على النبي صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، وقولوا: اللّهمّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللّهمّ ابعثه مقاما محمودا يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللّهمّ صل على محمد وعلى

آله محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد..[١] ويظهر من رواية هذه الصيغ العديدة للصلوات الشريفة إن صيغة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليست محدودة ومقيدة بجملة دون أخرى، وبأسلوب دون آخر، وأن المقصود جملة تدل على طلب التشريف والتعزيز من الله تعالى له صلى الله عليه وسلم، وإن كانت المحافظة على إحدى تلك الصيغ أحب. ويدل على ذلك وجود الصيغ المختلفة المروية من بعض الأصحاب الكرام كسيدنا علي وعبد الله بن مسعود، وغيرهما رضي الله تعالى عنهم أجمعين. فبأي صيغة يصلي المسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم ينال الإحسان ويتقرب بها إلى الله تعالى، ولا وجه لإنكار صيغة من صيغ الصلوات ما دامت مفيدة لتشريفه وتعزيزه المطلوب مطلقا. كما أن الأمر من الله تعالى بالصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم مطلق غير مقيد بزمان أو مكان، ففي أي زمان ومكان يصلي المسلم عليه صلى الله عليه وسلم فهو جائز ومستحب ما لم يعارضه مانع شرعي ومعارض قطعي. فلا وجه لإنكار بعض الناس للتصويت بالصلوات الشريفة بعد الأذان على المنابر،[٢] أو بعد الخلاص من أداء صلوات الجماعة بين المسلمين الذاكرين بالأوراد المأثورة، لأن كلا منها مأمور به في الجملة وأداؤه خير، ولم يقل أحد بأنها إذ ذاك فيه مانع شرعي ولا معارض ظني فضلا عن القطعي.

---

(١) رواه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي رقم (٦١)

(٢) صرح ابن حجر في فتاواه بأنه قد أحدث المؤذنون الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب الأذان للفرائض الخمس إلا صلاة الصبح والجمعة فإنهم يقدمون ذلك فيهما على الأذان، ولا المغرب فإنهم لا يفعلون غالبا لضيق وقتها، وكان ابتداء حدوث ذلك في أيام السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردي وبأمره في مصر وأعمالها، وسبب ذلك أن الحاكم الفاطمي لما قتل أمرت أخته المؤذنين أن يقولوا في حق ولده السلام على الإمام الطاهر، ثم استمر السلام على الخلفاء بعده إلى أن أبطله صلاح الدين وجعل بدله الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم، فنعم ما فعل فجزاه الله خيرا، ولقد استفتى مشايخنا وغيرهم في الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الآذان على الكيفية التي يفعلها المؤذنون، فأفتوا بأن الأصل سنة والكيفية بدعة، انظر فتاوى الشيخ ابن حجر (١٣١/١)

وما يقال من أنها بدعة لم تكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بدعة كذلك ضلالة، غير وارد، وذلك لأن البدعة في اللغة عبارة عن الأمر الحادث الذي لم يكن قبل، وهذا بصورته الظاهرة شامل لكثير من الواجبات والمستحبات التي لم تكن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وحدثت بعد، وارتضتها الأمة الإسلامية والأئمة نظرا إلى أنها تدخل في عموم قواعد الإسلام والدين التي لا تبقى الإسلام إلا بها. ومن ذلك جمع القرآن الكريم وكتابته على صحائف من الجلد في عهد خلافة أبي بكر، وجمعه ثانيا واستنساخ ست أو سبع نسخ منه في عهد عثمان، وتدوين ديوان المرتزقة المسلمين المجاهدين وغير المجاهدين من المستحقين في عهد عمر، وتأسيسه لدار القضاء، وتنقيط القرآن في عهد عبد الملك بن مروان ثم تشكيله، وتدوين الأحاديث الشريفة وتبويبها، وتدوين الفقه وتبويبه، وتدوين القرآت السبع، وتدوين قواعد اللغة العربية المعروفة بعلم النحو والصرف، ثم تدوين سائر العلوم الإسلامية كأصول الفقه والبلاغة وغيرها، فلك ذلك لم يكن ولم يذكر، ولكنه داخل في عموم الأصول أي أن كل ما ينفع الإسلام والدين يجب إتباعه، فهذه الأمور بعضها فرض عين، وبعضها فرض كفاية على ما هو جلي للمتتبع. ولما نظر المسلمون إلى أهمية إعزاز الرسول صلى الله عليه وسلم، وإعلاء مقامه، وتعريفه للعالم أحدثوا ذكرى مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من كل سنة[١] وذكرى

---

(١) كان مظهر الفرح بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم وجد قديما، غير أن الذي طوره وجعله احتفالا رسميا هو السلطان مظفر سلطان أربيل المتوفى سنة ٦٣٠ هجرية وقد ذكر ابن خلكان نتفا من مظاهر احتفال بالمولد، انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٧٣/٣) وبهذا يظهر أن أهل أربيل أول من ابتدعوا الاحتفال بمولد الرسول، وهذا الاحتفال مر بأطوار، كان في البداية مقتصرا على السلطان مظفر، ثم شمل كل أهالي المنطقة، ويذكر الشياب بأنه لم يكن أهل بيت في أربيل إلا كان يحتفل بذكرى المولد سواء كان فقيرا أو غنيا كل حسب إمكانيته، لكن المظهر قد خفت في الستينات، ثم انتعش فجأة في بداية السبعينات، ثم خفت مرة أخرى، واعتقد بأنه ينتعش مرة أخرى بعون الله، وعلى كل فإن الاحتفال بالمولد مظهر من مظاهر الكرد ينتعش عندهم أكثر من غيرهم، كما كان مذهب الشافعي مظهرا من مظاهرهم في قرني الخامس والسادس الهجري.

معراجه[١] الرفيع في رجب الأصم الفرد من الأشهر الحرم، واستحبوا أن يضيف المؤذنون عددا قليلا من الصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الأذان على المنابر في البلدان، وعلى السطوح في القرى المأهولة بالمصلين، كل ذلك خدمة لقوله سبحانه وتعالى (**لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** * الفتح: ٩) ولقوله سبحانه وتعالى (**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** * الانشراح: ٤) وتشهيرا لمآثر الرسول ومفاخره المندرجة في قوله تعالى (**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** * القلم: ٤) وإظهارا لبركاته وأنواره الساطعة وفيوضاته الروحية القدسية المستفادة من قوله سبحانه وتعالى (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** * الأنبياء: ١٠٧)

ومن اعتبر هذه الأمور ضلالة فقد تاه، وضل عن سواء السبيل، و لم يتفكر في أخلاق الرسول وتأريخه، وأمره لحسان بن ثابت رضي الله عنه أن يهجوا المشركين ويجاوب شعرائهم الهاجين للإسلام والمسلمين[٢] وتمايله من الوجد عند سماع قول كعب بن زهير:

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ * مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ[٣]

حيث أعطاه رداءه المبارك جائزة له على إلقائه تلك الأبيات الآتيات بجواهر المدائح ودرر الفوائد.

والحق ما أطبق عليه الأئمة الأعلام من سالف الأيام إلى يومنا هذا أن كل ما ظهر في عالم الإسلام والمسلمين إن كان مما أجمع عليه من أعيان المسلمين، أو

---

(١) الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج لم يكن موجودا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة والتابعين، وكذا لم يكن موجودا في زمن الخلفاء العباسيين وكذا في عصر المماليك. و لم نجد له ذكرا في المصادر المتوفرة بين أيدينا، لذا لا نعرف متى أستحدث، وربما استحدث في زمن متأخر جدا.

(٢) حيث ورد في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسان: (**أهجهم** أو قال **هاجهم وجبريل معك**) انظر القسطلاني كتاب **بدأ الخلق** (٥/٢٦٩) وكرره في كتاب المغازي، وكتاب الأدب.

(٣) قال ابن عبد البر فلما بلغ إلى قوله: إن الرسول، البيت أشار النبي إلى من معه أن أسمعوا، انظر **الاستيعاب** القسم (٣/١٣١٤)

استنبطه الإمام العالم المجتهد في الدين، أو اندرج في ظواهر الكتاب والسنة الشريفتين فأمره ظاهر جلي وإن كان مما سوى ذلك، فإن كان ذلك الأمر مما يخدم هذا الدين خدمة لابد منها فهو واجب وفريضة، أو خدمة نافعة غير محتمة فهو مستحب ومندوب، أو لم يكن من هذين، وكان مما نهى عنه نهيا صريحا، أو مستفادا من الأدلة العامة فهو حرام أو مكروه. وعلى هذا يحمل (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد**)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة**)[٢] وإن كان متساوي الجانبين فهو مباح.

ومن الواجبات من ذلك كل ما يتوقف عليه إعزاز الإسلام وصيانة بلاده وعمرانها وتثقيف أبنائه من العلوم، والصناعات، والتدريبات الحربية، والأمور الرياضية، وتعلم الفنون بأنواعها وأصنافها، وتعلم اللغات الأجنبية، ومعرفة تواريخ الأمم، وأساس رقيها وانحطاطها، وكذلك خدمة كل ما يتوقف عليه نشر الإسلام، وإعزاز رسوله، وبث روح الإسلام، وتركيزها في قلوب الجيل الناشئ، وإحياء ما اندرس من معالم الخير في المسلمين، ومن المستحبات كل ما كان أدنى من ذلك، فإن الإسلام دين ودولة، عقل وعلم، اعتقاد وعمل، خلق شريف وعدل، وبطولة، وصبر، واستقامة، ووحدة، وتماسك، واعتصام، ومرونة قابلة للاستفادة منها في كل وقت، وليس الإسلام جمودا وخمولا واكتفاء بالقشور، وانقباضا في الصدور فإن تلك الأحوال لا تناسب تحمل أعباء الدين وإرادة شؤون المسلمين فنسأل المولى جل شأنه أن يشرح صدورنا لفهم الدين، ويسهل أمورنا في سبيل نشره في إرشاد العباد إلى السعادة بالتزام أخلاق سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح رد. انظر القسطلاني (٤٢١/٤)، ومسلم في كتاب الأقضية بهذا اللفظ وبلفظ (**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**) انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٢٧٢/٧)

(٢) يأتي الحديث بطوله وتخريجه - في ص ١٧٩ -

(زيارة الرسول)

وأما زيارته صلى الله عليه وسلم في حياته فالدليل عليها قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** * التوبة: ١١٩) وقوله تعالى (**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** * النساء: ٦٤) فإن الرسول أفضل الصادقين وصحبته جسدا وروحا مهمة وأما زيارة قبره الشريف بعد وفاته فالدليل عليها ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (**من زار قبري وجبت له شفاعتي**)[١] وما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**من زارني محتسبا كان في جواري، كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة**)[٢] وفي حديث آخر (**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي**)[٣] وهذا الحديث أجودها إسنادا.

والإجماع على أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم من المهمات فمنهم من قال بوجوبها، ومنهم من قال بندبها.

ولو راعينا القياس في أدلتنا لقلنا أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم مقيس على زيارة الرسول نفسه لقبور المسلمين في شهداء أحد والبقيع فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يزور أهل البقيع وشهداء أحد فزيارتنا لقبر الرسول مقيس على تلك الزيارات بالقياس الجلي الأولى. ومقيس على استحباب زيارتنا لقبور موتانا وزيارتنا لقبور موتانا ثابتة بقوله صلى الله عليه وسلم (**كنت نهيتكم عن زيارة**

---

(١) رواه الدارقطني وفي إسناده موسى بن هلال العبدي قال أبو حاتم: مجهول. انظر نيل الأوطار ١٠٨/٥

(٢) رواه ابن أبي الدنيا وفي إسناده سليمان بن زيد الكعبي ضعفه ابن حبان والدارقطني وذكره ابن حبان في الثقات، وعن عمر عند أبي داود الطيالسي بنحوه. انظر نيل الأوطار (١٠٩/٥)

(٣) أخرجه الدارقطني عن رجل من آل حاطب، وأخرجه ابن عمر أيضا، ورواه أبو يعلى في سنده، وابن عدي في كامله وفي إسناده حفص بن داود قال أحمد فيه: إنه صالح، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة. انظر نيل الأوطار (١٠٨/٥) وكذا أخرجه الحافظ العراقي في حديث إحياء علوم الدين. انظر الإحياء (٢٥٩/١)

القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة)[١] ولا شك أن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم علاوة على أنها تذكر الآخرة، تذكر أيضا أحوال شخصية الرسول الكريم الأمين وبعثه ورحمته للعالمين، ونزول الوحي عليه، وجهاده في سبيل إعلاء كلمة الحق، وبذلك تتجلى أنوار الحق سبحانه وتعالى على قلوب الزائرين، وتستعد للاقتداء به بقدر الإمكان في طريق الإسلام والإحسان.

وأما حمل تلك الزيارات على ما إذا كان الزائر والمزور في بلد واحد، وأنه لا تجوز عند بعد المسافة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)**[٢] أخرجه الشيخان وأحمد وأبو داود وغيرهم فهو حمل غير صحيح واستدلال غير مستقيم عند من يعرف قواعد اللغة العربية فضلا عن سائر الأدلة، لأن قوله صلى الله عليه وسلم ذلك جملة استثنائية مفرغة حذف منها المستثنى منه كما هو معلوم، فيجب تقدير المستثنى منه بحيث يكون الاستثناء متصلا لا منقطعا، لعدم وروده في الكلام الفصيح إلا ما شذ، فوجب تقدير المستثنى منه بالمحل أو بالمسجد، وتقدير المحل غير صحيح، لأنه يستلزم أن لا يشد الرحال إلى محل الجيوش المجاهدين لسد الثغور والحروب مع الأعداء، ولا إلى الجامعات البعيدة والمدارس النائية لطلب العلوم المهمة النافعة، ولا إلى البلدان لجلب أموال التجارة، ولا إلى أماكن الأقارب لصلة الأرحام، ولا إلى القرى المتباعدة لزيارة الأحباب المتحابين في الله إلى غير ذلك، وذلك باطل قطعا فوجب حمل المستثنى منه على المسجد، أي لا تشد الرحال إلى أي مسجد إلا إلى ثلاث مساجد كما في الحديث الشريف، ومعناه لا تشد الرحال لأداء الصلاة في أي

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز عن ابن بريدة عن أبيه. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني ٣١٥/٤ والنسائي عن ابن بريدة أيضا في كتاب الجنائز. انظر شرح السنن (٨٩/٤) والترمذي. وأخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود في كتاب الجنائز رقم ١٥٧١ (٥٠١/١) وأخرجه أبو داود في كتاب الجنائز عن ابن بريدة. انظر السنن (١٩٥/٢).

(٢) رواه البخاري في أبواب التطوع عن أبي سعيد الخدري. انظر القسطلاني في (٣٤٨/٢). وأخرجه مسلم في كتاب الحج عن أبي هريرة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠٥/٦)

مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد، وهذا أمر لا نزاع فيه لعدم الفرق من حيث المكان في أداء الصلوات بين المساجد في المعمورة الإسلامية إلا المساجد الثلاثة، ومعلوم أن من يشد الرحال للزيارة خارج عن موضوع القضية وانتهت المشكلة.

كيفية زيارته صلى الله عليه وسلم

يستحب للزائر أن ينوي مع زيارته صلى الله عليه وسلم التقرب إلى الله تعالى بالمسافرة إلى مسجده صلى الله عليه وسلم والصلاة فيه. ويستحب أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه في طريقه، فإذا وقع بصره على أشجار المدينة المنورة وحرمها وما يعرف بها زاد من الصلاة والسلام عليه، ويسأل الله تعالى أن ينفعه بزيارته ويتقبلها منه. ويستحب أن يغتسل قبل دخوله ويلبس أنظف ثيابه، ويستحضر في قلبه شرف المدينة المنورة، وأنها أفضل الدنيا بعد مكة عند العلماء، وعند بعضهم أفضلها على الإطلاق وأن الذي شرفت به خير الخلائق أجمعين. وليكن من أول قدومه إلى أن يرجع مستشعرا لتعظيمه ممتلئ القلب من هيبته صلى الله عليه وسلم كأنه يراه.

وهناك آداب للزائرين مذكورة في محلها. ومن المهم أن يدخل المسجد الشريف فيقصد الروضة الكريمة وهي ما بين المنبر والقبر المبارك، فيصلي تحية المسجد بجنب المنبر، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن، ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق، وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصلي فيه حتى توفي أربع عشر ذراعا وشبر وأن ذرع ما بين المنبر والقبر المنور ثلاث وخمسون ذراعا وشبر. وإذا صلى التحية في الروضة أو غيرها من المسجد شكر الله تعالى على هذه النعمة، ويسأله إتمام ما قصد وقبول زيارته. ثم يأتي القبر الكريم فيستدبر القبلة، ويستقبل جدار القبر، ويبعد من رأس القبر الشريف نحو أربعة أذرع، ويقف خاشعا متأدبا، ثم يسلم ولا يرفع صوته، بل يقتصد فيقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا خير خلق الله، ثم يقرأ الأوراد والأدعية المأثورة، ثم يتأخر إلى صوب يمينه

قدر ذراع فيسلم على أبي بكر رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول: السلام عليك يا أبا بكر صفي رسول الله، وثانيه في الغار جزاك الله عن أمة نبيه صلى الله عليه وسلم خيرا، ثم يتأخر إلى صوب يمينه قدر ذراع للسلام على عمر رضي الله عنه فيقول: السلام عليك يا عمر أعز الله بك الإسلام وجزاك الله عن أمة محمد خيرا، ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتوسل به في حق نفسه، ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى في حق نفسه ومن شاء من آبائه وأمهاته وأولاده وحواشيه وغيرهم من المسلمين.

(التوسل والوسيلة)

وأعلم أن التوسل بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم من أهم المهمات، لإجابة الدعوات، وقضاء الحاجات، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وحصول الآمال الخيرية، وكل ما يدخل في مطالب الإنسان المسلم، من أوثق ما يعتبر مفتاحا لأبواب الخيرات ولا تسمع قول من أنكر التوسل به صلى الله عليه وسلم، واعتباره خروجا من أدب الدين، بل اعتقد أن إنكاره ذلك إنكار لما يستفاد من ظاهر القرآن الكريم، وسنة الرسول العظيم، وإجماع المسلمين قبل ظهور البدع والأهواء، وليس قول المبتدعة إلا شبهة تافهة تنطفي نارها بأدنى نفحة قدسية، وإليك ما يلي:

نحن معشر أهل السنة والجماعة نستدل على جواز التوسل بكل وسيلة مشروعة، بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة قبل ظهور البدع والأهواء، أما الكتاب فمنه قوله سبحانه وتعالى (**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ** * البقرة: ٨٩) نزلت في بنى قريظة وبني النضير، كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة، والمعنى يطلبون من الله تعالى أن ينصرهم على المشركين، كما روى السدي أنهم كانوا إذا اشتدت الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة، ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا:

اللّهمّ إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون، وبنو قريظة والنضير أهل كتاب، والأوس والخزرج من المشركين، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ.

ومنه قوله تعالى (**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** * المائدة: ٣٥) والوسيلة بظاهرها تشمل التوسل بالأشخاص أحياء وأمواتا، والتوسل بالأعمال الصالحة للمتوسل ولغيره، كما يشمل التوسل بغيرهما من الوسائل المشروعة، وذلك لأنه إن كان الوسيلة بمعنى الواسطة فيشمل التوسط بكل واسطة مشروعة، وإن كانت بمعنى المترلة والقربة من الله فحذف المفعول غير الصريح لقوله (**وابتغوا**) يشمل كل ما يبتغي به القرب من الله سبحانه وتعالى، ومن بلاغة القرآن الكريم حذف المتعلقات، لإفادة العموم كما في قوله تعالى (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ** * الزمر: ٩) أي أي معلوم كان (**وَاللهُ يَدْعُو إِلَىَ دَارِ السَّلاَمِ** * يونس: ٢٥) أي جميع عباده، وكذلك (**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**) أي بأي وجه مشروع غير منهي عنه..

ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه بعدما استسقى أي توسل بالعباس رضي الله عنه (هذا والله الوسيلة إلى الله) كما في الاستيعاب لابن عبد البر[١]

وأما السنة فمنها حديث عثمان بن حنيف (بالتصغير) وفيه أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أدع الله تعالى أن يعافيني فقال صلى الله عليه وسلم: (**إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك**)، قال: فادع، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: (**اللّهمّ إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك** صلى الله عليه وسلم **نبي الرحمة، يا رسول الله إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى اللّهمّ فشفعه في**)[٢]. قال

([١]) حديث توسل عمر بالعباس رواه البخاري في رقم ١٠١٠ وكرره ٣٧١٠، ورواه الإسماعيلي، وابن حبان في صحيحه والطبراني في الكبير رقم ٨٤ وذكر الحافظ ابن حجر تفصيل ذلك في الفتح (٢/٤٩٧)

([٢]) حديث الضرير أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٥٢٦) وقال: صحيح على شرط البخاري. والترمذي رقم الحديث ٣٥٩٥ طبعة القاهرة، وابن ماجة رقم الحديث ١٣٨٥.

ابن حنيف فوالله ما تفارقنا وطال بنا الحديث، حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط. رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح، ورواه أيضا ابن ماجة، والحاكم عن عثمان بن حنيف وصححه الحاكم. فإن الظاهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع للرجل كما طلب، وإنما اقتصر على ما أمره به وعلمه، وحينئذ يكون متوسلا في دعائه بذات النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون أمره بهذا الدعاء دليلا واضحا على جواز التوسل بالذات، وإنما علمه صلى الله عليه وسلم ذلك و لم يدع له لعموم فائدة هذا الدعاء، ولذلك استعمله السلف وتبعهم الخلف لقضاء حوائجهم بعد وفاته، ولأنه أراد أن يحصل منه التوجه إلى الله تعالى، وإظهار الاضطرار إليه عز وجل مستعينا به صلى الله عليه وسلم ليحصل له كمال مقصوده، وليتميز في نفسه نوع التوجه إلى الفاعل المختار عن نوع التوجه إلى الأسباب، فإن الأسباب إنما يتوجه بها ولا يتوجه إليها مع التوجه إلى الله عز وجل وحده، وهذا المعنى حاصل في حياته وبعد مماته صلى الله عليه وسلم.

والحاصل أن في هذا الحديث الشريف التوسل بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، وصرفه عن ظاهره تحريف الكلم عن مواضعها بالهوى، وأما كون استجابة دعاء الضرير بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو غير مذكور في الرواية، أو بدعاء الضرير نفسه، فلا شأن لنا بذلك، بل الحجة هي نص الدعاء المأثور عن الرسول عليه السلام، وقد نص على صحة هذا الحديث جماعة من الحفاظ.

وقد ورد أيضا في حديث فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها قوله صلى الله عليه وسلم (**بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي**)[١] ورجال هذا الحديث ثقات سوى روح بن صلاح، وعنه يقول الحاكم (ثقة مأمون) وذكره ابن حبان في الثقات، وهو نص على أنه لا فرق بين الأحياء والأموات في باب التوسل. وهذا توسل بجاه الأنبياء صريح. وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (**اللّهمّ إني أسألك بحق السائلين**

---

(١) الحديث يأتي بطوله وتخريجه في ص ١٢٠.

عليك) وهذا توسل بالمسلمين عامة أحياء وأمواتا، وابن الموفق في سنده لم ينفرد عن ابن مرزوق، وابن مرزوق من رجال مسلم، وعطية حسن له الترمذي عدة أحاديث.

وعلى التوسل بالأنبياء والصالحين أحياء وأمواتا جرت الأمة طبقة فطبقة بحيث يظهر منه انعقاد الإجماع الصحيح، بمعنى أنا لم نجد في القضية خلافا ممن يعتد به ومضت عليه الأزمنة قبل ظهور البدع والأهواء.

ثم نقول إن التوسل وقع ويقع بأوجه كثيرة، ويرجع كلها إلى حقيقة واحدة هي الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى من المتوسل، والتشفع بما يؤيد إجابة دعائه وطلبه في قضاء حاجته، وباب التشفع باب واسع على ما هو واضح للمسلمين.

الوجه الأول من التوسل هو التوسل بأسماء الله تعالى وكلماته وأنبيائه

وهذا الوجه وجيه وواقع، وليس فيه من المنصفين منازع، فقد أخرجه ابن ماجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**اللّهمّ إني أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت وإذا استرحمت به رحمت وإذا استفرجت به أفرجت**)[١]

وفي حديث الصديق رضي الله تعالى عنه، الذي أخرجه عبد الملك (**وأسألك باسمك الذي بثثت به أرزاق العباد، وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك باسمك الذي وضعته على السموات فاستقلت، وأسألك باسمك الذي وضعته على الجبال فرست، وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل في كتابك من لدنك من النور المبين، وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وعلى الليل فأظلم، وبعظمتك وكبريائك، وبنور وجهك الكريم، أن ترزقني القرآن والعلم به، وتخلطه بلحمي ودمي، وسمعي وبصري، وتستعمل به جسدي بحولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك، يا**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء عن عائشة رقم الحديث ٣٨٥٩ السنن.

أرحم الراحمين)[١] وفي مشكاة المصابيح عن المهلب أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: (**إنْ بَيّتَكُمُ العَدُو فليكن شعاركم حم لاَ يُنْصَرُونَ)**[٢] أي إذا ذكرتم هذا الاسم المفتتح به سبع سور من القرآن الكريم لا ينصرون أي لا يظفرون بكم، وذلك لما وضعه الله تعالى في الأسماء والحروف من الأسرار الخفية والآثار العجيبة، ومن هنا تعبدنا الشارع بالذكر وتلاوة القرآن بفهم وبغير فهم.

ولأسماء النبي صلى الله عليه وسلم من أسماء الحسنى النصيب اللائق بذاته الشريفة، فقد أخرج ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة في باب ما يقول الرجل إذا خدرت رجله، عن ابن عباس أنه علم رجلا خدرت رجله أن يتبرك باسم محمد صلى الله عليه وسلم ففعل الرجل فذهب خدره.

وأخرج أيضا بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه خدرت رجله فقال: يا محمد صلى الله عليه وسلم، قال: فقام فكأنما نشط من عقاله إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا الباب. وإذا صح التوسل إلى الله تعالى باسمه صلى الله عليه وسلم وكانت له عند الله هذه المترلة، فالتوسل بذاته وجاهه وحقه وحرمته من باب أولى. وظاهر أن ما خص به اسمه الشريف من المزايا إنما جاء له من ذاته الشريفة، وحقيقته الممتازة عن سائر الحقائق البشرية بما لا يعرف قدر كمالها إلا واهب المنن.

وكما وهب عز وجل ذاته الشريفة مواهب لا تحصى، كذلك وهب أسماءه منها، وجعله تعالى أولى مظهر من مظاهر أسمائه وصفاته العلي، فكان لاسمه الشريف من أسماء الله الحسنى منا يتناسب مع ما لذاته الشريفة من تلك المواهب، وفي هذا المعنى يقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

وشقَّ لهُ من اسمِهِ ليجِلَّهُ * فَذُو العَرشِ محمودُ وهَذا محمَّدُ

---

(١) قال الحافظ العراقي: من رواية عبد الملك بن هارون وهما ضعيفان انظر تخريج أحاديث الإحياء (٣١٧/١)

(٢) رواه الترمذي في كتاب الجهاد. وأبو داود في كتاب الجهاد باب في الرجل ينادي بالشعار. انظر السنن ٣١/٢. وانظر مشكاة المصابيح رقم الحديث ٣٩٤٨ (٣٨٦/٢٦٠)

كما قرن اسمه باسمه في الأذان وغيره، وروي عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يقول سبحانه وتعالى أنا الرحمن وهي الرحم اشتققت اسمها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**)[١] فهذا ونحوه يدل على أن للأسماء حظا وافرا من مسمياتها التي وضع الله بها من الأسرار ما شاء أن يضع، وأسرار الأسماء والحروف والكلمات القرآنية وأوراد الصالحين لا تنكر. من الصواعق الإلهية ص: ١٥٦.

الوجه الثاني التوسل بطلب الدعاء من المتوسل به

تستفاد مشروعية دعاء المسلمين بعضهم لبعض مواجهة أو غيابا في الحياة أو بعد الممات سواء طلب الدعاء منه أو لا، من الكتاب والسنة، والإجماع:

أما الكتاب فهو دعاء الرسل الكرام لأمتهم كدعاء سيدنا نوح عليه السلام لأمته، ودعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام لأمته، واستغفار المسلمين لإخوانهم السابقين عليهم بالإيمان قال تعالى (**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْآيَمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** * الحشر: ١٠) وقوله سبحانه وتعالى (**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** * المائدة: ٢) الشامل بظاهره لكل تعاون مادي أو معنوي، ومنه الدعاء للمكروب والمريض والمذنب والمحتاج، برفع الكرب والمرض وعفو الذنب ودفع الفقر والحاجة، وكذلك الدعاء بالتوفيق وتكثير المال والولد والجاه، وقد تحقق هذا النوع من العون، وطبقه الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من الناس كما هو واضح على علماء السيرة النبوية، وكذلك المسلمون من الصحابة ومن بعدهم إلى يومنا هذا.

وأما السنة فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استأذنه في العمرة (**لا تَنْسَنا يا أُخَيَّ مِن دُعائِكَ**)[٢] فقال عمر: كلمة ما يسرني

---

(١) تمامه (**ومن ثبتها ثبته إن رحمتي سبقت غضبي**) رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند وأبو داود والترمذي. انظر شرح الإتحاف السنية بالأحاديث القدسية ص: ٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات وأبوداود في كتاب الصلاة باب الدعاء السنن (٣٤٤/١) وانظر دليل الفالحين (٣١٨/٣)

أن لي بها الدنيا، وفي مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن رجلا يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم له. قد كان به بياض** [برص] **فدعا الله فأذهبه إلا موضع الدينار أو الدرهم. فمن لقيه منكم فليستغفر لكم**)، وفي رواية (**فمروه فليستغفر لكم**)[١] انتهى، فأمر صلى الله عليه أصحابه باستغفار أويس لهم، وفيه حث على طلب الدعاء من الصالحين، وإن الفاضل يستحب له أن يطلب الدعاء ولو من المفضول، فإن الصحابة أفضل من التابعين. وأويس رضي الله تعالى عنه كان من خيار التابعين. كما روى الحاكم عن علي مرفوعا (**خير التابعين أويس**)[٢] وروي عن ابن عباس (**سيكون في أمتي رجل يقال له أويس بن عبد الله القرني وإن شفاعته في أمتي مثل ربيعة ومضر**)[٣] وصح أنه صلى الله عليه وسلم أمر أمته بطلب الصلاة عليه، وطلب الوسيلة له، فقال (**قولوا اللّهمّ صل على محمد**)[٤]. وقال (**فاسألوا لي الوسيلة**)[٥] كما صح أنه صلى الله عليه وسلم عندما كان قد طلب منه أحد أصحابه أن يستسقي للناس فدعا صلى الله عليه وسلم وسقاهم الله تعالى.

وروي عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس رضي الله عنه فقال: اللّهمّ إنا كنا نتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وسلم فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا[٦] وقد بين زبير بن بكار ما دعا به العباس في هذه الواقعة فقال: اللّهمّ إنه لم يترل بلاء إلا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل عن عمر. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٤٢٩/٩)

(٢) وأخرجه أيضا عن عمر في حديث طويل بلفظ (**إن خير التابعين رجل قال له أويس**) النووي في هامش القسطلاني (٤٢٩/٩)

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل. انظر الجامع الصغير (٥٩/٢)

(٤) سبق تخريجه في محبة الرسول ص: ٨١.

(٥) أخرجه الترمذي بلفظ (**سلوا الله لي الوسيلة**) رقم الحديث ٣٦١٦ طبعة حمص.

(٦) سبق تخريجه ص: ١٠٠.

بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.

وهذا ظاهر في الوسيلة في قوله تعالى (**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** * المائدة: ٣٥) شاملة للنبي صلى الله عليه وسلم وللعباس ولكل من يستسقي به بعدهما.

ولا يتوهمن أحد أن استسقاء عمر بالعباس يدل على أنه لا يستسقى بجاه الأموات، فإنه وهم فاسد، ووجه استسقائه به دون أن يذهب بهم إلى روضة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أن يستسقي بجاهه صلى الله عليه وسلم في خارجها أمور: الأول إرشاد المسلمين إلى أنه كما كان يستسقى بالرسول صلى الله عليه وسلم لمكانته عند الله كذلك يستسقى ويتوسل في المهمات بالصالحين من أمته لا سيما من كانت له علاقة قرابة منه صلى الله عليه وسلم. الثاني أن استسقاءه به كالاستسقاء بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال عمر: وإنا نتوسل إليك بعم نبيك ولم يقل بالعباس بن عبد المطلب فقوة التشريف من إضافته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهذه الإضافة المعنوية قد أكسبت المضاف التشريف كالتعريف، ولا يخفى هذا على علماء البلاغة.

الثالث أنه خاف عمر رضي الله عنه على ضعفاء المسلمين حيث إن الله تعالى غني عن العالمين، ويحتمل أنهم إذا ذهبوا إلى الروضة وتوسلوا به صلى الله عليه وسلم أن لا يسقوا، فيقع الضعيف في قلق نفسي.

الرابع أنه أراد أن يفهم الناس معنى الوسيلة في قوله تعالى (**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** * المائدة: ٣٥) وأنها لا تنحصر في الأعمال الصالحة بل يشملها وباقي وجوه التوسل، فإن عمر كان ملهما كما ورد في بعض الأحاديث وقد وافق رأيه الكتاب العزيز في مواضع عديدة مذكورة في محلها.

الخامس إعلان شرف ذوي العلاقة بالرسول صلى الله عليه وسلم من آله الكرام لا سيما وأن العباس كان بمنزلة الوالد منه صلى الله عليه وسلم.

والسادس أراد عمر أن يدعو العباس فيؤمن على دعائه الحاضرون من المسلمين، فإنه لا تخفى مظافرة الدعوات بالتأمينات. وكل ما ذكرنا مؤيد بما يأتي من دعائه صلى الله عليه وسلم واستشفاعه بالأنبياء الكرام الذين لحقوا بربهم كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى.

السابع أن في الاستسقاء بالعباس ورعاية احترامه اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، حيث جاء في رواية فخطب الناس عمر فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى.

وسر طلب الدعاء من الغير مع أن الله سبحانه وتعالى سميع قريب مجيب يسمع دعاء كل داع ومجيب دعاءه إذا شاء كما قال تعالى (**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي** * البقرة: ١٨٦) هو أمور نذكرها إن شاء الله تعالى:

الأول تواضع من العبد الداعي وتناس لنفسه فكأنه ابتعد عن ساحة الدعاء لكثرة ذنوبه وخجله إمام ربه، وهذه شيمة المخلصين.

الثاني امتثال للآيات والأحاديث الدالة على استحباب دعاء الجماعة وتعاونهم بينهم في اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى فإن الله مع الجماعة والجماعة رحمة.

الثالث اعتراف من الداعي ما يستفاد من الكتاب والسنة من اختصاص بعض الناس بمزيد فضيلة لا توجد في غيره. فقال سبحانه وتعالى (**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** * البقرة: ٢٥٣) وقال تعالى (**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** * الجاثية: ٢١) فإنها تدل بظاهرها على أن الصالحين مختصون بفضائل ودرجات عالية عند الله. فالمسلم المضطر يتحرى أن يكون طلبه مقرونا بالإجابة ببركة إضافة دعاء الوسيلة إلى دعائه، ألا ترى قوله تعالى (**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا**

اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * النساء: ٦٤) أضاف استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى استغفارهم للتأكد من القبول ببركة استغفار الرسول لهم مع أن الله سبحانه وتعالى قال (**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ** * طه: ٥٣) وقال (**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** * الزمر: ٥٣)

وقال سبحانه وتعالى في ما روى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم من أحاديثه القدسية (**لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني لأعيذنه**)[١] رواه البخاري، فإذا ظن واعتقد الداعي برجل صالح أنه من أولئك الناس المحبوبين التجأ إليه وطلب منه الدعاء، لعله يدعو له فيجيب الله تعالى دعاءه.

وقال عليه الصلاة والسلام (**رُبَّ أَشْعَث مَدْفُوعٍ بِالأَبْوابِ، لَو أَقْسَمَ عَلَىَ اللهِ لأَبَرَّهُ**)[٢] فالتجاء الناس إلى أولئك الصالحين تأكيد لرجاء القبول من الله سبحانه وتعالى. وقال صلى الله عليه وسلم (**أرجى الدعوات دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب**)[٣] فيطلب الملتجئ من أخيه الدعاء، فيدعو له غيابا بإخلاص ويفوز بالقبول من الله وهو الجواد الكريم.

ولم يزل المسلمون يطلب بعضهم من بعض الدعاء ويدعو بعضهم لبعض بالخصوص كما يدعون للمسلمين عامة.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب التواضع. انظر القسطلاني (٣٨٩/٩)

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب البر باب فضل الضعفاء. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٥٤/١٠) وكرره في كتاب الجنة شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٠٥/١٠)

(٣) أخرجه مسلم بلفظ (**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة**) انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٦٠/١٠) وعند أبي داود بلفظ (**إن أسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب**) السنن الصلاة باب الدعاء (٣٥٢/١)

الوجه الثالث التوسل بنفس الذوات

وهذا الوجه من التوسل هو أصل في باب التوسل، لأن كل فضل وكرامة وعمل صالح وشرف ينبع من الذات وجوهر شخصيته المختارة، وهو المستفادة من قوله تعالى (**قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** * النحل: ٥٩) ومن قوله (**وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ** * ص: ٤٧) وقوله (**وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا** * الأحزاب: ٦٩) ومن قوله تعالى (**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** * الأنفال: ٣٣) والعاقل ينظر إلى اصطفاء الذوات قبل النظر إلى محاسن الصفات، والبسيط ينظر إلى الصفات ويستدل بها على رفعة الذات، فالذات أصل والوصف فرع. وصورة هذا التوسل أن يقول الداعي: (**اللّهمّ إني أتوسل إليك بنيك محمد صلى الله عليه وسلم**)، أو بعبدك الفلاني (**أن تقضي لي حاجتي**)، وهذا أيضا واقع في قضية الشخص المكفوف فإن ظاهرها أنه قال: (**اللّهمّ إني أتوسل إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم**)[١] وفي استسقاء عمر بالعباس في قوله: (**إنا نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا**)[٢] ولم يطلب منه دعاء، ولكنه عبر عن بيان المقصود بقوله وبدعائه الذي سبق ذكره، وكذلك في قضية توسل سيدنا معاوية بزيد بن الأسود رضي الله عنهما حيث قال: اللّهمّ إنا نستسقي بخيرنا وأفضلنا اللّهمّ إنا نستسقي بزيد بن الأسود، وأما دعاؤه فكدعاء سيدنا العباس في طلب مراد الناس.

ولا مانع من التوسل بالذات إذا كان من الأموات كالأحياء، لأنه يتوسل بيمنه وقدسيته، والكرام إذا ماتوا باتوا في حلية النعيم والكرم المقيم وصفاء أرواحهم أزيد وأنوار قلوبهم أوسع، ولا يتوسل باللحم والدم والعصب والعظم بل يتوسل بذوات لا ينقص مقدارهم دينا وشرعا عن مقادير الشهداء الذين قال سبحانه وتعالى في شأنهم (**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** *

---

(١) سبق تخريج الحديث ص: ١٠٠

(٢) سبق تخريجه ص: ١٠٠

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * آل عمران: ١٦٩-١٧٠) فإذا كان الشهداء على تلك المترلة من الحياة لخدمتهم وجهادهم في الدين فكيف بصاحب الدين وسيد المرسلين وصحابته الأكرمين.

الوجه الرابع التوسل بالأعمال الصالحة وذكرها

وصح التوسل بذكر الأعمال الصالحة كما روي في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين آووا إلى غار فأطبقت عليهم صخرة، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله بعد ذكره قائلا (**اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه**)[١] فأزال الله عنهم بسؤال كل واحد ثلثا من الصخرة وخرجوا يمشون، فكل هذا يدل على جواز التوسل بالخير وبأهل الخير، لأن مغزى ذلك التوسل إن إطاعة الله بالأعمال الصالحة محبوبة مرغوبة عند الله، والعاملون لها مظاهر تلك الطاعات والخيرات فيكون لهم قدم صدق عند مليك مقتدر ووجاهة عند الله الرؤوف الرحيم، والتوسل بهم يكون عرض لتلك الرغبة والوجاهة عند الله، ألا ترى أن الله سبحانه أمر العبد الذي أتاه من لدنه علما بإقامة جدار اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحا، أليس ذلك لطفا معه ومع ذريته المساكين؟ أليس ذلك مندرجا في لطائف قوله الكريم (**وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** * الأعراف: ١٩٦)

ثم إذا ثبت أن للأعمال الصالحة الناشئة من المسلم بركة وقيمة، ظهر أن المتوسل إذا قال: اللّهمّ اقض حاجتي ببركة إخلاص النبي الكريم، أو ببركة تضحية هذا الشهيد المستشهد في سبيل الله، أو ببركة مساعي القراء والحفاظ لكتاب الله أو بيمن حملة أحاديث رسول الله، أو باجتهاد المجتهدين لاستنباط أحكام الله، أو بصداقة الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كان لتوسله ذلك قيمة واحتراما ويعز عليه سبحانه وتعالى أن يرد المتوسل خائبا. بل بالعكس يتجلى عليه بالرحمة

---

(١) الحديث يأتي بطوله وتخريجه في كرامات أولياء الله.

وقضاء حاجته، وهذا هو الواقع المعلوم من سنته في عباده وأهل ذمته، حشرنا الله تعالى معهم وعفا عنا ببركات أعمالهم وقوة نياقم.

الوجه الخامس التوسل إلى الله تعالى بحق عباده المكرمين من الأنبياء والمرسلين ومن الأئمة العارفين

وهذا النوع من التوسل يشمل التوسل بحقهم أحياء وأمواتا، وهو استشفاع بحقهم، وليس معنى حقهم الحق المرعي الواجب على الله تعالى، فإنه لا يجب عنه، ولا يجب عليه شيء، وهو الفاعل المختار، بل المراد حق الاحترام والإكرام المرعي منه تعالى فضلا ورحمة وإحسانا، كما في قوله تعالى (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** * الأنعام: ٥٤) وكما في قوله تعالى (**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** * الروم: ٤٧) والحق بهذا المعنى يرجع إلى معنى الجاه والشأن والقدر عند الله تعالى.

وهذا التوسل وقع منه صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه به، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم (**اللّهمّ إني أسألك بحق السائلين عليك**) وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم (**من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهمّ إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا إليك، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، أقبل الله بوجهه عليه واستغفر له سبعون ألف ملك**)[١] وذكره الجلال السيوطي في الجامع الكبير.

وروى الحديث المذكور أيضا ابن السني بإسناد صحيح عن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه ولفظه كان رسول الله إذا خرج إلى الصلاة قال (**بسم الله، آمنت بالله، وتوكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللّهمّ إني أسألك**

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/١٢١) وابن ماجه في باب المشي إلى الصلاة (١/٢٥٦) ورقم ٧٧٨ قال في الزوائد هذا إسناده مسلسل بالضعفاء.. لكن رواه خزيمة في صحيحه من طريق بن مرزوق فهو صحيح عنده.

بحق السائلين عليك، وبحق مخرجي هذا فإني لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت ابتغاء مرضاتك، واتقاء سخطك أسألك أن تعيذني من النار وأن تدخلني الجنة)[١] ورواه الحافظ أبو نعيم في عمل اليوم والليلة من حديث أبي سعيد بلفظ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال (**اللّهمّ**..) إلى آخر الحديث

ورواه البيهقي في كتاب الدعوات من حديث أبي سعيد أيضا.

ومحل الاستدلال قوله صلى الله عليه وسلم (**بحق السائلين عليك**) النص في التوسل بحق العباد الداعين السائلين، ومنهم الأحياء والأموات، كما أن في الحديث الشريف دلالة على جواز التوسل بحق نفس المتوسل وأعماله الصالحة كما يظهر من قوله (**وأسألك بحق ممشاي هذا إليك**) ولما كان الحق بمعنى القدر والجاه كان فيه الاستشهاد للتوسل بالجاه أيضا. فالحديث المذكور برواياته وطرقه الكثيرة يكون دليلا على جواز التوسل بالحق والجاه للأحياء والأموات من العباد المكرمين، وبعمل النفس أيضا، كما هو منصوص بقوله صلى الله عليه وسلم (**ممشاي**) و لم يزل السلف من التابعين وأتباعهم ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة بأمره صلى الله عليه وسلم.

ويدل على هذا النوع من التوسل أيضا ما رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد رضي الله عنها، وكانت ربت النبي صلى الله عليه وسلم وتعهدته وخدمته وهي أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها وقال (**رحمك الله يا أمي بعد أمي**) وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها قال فلما بلغوا اللحد حفره النبي صلى الله عليه وسلم بيده، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال: (**الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغْفِرْ لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق**

---

(١) أخرجه النووي في الأذكار وضعفه ص: ٣٢، وابن السني في علم اليوم والليلة رقم الحديث (٨٤)

نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين)[١]

وروى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه مثل ذلك وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه ذكر ذلك الحافظ السيوطي في الجامع الكبير.

وروى البيهقي بإسناد صحيح في كتابه (**دلائل النبوة**) الذي قال فيه الحافظ الذهبي عليك به فإنه كله هدى ونور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب أسألك بحق محمد إلاّ ما غفرت لي، فقال الله تعالى: يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه، قال يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك)**[٢] ورواه أيضا الحاكم وصححه الطبراني وزاد فيه (**وهو آخر الأنبياء من ذريتك**).

وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رحمه الله تعالى للخليفة الثاني من بني العباس، وهو المنصور جد الخلفاء العباسيين، وذلك أنه لما حج المنصور المذكور وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم سأل الإمام مالكا وهو بالمسجد النبوي، وقال له: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك، قال تعالى (**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا** * النساء: ٦٤)

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير في حديث طويل، وفي رواته روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم، قال الحافظ الهيثمي: روح فيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح انظر مجمع الزوائد (٢٥٦/٩ - ٢٥٧) وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١٢١/٣)

(٢) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٥/٢) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريقه وصححه الحاكم فتعقبه الذهبي بقوله: قلت بل موضوع وعبد الرحمن واه.

ذكره القاضي عياض في الشفاء وساقه بإسناد صحيح، وذكره الإمام السبكي في شفاء السقام في زيارة خير الأنام، والسيد السمهودي في خلاصة الوفاء، والعلامة القسطلاني في المواهب اللدنية، والعلامة ابن حجر في تحفة الزوار والجوهر المنظم بالمنتظم، وذكره كثير من أرباب المناسك في آداب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال العلامة ابن حجر في الجوهر المنظم رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذي لا مطعن فيه، وقال العلامة الزرقاني في شرح المواهب ورواها ابن فهد بإسناد جيد ورواها القاضي عياض في الشفاء بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس في إسنادها وضاع ولا كذاب، ومراده بذلك الرد على من لم يصدق رواية ذلك عن الإمام مالك، ونسب له كراهية استقبال القبر فنسبة الكراهة إلى الإمام مالك مردودة.

الوجه السادس التوسل إلى الله بالتبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم

وهذا أمر ثابت في عهده صلى الله عليه وسلم بمرآي منه وقد قرره صلى الله عليه وسلم وجرى الأمر عليه بعد وفاته أيضا، لأن الله سبحانه وتعالى خص آثاره وما لمسه أو باشره بمزايا وخصائص يتبرك بها وينتفع بأثرها.

ففي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها أنها أخرجت جبة طيالسة وقالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفون بها، وكانوا يفعلونه ذلك فيشفون. وكان لعبد القاسم بن المأمون قصعة من قصاع النبي صلى الله عليه وسلم يجعلون الماء فيها للمرضى فيشفون به. وكان صلى الله عليه وسلم إذا توضأ ابتدروا وضوءه وكانوا يقتتلون عليه وكان لا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها وتبركوا بها، وقد أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك بل كان يأمر أبا طلحة أن يفرق شعره عند حلق رأسه بين أصحابه ليتبركوا به كما في صحيح البخاري[١] وفيه عن أبي جحيفة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة إلى

---

(١) لمزيد تفصيل ذلك راجع فتح الباري كتاب الوضوء باب الماء الذي يغسل فيه شعر الإنسان (٢٣٨/١-٢٣٩)

البطحاء فتوضأ ثم صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين وقام الناس فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بهما وجوههم قال فأخذت يده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب رائحة من المسك[١] رواه أحمد والبخاري وقوله (يمسحون بها وجوهم) فيه مشروعية التبرك بملامسة أهل الفضل والصلاح.

وفي صحيح مسلم عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان يداوي من به قرحة أو جرح بأن يضع أصبعه السبابة بالأرض ثم يرفعها قائلا: (**بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفي سقيمنا بإذن ربنا**)[٢] أي هذه تربة أرضنا معجونة بريقة بعضنا، قال النووي. ومعنى الحديث أن يأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة ثم يضعها على التراب ليعلق بها شيء منه فيمسح به على الموضع العليل والجرح ويقول هذا الكلام في حال المسح متبركا باسمه تعالى. انظر شرح المشكاة.

والسنة مملوءة بذكر التبرك والرقية بآثاره صلى الله عليه وسلم عرقه ودمعه ولعابه وثيابه ومشاهده التي شرفها صلى الله عليه وسلم، ومن هنا أخذ التبرك بآثار الصالحين. وقد حوفظ على عدد من شعرات لحية الرسول صلى الله عليه وسلم عند ملوك المسلمين، ووقع منها عدد في خزانة السلاطين العثمانيين رحمهم الله تعالى، ووصلت منها عدد إلى ديار كردستان العراق كما هي موجودة الآن في تكية (بيارة) المباركة إحدى نواحي قضاء (حلبجة) التابعة لمحافظة السليمانية وقد توسل ببركتها على مرأى منا في مناسبات خاصة في زمن الجدب وقلة الأمطار، فأخرجت من صندوقها الخاص واجتمعنا واقفين وصلينا على الرسول صلى الله عليه وسلم مرات وتوسلنا بها فترلت الأمطار الغزيرة، وفي أوقات الخوف من هجوم الأعداء على بعض أقطار المسلمين من مجاورين فحصلت صيانة لها عنهم، وذلك معلوم ومعروف عند

---

(١) البخاري باب المناقب. انظر الفسطلاني (٢٩/٦)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطب. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٢٦/٩)، وأبو داود في سننه كتاب الطب (٣٣٩/٢)

المسلمين الموجودين في تلك الربوع بحيث لم يبق مجال للشك فيه، واقرأوا قوله تعالى (**اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا** * يوسف: ٩٣).

الوجه السابع التوسل بالرقي والتمائم

وثبت أن التوسل بقراءتها وكتابتها نافع وسبب من الأسباب العادية التي يخلق الله المسبب عندها، قال ابن رسلان كما في نيل الأوطار أن هذا جائز لا أعرف الآن من يمنعه في الشرع[١]

وأحاديث البخاري وغيره من الرقية بالفاتحة والمعوذتين تدل على جواز الرقية بغيرهما من سائر آيات الله وكذلك الرقية بكل ما هو مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب من الأدعية والتعوذات، ويلحق به ما ورد عن الصالحين من الأقوال والأعمال التي لا تشتمل على باطل. فإن الرقية منها ما هو مشروع ومنها ما هو غير مشروع كما يشير إليه حديث خارجة بن الصلت عن عمه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم ثم أقبل راجعا من عنده فمر على قوم عندهم رجل مجنون موثق بالحديد فقال أهله إنا قد حدثنا إن صاحبكم (يعنون النبي صلى الله عليه وسلم) قد جاء بخير فهل عندك شيء تداوي به قال فرقيته بفاتحة الكتاب ثلاثة أيام كل يوم مرتين فبرئ فأعطوني مائتي شاة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال (**خذها فَلَعَمْرِي مَنْ أكَلَ بِرُقْيَةِ باطِلٍ، فَقَدْ أكَلْتَ بِرُقْيَةِ حَقٍّ**)[٢] رواه أحمد وأبو داود ولفظ أبي داود (**ثلاثة أيام غدوة وعشية كلما ختمها جمع بريقه ثم تقل**) قال ابن أبي جمرة ومحل التفل يكون بعد القراءة لتحصل بركة القراءة في الجوارح التي يمر عليها الريق. وفي قوله صلى الله عليه وسلم (**برقية باطل**) أي برقية كلام باطل إشارة إلى أن الرقية منها حق ومنها باطل وهي التي اشتمل كلامها على محرم أو مكروه.

ويدل على المقصود أيضا خبر أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وذلك أنه كان

---

(١) انظر نيل الأوطار (٢٣٩/٨)

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، انظر السنن (٢ ص: ٣٣٩ و ٣٤١)

مع جماعة من الصحابة في السفر فمروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم، فباتوا بالوادي فلدغ رئيس ذلك الحي فأتوا له بكل دواء فلم ينجع، أي لم ينفع بشيء، فقال بعضهم لبعض: سلوا ذلك الحي الذي نزل عندكم فسألوهم فقالوا هل فيكم من راق فإن سيد الحي لدغ فقالوا: نعم، ولكن لا يكون ذلك إلا بجعل لكونهم لم يضيفوهم فجعلوا لهم قطيعا من الغنم وكان ثلاثين رأسا وكانت الصحابة كذلك، فقرأ عليه أبو سعيد الفاتحة ثلاث مرات فكأنما نشط من عقال، وإنما رقاه بالفاتحة دون غيرها لأنه صلى الله عليه وسلم قال: (**فاتحة الكتاب شفاء من كل داء**)[١] ثم توقفوا في ذلك فقالوا كيف نأخذ أجرا على كتاب الله تعالى؟ فلما قدموا المدينة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن ذلك فقال: (**إن أحق**) وفي رواية (**إن أحسن ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله تعالى**)[٢]

وقد رقى صلى الله عليه وسلم سهل بن حنيف من نظرة عامر بن ربيع حيث أمره بغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وما تحت إزاره، ثم بصب الماء على رأسه فبرئ لوقته. وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن بذلك وكم وكم له صلى الله عليه وسلم ولغيره ممن ورث حاله في هذا الباب، وإن كان بين رقاه صلى الله عليه وسلم ورقي غيره من التفاوت ما بين مقامه ومقامهم، ولا شك أن هذه الرقي منه صلى الله عليه وسلم ومن غيره من العمل الصالح الذي يتوسل به إلى حصوله المطلوب ويتقرب به إلى الله تعالى لنيل ثوابه المعروف.

وأحاديث النهي عن الرقى والتمائم محمولة على قوم كانوا يعتقدون نفعها وتأثيرها بطبعها، كما كانت الجاهلية يزعمون في أشياء كثيرة أنها تؤثر بطبعها، أو على رقى أشتمل كلامها على محرم أو مكروه، وإلا فرقيه صلى الله عليه وسلم متواترة لا شك ولا شبهة فيها.

---

(١) رواه بهذا اللفظ البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الملك مرسلا انظر الجامع الصغير (١٢٢/٢)

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطب انظر السنن (٣٤٠/٢)

الوجه الثامن التوسل بطلب الفعل من الرسول صلى الله عليه وسلم أو من غيره من الأنبياء أو الأولياء

كان يقول يا رسول الله أو يا سيدي فلان خلصني من هذه المشكلة المادية، كابتلائه بالأعداء، أو المعنوية كابتلائه بوساوس نفسه وغيرها، فهذا الوجه من التوسل إن كان على رعاية المعنى المجازي كأن يريد المتوسل: يا رسول الله ادع لي أو أشفع لي كي أخلص من هذه المشكلة فإنه جائز، وحصول المتوسل إليه واقع، فكم شفى مريض بتوجهاتهم، وكم قضيت حاجات بإرشاداتهم، ومن أنكر ذلك فقد أنكر محسوسا وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم رد عين قتادة بعد أن سألت على وجنته[١] وشفي ابن (ملاعب الأسنة) من مرض استسقائه بتفاله على حثوة من التراب بعد إعياء حيلته، إلاّ أنه لا يجوز دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ولا طلبه منه بمثل هذه الصيغة التي من شأنها أن تستند إلى الله تعالى لا إلى غيره، لأن الداعي وإن أراد المعنى المجازي الصحيح لكن صيغته موهمة للفساد فيجب تركها. ونحن ما سمعنا الدعاء من مسلم فاهم للدين بتلك الصيغة، وأما المسلم الجاهل أو البدوي البعيد عن معرفة الأحكام فإن صدرت منه تلك الصيغ وجب تنبيهه وإعلامه إن تلك الصيغة غير سليمة، وأن الصحيح هو أن تقول صيغة تدل على جعله صلى الله عليه وسلم داعيا ووسيلة لوصول المتوسل إلى مراده.

ويجب أن يعلم أنه ليس من قبيل تلك الصيغة الركيكة قول المسلم المتوسل: اشفع لي يا رسول الله، أو أسألك الشفاعة لي يوم القيامة على معنى سل الله تعالى أن يغفر لي ويدخلني الجنة، أو أن يقول: يا رسول الله كن وسيلة النجاة لي من تلك المحنة، أو ادع الله تعالى أن يشفيني أو يعينني على حصول مقصودي، فإن كل تلك العبارات في المآل دعاء إلى الله، وطلب من الله، والتجاء إليه في الواقع، وجعل الرسول وسيلة

---

(١) قصة رد الرسول صلى الله عليه وسلم عين قتادة إلى مكانها جاءت في روايات كثيرة، ذكر البغوي وأبو يعلى أن القصة كانت في بدر، وفي رواية أن الرسول وضع راحته على حدقة قتادة ثم غمزها فكان لا يدري أين ذهبت عينه، وفي رواية أنه ردها إلى مكانها، وعند الدارقطني وابن شاهين أن القصة كانت في غزوة أحد وقد فصل الكلام فيها ابن حجر في الإصابة (٢١٧/٣)

وشفيعا وذلك أمر صحيح سليم وشفاعته صلى الله عليه وسلم ثابتة لا تنكر.

فإن قوله تعالى (**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه** * البقرة: ٢٥٥) مما يقرر ثبوت الشفاعة للأنبياء وغيرهم بإذنه سبحانه وتعالى، وكذلك قوله تعالى (**وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى** * الأنبياء: ٢٨) وقوله تعالى (**لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** * طه: ١٠٩) من الأدلة الجلية على ثبوت الشفاعة. وإنكارها إنكار البديهيات، وحديث شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة كاد أن يكون متواترا. وكذلك ليس من المحظور الاستعانة برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعنى المعروف حسب اللغة العربية المستعملة وحسب العرف العام، وهو إمداده وإسعافه للمستغيث بالوسائل الاعتيادية والأسباب المتداولة المعروفة. وكذا ليس من المحظور الاستعانة برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعنى المعروف وهو عونه للمستعين بما في وسعه وطاقته الاكتسابية بمباشرة أسباب الخلاص والفرج عن المستعين المكروب، فإن الله سبحانه وتعالى بحكمته العالية جعل لكل شيء سببا ألا ترى في قصة ذي القرنين (**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا** * الكهف: ٨٤-٨٥) فالأسباب الاكتسابية كثيرة لا يحصيها إلا الله، فمن الأسباب توجه المستغيث والمستعين إلى من يغيثه ويعينه، ومن الأسباب أيضا إمداد المستغاث والمستعاذ بما في وسعه لإزالة الكرب عن السائل. ومما هو نص في الاستغاثة بالمعنى الاكتسابي المعروف قوله سبحانه وتعالى (**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ** * القصص: ١٥) ومما هو نص في الاستعانة بالمعنى الاكتسابي المعلوم قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** * البقرة: ١٥٣) وقوله صلى الله عليه وسلم (**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان**)[١] وينادي على صحة ذلك قوله سبحانه وتعالى (**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** *

---

(١) تمامه (**فإن كل ذي نعمة محسود**) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية، والطبراني، كما ذكره الزركشي في اللآلي المنتشرة في الأحاديث المشتهرة، وأورده السيوطي ورمز لضعفه في الجامع الصغير (٦٤/١)

المائدة: ٢) فإن التعاون مصدر باب التفاعل، والباب للمشاركة على ما هو معلوم عند علماء العربية، وعونك لشخص كثيرا ما يكون بعد استعانته بك، وكذلك عونه لك يكون بعد استعانتك به.

وأما حصر الاستعانة في الاستعانة بالله العظيم في قوله تعالى (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** * الفاتحة: ٥) وكذا حصر السؤال والاستعانة به تعالى في قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله تعالى عنهما (**وإذا سألت فأسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**)[١] فهو حصر لها على معنى خلق المسؤول والمستعان فيه وإيجاده في ذات الله سبحانه، كيف وقد قال (**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** * الزمر: ٦٢)

فالاستعانة بمعنى خلق المعونة حصر في الله سبحانه وتعالى، وبمعنى الاستعانة وطلب المعونة الممكنة المتيسرة من الناس تستعمل مع كل من يمكن منه ذلك، وذلك نظير الهداية، فإنها بمعنى خلق الاهتداء ونور البصيرة حصر في الله سبحانه وتعالى، ومسلوب عن كل ما سواه كما قال تعالى (**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** * القصص: ٥٦) وبمعنى إراءة الطريق وإرشاد الناس يستعمل في القرآن كما في قوله تعالى (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** * الإسراء: ٩) ويستعمل للأنبياء والمرشدين الهداة إلى الحق وحماته كما في قوله تعالى (**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** * الشورى: ٥٢) فيجب رعاية هذه الأمور والتنبه لمعرفة معاني ألفاظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم، حتى نستعين بهما على السلوك في الصراط المستقيم (**رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** * آل عمران: ٨) ألا ترون قوله تعالى خطابا لحبيبه الأمين (**يَا أَيُّهَا النَّبِي حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** * الأنفال: ٦٤) فإن كفاية الله له بخلقه النجاح وترتيبه المسببات على الأسباب، وكفاية المؤمنين له بخدمتهم للدين والجهاد لإعلاء كلمة الحق واليقين،

---

(١) هذه قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي عن ابن عباس في كتاب صفحة القيامة من سننه، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد انظر المسند (٢٣٣/٤-٢٦٩) وذكره النووي في الأربعين.

ومباشرة أسباب النجاح الاعتيادي الواجب رعايته على سنة الله في الكون (**سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً** * الفتح: ٢٣).

والناجح هو الموفق الذي يوفق بين الاعتماد على الله والتوكل عليه في خلق النجاح والسعادة، وبين مباشرة الأسباب المشروعة التي خلقها الله تعالى للعباد في دنياهم لرقيهم وظفرهم بأعدائهم، فإن الحكمة هي الجمع بين هذين الأمرين (**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** * البقرة: ١٦٩) ويا أسفا على المسلمين الذين تناسوا جهاده صلى الله عليه وسلم مادة ومعنى حيث كان يحارب الأعداء، ويعد العدة، ويستنجد، ويعاهد، ويأمر بالهجرة إلى البلاد، وفي كل أحواله يرجع إلى ربه ويتوكل عليه ويقول (**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** * يونس: ٦٢)

والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، كما دلت الأحاديث السابقة، لأنا لا نعتقد تأثيرا، ولا خلقا، ولا إيجادا، ولا إعداما، ولا نفعا، ولا ضرا، إلا الله وحده لا شريك له، فلا نعتقد تأثيرا ولا نفعا ولا ضرا، للنبي صلى الله عليه وسلم باعتبار الخلق والإيجاد والتأثير، ولا لغيره من الأحياء والأموات، فلا فرق في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، وكذا بالأولياء والصالحين، لا فرق بين كونهم أحياء أو أمواتا، لأنهم لا يخلقون شيئا، وليس لهم تأثير في شيء، وإنما يتبرك بهم لكونهم أحباء الله تعالى، والخلق والإيجاد والتأثير لله وحده لا شريك له.

وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات حيث جوزوا بعض التوسلات بالأحياء لا للأموات، فهم القريبون من الزلل، لأنهم اعتبروا أن الأحياء لهم التأثير دون الأموات، مع أنه لا تأثير إيجاديا لغير الله سبحانه وتعالى على الإطلاق. وأما الإفادة وفيض البركات والاستفادة من أرواحهم استفادة اعتيادية، وتوجه أرواحهم إلى الله سبحانه وتعالى طالبين فيض الرحمة على ذلك المتوسل، فهو شيء جائز وواقع

وخال عن كل خلل، بدون الفرق بين الأحياء والأموات.

فشبهة المانعين إن كانت من جهة أن الأموات أجساد هامدة جامدة، ولا روح ولا إدراك ولا مجال للخطاب معهم، فتلك ساقطة من الاعتبار، بأن أجساد الأنبياء والرسل لا تبلى، وأن الله حرم على الأرض أن تأكل لحومهم، وأن أرواحهم باقية ثابتة، ولها إدراك بإذن الله تعالى، وهو تعالى يعلمها بصلوات المسلمين وبتوسلات المتوسلين، وحسبك في الموضوع خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في كل صلاة عند التشهيد بقولك: (**السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**)[١] ولا ينافي ذلك قوله تعالى (**إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى** * النمل: ٨٠) لقوله تعالى (**إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ** * فاطر: ٢٢) فإنه لولا خلق الله للإسماع لم يكن إسماع لأي شخص من أي شخص حتى في الدنيا وفي حال اليقظة، ولكن الله يسمعهم، وإلا فكيف كان يتكلم صلى الله عليه وسلم مع قتلى بدر الواقعين في القليب، وكيف يقول صلى الله عليه وسلم إن الموتى يسمعون قرع نعال المشيعين لهم، وكيف كان مجال لتلقين الموتى بعد الدفن؟

وإن كانت شبهتهم من جهة أن تأثير لما سوى الله تعالى، فهي مدفوعة بأن المتوسلين لا يريدون منهم التأثير والإيجاد، معاذ الله أن يتصور المسلم صحة شيء مخالف لقواعد الإيمان والإسلام والتوحيد، وإن كانت الشبهة وقوع بعض ألفاظ غير سليمة من الخلل، فهي مدفوعة بتداركها بأدنى عناية حول تربية المسلمين لترك الألفاظ غير السليمة، واستعمال ما يناسب مقام العبودية.

وأما منع التوسل مطلقا فلا وجه له من ثبوته في الأحاديث الصحيحة، ومع صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، وجعل التوسل شركا، وكفرا معارضة صريحة لقواعد الإسلام، فإن من قواعده عدم تكفير أي مسلم إلا بعد ثبوت مكفر منه لا يقبل التأويل، وإضلال للأمة المعصومة من

---

(١) راجع فتح الباري (٢/٢٦٠) لمزيد من البحث.

الخطأ فضلا عن الكفر بقوله صلى الله عليه وسلم (**لا تجتمع أمتي على ضلالة**)[١] الحديث المعروف المشهور الجلي الذي ادعى بعض المحدثين أنه متواتر ومخاصمة مع قوله تعالى (**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** * آل عمران: ١١٠) إذ كيف تجتمع كلها أو أكثرها على ضلالة؟ وهي خير أمة أخرجت للناس.

فإذا وفقنا وتوجهنا إلى الضريح الأنور وخاطبناه صلى الله عليه وسلم، فخطابنا معه له أصل في الدين، وهو الخطاب معه في تشهدنا لكل صلاة، ومعنى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم له روح عالية الدرجات موهوبة منه سبحانه بفضائل لا يعلمها إلا هو، وأنه تعالى يخبره ويعلمه بصلاة المصلين وخطاب الحاضرين والغائبين.

وإذا توسلنا به صلى الله عليه وسلم على معنى طلب الدعاء منه صلى الله عليه وسلم، فطلب الدعاء مشروع، وروحانيته المنورة لا فرق بين عالم علاقتها المادية الدنيوية وعلاقتها البرزخية، بل والأرواح في البرزخ أصفى منها في عالم الدنيا.

وإذا توسلنا بذاته الشريفة، أو بجاهه العظيم، أو بحقه الجسيم، أي حق رعايته للعبودية الخاصة عند الله تعالى بمحض إحسانه ولطفه، أو فضل طاعته وأعماله وجهاده في تبليغ الدين المبين، فكل ذلك واقع في الروايات الصحيحة كما سمعت منا في أوجه التوسل به صلى الله عليه وسلم. وإذا كان القصد الاستشفاع به صلى الله عليه وسلم، فلا شك أنه الشفيع الأكرم المشفع، وشفاعته ثابتة لا شك فيها، وقبول شفاعته ثابت بفضل الله وهو من خالص كرمه ورحمته تعالى، لا حق لأحد في منعه وحجره أو إنكاره. وما توهم الناس به من أنه إشراك، فهو توهم من تعامي عن حقيقة معنى الإشراك، فإنه عبارة عن أن يجعل العبد أحدا سوى الله تعالى شريكا له في الألوهية والربوبية والخلق، أي أن ذلك الشريك له نصيب من الصفات المذكورة، وأين ذلك من التوسل بالرسول صلى الله عليه سلم، بصفة أنه عبد الله ونبيه ورسوله أكرمه بفضله، وجعل له الشفاعة والوسيلة والمقام المحمود؟

---

(١) الحديث يأتي تخريجه في محبة الصحابة.

وقياس المسلمين المتوسلين على عباد الأصنام في ما حكاه الله تعالى عنهم من قولهم (**مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى** * الزمر: ٣) ونحوه ناشئ عن إغماض عن الحق وانحراف عن الواقع، وتسوية بين الأمة الوثنية الجاهلة الضالة العمياء وبين الأمة المسلمة المؤمنة بالله وحده لا شريك له، الناشئة على الملة الإسلامية الحنيفة المهتدية البيضاء، التي تمرنت على الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى رب العالمين وخالق كل شيء ومعبود المكلفين، وكيف يتصور بمن أسلم وقرأ القرآن وفهم تعاليمه أن يظن تلك الظنون الفاسدة التي ظنها عباد الأصنام الجاهليون؟ وكيف يتصور ذلك من العلماء الأعلام الدارسين لمعنى قوله تعالى (**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** * الكهف: ١١١) ولإنذارات الرسول الكريم لعشيرته بعد نزول قوله تعالى (**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** * الشعراء: ٢١٤) نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدي المسلمين بنور العلم السليم إلى الصراط المستقيم بمنه وفضله إنه أرحم الراحمين.

وقلوبنا مملوءة بأمل أن ينتبه المسلم الزكي الذكي المنصف لملاحظة الحقائق، وتنوير الأمة على ضوئها، وإرشاد العامة وتأييد الخواص، فالدين نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم[١] وليس من النصيحة إثارة الشكوك والأوهام وتضليل المسلمين من لدن القرون الأولى إلى يومنا، فإنه قد مضت قرون والمسلمون والرشد في قرن كما أنه لا ينبغي ولا يجوز بل يحرّم الاقتداء بالحرورية المكفرين فإن رأينا نحن المسلمين أن لا نكفر أحدا من أهل القبلة، إلا بحجة قاطعة على كفره، كما يجب الاجتناب كل الاجتناب عن الانحراف، ويجب علينا الاعتدال والوقوف في وسط الطريق بلا إفراط وتفريط، وإيتاء كل ذي حق حقه، وهذا هو الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من الرسول وصحابته وأتباعه وأتباع التابعين صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم وعنا ببركاتهم أجمعين.

---

(١) هذا إشارة إلى الحديث الشريف (**الدين النصيحة**) وهو حديث صحيح أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٧٤/١) والترمذي في كتاب البر والصلة، انظر السنن (٣٢٤/٤)

محبة الرسول

ومن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم الاقتداء به والاقتداء به صلى الله عليه وسلم هو الجهد في الاتصاف بعقيدته وأعماله وأخلاقه صلى الله عليه وسلم قال تعالى (**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ** * آل عمران: ٣١) وقال تعالى (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** * الأحزاب: ٢١) وقال تعالى (**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** * القلم: ٤) وقال صلى الله عليه وسلم (**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)[١] فالمؤمن إنما يكون مؤمنا بالمعنى الكامل باقتدائه به في كافة شؤونه، سوى ما اختص به صلى الله عليه وسلم من خصائصه الشخصية الكريمة، ومن هذا الاقتداء تنشأ محبة الكتاب والسنة بالجهد في تعلمهما والعمل بهما، وتعليمهما للناس، والدفاع عنهما ويجب إكرام حملتهما من القراء والحفاظ والمحدثين، وعلمائهما القائمين بخدمتهما من الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، وكل من له قدم راسخ ثابت في تأييدهم لبقاء هذا الدين المبين.

ومنع اللعب بالمحرمات والضغط للأصوات عند قراءة القرآن سواء من الراديوات أو غيرها فإن ذلك احتقار للقرآن وتحقيره تعمدا كفر والعياذ بالله تعالى.

إحترام آله وأزواجه

ومن محبته صلى الله عليه وسلم احترام آله من أزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وخدمتهم المستقيمين على الأدب الرفيع من ذريته صلى الله عليه وسلم. أما أزواجه الطاهرات فلقوله تعالى (**النَّبِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** * الأحزاب: ٦) فلا شبهة في أن النبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك وهو يدعوهم إلى النجاة، فإذا أمر صلى الله عليه وسلم بشيء ودعت النفس إلى غيره، كان الواجب إتباع أمره صلى الله عليه وسلم، وإذا نهى عن شيء ودعت النفس إلى فعله، كان الواجب الانتهاء عن ذلك والوقوف عند حد

---

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة. انظر تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي (٤٨/٣)

النهي، فإنه صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى وداع إلى الهدى، وخير الكتاب كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وما خالف ذلك ونافاه فهو الهوى، ويجب اجتنابه لنيل الأجر عند الله، قال (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** * النازعات: ٤٠) وقال صلى الله عليه وسلم (**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**)[١] وهذا هو الإيمان الكامل.

ومعنى أنه جعل الله تعالى أزواجه صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين، أنه شرفهن الله تعالى، وأوجب على المؤمنين تعظيمهن، والمبرة لهن، وإجلالهن، ورعاية حقوقهن، والاعتقاد بأنهن متميزات ومختارات من الله سبحانه وتعالى لصحبة خير خلقه ومصطفاه، كما قال (**وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** * النور: ٢٦) فلا يساويهن في تلك الدرجة أحد من النساء، قال تعالى (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ** * الأحزاب: ٣٢) وأمرهن بكل الأدب مع الله ومع رسوله وخدمة الإسلام والدين وقال لهن: (**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** * الأحزاب: ٣٤) وأمرهن الله سبحانه بالتزام الخير من كل وجهة وقال (**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** * الأحزاب: ٣٣) فقد نصت الآية الشريفة على أن الله تعالى أراد بهن الخير وزوال كل مكروه عنهن، وهذه الألفاظ تعطي أن أهل البيت نساءه وقد روي عن عطاء وعكرمة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن أهل البيت زوجاته خاصة، ولكن الذي يظهر من أول الآيات إلى آخرها أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم، وإنما قال: (**ويطهركم**) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليا وحسنا والحسين كان فيهم، وإذا اجتمع الرجال والنساء غلب الرجال.

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة، والحسن بن سفيان في الأربعين، وابن عساكر في أربعينه، وصححه النووي، وتعقبه الحافظ ابن رجب في الأربعين، ورواه التبريزي في المشكاة (٥٩/١)

وبالجملة أن من اختارهن الله سبحانه وتعالى لصحبته ودوام العشرة معه صلى الله عليه وسلم من خيار المسلمات المؤمنات القانتات العابدات، وأن الإيمان بأدبهن وعلو مقامهن وعفتهن، واصطفائهن لصحبة المصطفى صلى الله عليه وسلم من واجبات المؤمنين والمؤمنات.

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة آله صلى الله عليه وسلم وتوقيرهم

قد يستعمل الآل ويراد به جميع أمة الإجابة[١] ومنهم الصالح والطالح، وهذا المعنى لا تسانده اللغة ولا العرف العام إلا في بعض استعمالات مقرونة بقرائن تدل على ذلك المعنى، وقد يستعمل ويراد به كل تقي ونقي أي كل صاحب تقوى من أمة الإجابة ونظيف من الكبائر، وهذا المعنى أخص من الأول، ولا تسانده أيضا اللغة ولا العرف العام إلا بقرائن، وقد يستعمل ويراد به مؤمنوا بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف، وهذا المعنى يسانده الحديث الصحيح روى البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قسم سهم ذوي القربى وهو خمس الخمس بينهم تاركا منه غيرهم من بني عميهم بني نوفل وعبد شمس مع سؤالهم له.. وقال صلى الله عليه وسلم (**إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحل لمحمد ولآل محمد**)[٢] وقد يستعمل بمعنى نسله ورهطه الأقربين، وقد يفسر هذا المعنى على وجه يكون أخص من المعنى السابق، ويؤيده ما رواه زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**أنشدكم الله أهل بيتي**)[٣] ثلاث مرات، قلنا لزيد من أهل بيته؟ قال آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس، ومعلوم أنهم من أولاد هاشم بن عبد

---

(١) أمة الإجابة: يعني جميع أولئك الذين استجابوا دعوة الإسلام وآمنوا به، وتقابلها أمة الدعوة: أي أولئك الذين دعوا إلى الإسلام سواء استجابوا أم لا.

(٢) الحديث أخرجه مسلم عن عبد الله بن حرث بن نوفل. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٥/٤٢). وأخرجه النسائي في كتاب الزكاة سنن النسائي (٥/١٠٦)

(٣) رواه الإمام أحمد عن زيد بن أرقم بلفظ (**أذكركم الله في أهل بيتي**) ثلاثا. انظر المسند (٤/٣٦٧). ورواه الترمذي بلفظ (**أحبوا أهل بيتي**) رقم ٣٧٨٩ - ٣٨٧٢، طبعة حمص

المناف، وليس فيهم من آل أخيه المطلب أحد. وعلى كل فقد وردت في الصحاح أحاديث شريفة ترغب المسلمين في احترام آله صلى الله عليه وسلم، وكل ذلك ينادي على أن المؤمن المخلص لدين الله لا شك أنه يحب الله ورسوله، ويحب من له علاقة بالرسول صلى الله عليه وسلم بصورة عامة، ويحب علاقته من ذوي قرابته الأقربين بصورة خاصة، ومن واجب المؤمن رعاية هذه السلسلة الذهبية المباركة التي أثمرت ثمارا طيبة في خدمة الكتاب والسنة ونشر الإسلام بين المسلمين، ويحترمهم وينظر إليهم نظرة إجلال وتوقير، مع العلم أن كل أفراد المسلمين على حد سواء في وجوب رعاية أحكام الله وحدودها، وأن أكرم العباد على الله أتقاهم فهذا معنى والنظر إلى آل الرسول بنظر الاعتبار احتراما للعلاقة النبوية معنى آخر. وكل من قال أو يقول إن آل الرسول صلى الله عليه وسلم ليسوا من أولاده صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يخلف والدا من الذكور، وإنما هم حواشيه أو أولاد بنته الطيبة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، فإنما تكلم بما يتألم به قلب المؤمن الصادق، لأن المقام ليس مقام الإرث والانتساب على القاعدة المعروفة، بل المقام مقام الارتباط التناسلي بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم، ولو من جهة بنته الطاهرة الزهراء أو الارتباط بآبائه صلى الله عليه وسلم كما تحقق في أولاد عبد المطلب ومن فوقه حسب ما حدده أهل العلم،[١] وهذه العلاقة علاقة لا تدانيها علاقة، فعلى المؤمن الوفي بحقوق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤدي لواجب الشكر إزاء نعمة هدايته صلى الله عليه وسلم وإرشاده لأمته، الهداية التي كانت وسيلة لخروج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفراغ القلبي إلى التحلي بالفضائل العلمية والعملية، أن ينظر إلى من له علاقة به صلى الله عليه وسلم بحيث يحس في إحداق نظره القلبي بنور متصل بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو أدب المسلمين جيلا بعد جيل ونسأل الله التوفيق لإدامته إلى يوم الدين.

---

(١) وعلى هذا المعنى كثير من العلماء، كما بنى عليه العباسيون أحقيتهم بالخلافة من العلويين.

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة أصحابه ثم التابعين

ومحبتهم: أن يعرف المسلم حقهم ويقتدي بهم ويحسن الثناء عليهم ويترضى عنهم، ويدافع عن مترلتهم وكرامتهم بالإمساك عما شجر بينهم والإعراض عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة القادحين لهم.

ذلك أن لكل أمة مسلمة دينا ولهم مبدأ يرجعون إليه في مهماتهم وعقائدهم وأحكامهم، وأن مرجع الأمة المحمدية هو الكتاب والسنة، والسنة منها متواترة ومنها غيرها، ومن بعد المتواتر الأحاديث المشهورة وغيرها من الصحاح والحسان، والمسلم يجب أن يقف موقف الانقياد والاعتبار أمام نصوص الكتاب والسنة المتواترة والأحاديث الصحيحة، وإلا فلا يبقى معنى للانتساب إلى المبدأ وإذا كان هنا مجال كلام في رواية حديث من الأحاديث الشريفة الضعيفة، فلا مجال لأي جدال في مقابل القرآن والسنة المتواترة وما أطبق الأكثرية على صحته أو حسنه، وإذا علمت ذلك فاعلم أنه ورد في النصوص الثناء على الموجودين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، منها قوله تعالى (**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** * آل عمران: ١١٠)، ولا شك أن المخاطب بهذا القول الجليل بالدرجة الأولى أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم، وهم الحاضرون أمام الرسول المنورون بنور لقائه المهتدون بهديه، والمقتدون به في أعماله وأحواله وأخلاقه، ومنها قوله تعالى (**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ** * الفتح: ٢٩) وفي هذه الآية الكريمة حسن الثناء عليهم بجملة صفات ونعوت عظيمة، كصحبتهم ومعيتهم له صلى الله عليه وسلم الظاهرة في الصحبة والمعية المادية والمعنوية، وكشدهم وقوة قريحتهم وبطولتهم في لقاء الكفار، وكرحمتهم وعطفهم ومواساهم بعضهم لبعض، المواساة التي بها يمتاز الصادق من غيره، ثم الثناء عليهم بملازمتهم لأفضل الطاعات المعبر عن ذلك بأهم أركانها من

الركوع والسجود لذات الباري جل شأنه، ونعتهم بأن عبادتهم لم تكن إلا ابتغاء فضل الله ورضوانه، وتميزهم بأخذهم وسام الشرف في وجوههم من سيماء القدسية المتلألأة عليها من أثر انقيادهم وسجودهم لرب العالمين.

وعقب الله سبحانه وتعالى ذلك بأنهم هم الموصوفون في الكتب السابقة المقدسة النازلة على موسى وعيسى والمحتوية على تشبيههم بزرع أخرج شطأه وفروعه وقواها واستوى على سوقه بحيث يعجب الزراع، وذلك ليتأيد بهم الدين وأهله ويغضب بهم الكفار، ثم يأتي بأنه تعالى وعد أولئك الأصحاب الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة مغفرة جسيمة وأجرا عظيما، ومنها قوله تعالى (**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** * الفتح: ١٨) الوارد في أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية، وقد حقق الله وعده بالفتح القريب ففتح عليهم مكة وما حولها، وبالمغانم الكثيرة التي أخذوها في هوازان وغيرها من المواقف الشريفة التي تبين بها المفدي بروحه عن الطالب لراحته.

ومنها قوله سبحانه وتعالى (**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** * التوبة: ١٠٠) وكل عالم منصف يعلم من هم السابقون الأولون من المهاجرين، ومن هم الأنصار، ومن هم الذين اتبعوهم بإحسان، كما يعلم أن من أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بأنه رضي الله عنهم وأنهم رضوا عنه وأنه أعد لهم جنات رفيعة الدرجات، لا شك في تحقق ما وعد به في حقهم، (**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً** * النساء: ١٢٢).

كما أنه أخبر بأنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وأن المعاملة قد جرت وتحققت، والتضحية بالأنفس والأموال وقعت وتبينت، وأن الفوز بالجنة والدرجات الرفيعة قد وقعت في مشاهد بدر الكبرى وفي أحد وفي حنين وفي

اليمامة وفي غير تلك الأقطار من الديار و (**إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ** * الواقعة: ١-٢)، فقد صدق الله ووقعت المعاملة والمبادلة، المراد بهما وقوع التضحية بالنفس والأموال، وتحققت الدرجات من الله ذو الجلال.

وكل عاقل مثقف منصف مهتم بالكتاب الكريم، النازل بلسان عربي مبين، إذا لاحظ هذه الآيات البينات، والأدلة القاطعة، والحجج الدامغة بذلك الأسلوب الواضح المعلوم، تبين أن أولئك الأصحاب الكرام الذين آمنوا واقتدوا بالرسول الكريم واهتدوا بالكتاب العظيم وخلقه الكريم هم الأمة المرحومة الخيرة المباركة بالدرجة الأولى، وهم الذين رضي الله عنهم، وهم الذين باعوا أنفسهم وآمالهم وأموالهم وأحوالهم بالجنة، بجنة الكرامة ولقاء الله تعالى.

ويعلم أن شهادة الله فوق الشهادات، وأن سعادتهم فوق السعادة، فبأي قيل وقال وبأي رواية من أي طبقة من الرجال يعارض قول الله سبحانه المتعال.

وإذا نظرنا إلى سنة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وأحاديثه الشريفة، وجدنا أنه قد بين مدلول الكتاب بتلك السنة، وأظهر مغزى تفسير الآيات الكريمة، لأنه هو الذي خول سلطة البيان وقال تعالى له (**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** * النحل: ٤٤) فنطق بأحاديث شريفة في تشريف أصحابه عموما وخصوصا، وفي تشريف أمته المرحومة الخالدة المهتدية التي لا تجتمع على ضلالة، ويمدها الله تعالى في رأس كل قرن بمن يجدد لها نور دينها وإشعاعه وتأييده.

فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**خير أمتي قرني ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم**) (قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا) الحديث[١] وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**خير الناس قرني ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه**

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا انظر القسطلاني (٩/٢٤٦-٢٤٧)، ومسلم في فضائل الأصحاب. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٩/٤١٨)

ويمينه شهادته)[١] رواهما الأربعة، وقوله صلى الله عليه وسلم (**ثم يجيء قوم...**) الحديث معناه يتسابقون للشهادة قبل طلبها ويتسارعون لليمين قبل طلبها، وهذا كناية عن عدم تورعهم.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون فيكم من صاحب رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم به ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله فيقولون نعم فيفتح لهم به**)[٢] رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم لعمر (**وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)[٣] رواه الشيخان.

وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن عبدا لحاطب جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو حاطبا فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال (**كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية**)[٤]

وعن جابر أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**لا تمس النار مسلما رآني أو رأى من رآني**)[٥] وعن بريدة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (**ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بُعِثَ قائدا ونورا لهم يوم القيامة**) رواهما الترمذي[٦]

وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إن الله لا**

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق. انظر القسطلاني ٢٤٧/٩ وانظر التاج (٢٧/٣)، مسلم في باب فضل الصحابة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٤١٩/٩)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب من استعان بالضعفاء. القسطلاني (٩٢/٥)، وكرره في علامات النبوة، وفضائل الصحابة، ومسلم في فضائل الأصحاب شرح النووي في هامش القسطلاني (٤١٧/٩)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، غزوة فتح. انظر القسطلاني (٣٨٣/٦) ومسلم في الفضائل، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٩٠/٩)

(٤) أخرجه الترمذي في السنن رقم ٣٩٥٦ طبعة القاهرة، والتاج كتاب الفضائل (٢٧٢/٣)

(٥) رواه الترمذي في سننه ٣٩٥٧ طبعة القاهرة.

(٦) رواه الترمذي في سننه رقم ٣٩٤٩ طبعة القاهرة.

يجمع أمتي) أو قال **(أمة محمد)** صلى الله عليه وسلم **(على ضلالة ويد الله مع الجماعة)**[١] هذه كلها في المناقب العامة وهناك أحاديث أخرى تثني عليهم بصورة عامة مثل قوله صلى الله عليه وسلم **(أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)**[٢] وكما روي عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال **(الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)**[٣] بله الأحاديث الواردة في مناقب العشرة المبشرة، وفي مناقب فرد فرد من الخلفاء الراشدين بخصوصهم، والسبطين، والعمين، وبعض أفراد آخرين، فأصحاب كهؤلاء يجب أن يكونوا مطيعين منقادين لأوامر الله ورسوله، ومهتدين بهدي الكتاب، ومتخلقين بأخلاق الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم، ومن هدي الكتاب أن يكون لهم مشاورة في الأمور الهامة، كنصب الخليفة، وحرب أهل الردة،

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي بهذا اللفظ وقال هذا الحديث غريب من هذا الوجه. انظر طبعة القاهرة، الحديث رقم ٢٢٥٦، والترمذي بشرح ابن العربي (١١/٩)، لكن الجزء الأول من هذا الحديث وهو **(لا يجمع الله أمتي على ضلالة)** قال الحافظ العراقي: رواه البيهقي في المدخل من حديث ابن عباس بلفظ **(لا تجتمع أمتي على ضلالة)** ولابن ماجه من حديث أنس بلفظ **(إن أمتي لا تجتمع على ضلالة)** رقم ٣٩٥٠، وروى من حديث أبي ذر، وأبي مالك الأشعري، وابن عمر، وأبي نصرة، وقدامة وفي كلها نظر وحسنه الترمذي. انظر تخريج أحاديث منهاج البيضاوي للحافظ العراقي مخطوط. وأما جملة **(يد الله مع الجماعة)** فقد رواه الترمذي عن ابن عباس، وقال: حسن رقم الحديث ٢٢٥٥. ورواه الطبراني في الكبير بلفظ **(يد الله على الجماعة)** وعلى كل فللحديث طرق.

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث منهاج البيضاوي: رواه الدرقطني في الفضائل، وابن عبد البر في العلم من طريقه من حديث جابر، وقال: هذا الإسناد لا تقوم به حجة، لأن الحارث بن غصين مجهول، ورواه عبد بن حميد في مسنده، وابن عدي في الكامل من رواية حمزة بن حمزة عن نافع عن ابن عمر بلفظ **(بأيهم أخذتم)** بدل **(بأيهم اقتديتم)** وإسناده ضعيف من أجل حمزة، فقد أتهم بالكذب، ورواه البيهقي في المدخل من حديث عمر، ومن حديث ابن عباس بنحوه من وجه آخر مرسلا، وقال: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة ولم يثبت في إسناد. ورواه البزار من رواية عبد الرحمن بن زيد العمي عن أبيه عن ابن المسيب عن ابن عمر، وقال منكر لا يصح، وقال ابن حزم مكذوب موضوع باطل، وقال البيهقي: وقد روى بعض معناه. انظر تخريج أحاديث المنهاج، مخطوط.

(٣) رواه الترمذي في سننه رقم ٣٩٥٤ طبعة القاهرة

وجمع القرآن وغيرها، وقد قال تعالى (**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** * الشورى: ٣٨) فإذا شاوروا وتقرروا أي الجميع على شيء، أو وافق عليه الأكثرية، وعملوا بذلك الشيء، فقد أطاعوا الله ورسوله في ذلك الأمر، ويكون ذلك الأمر هو الحقيق بالقبول الواجب إتباعه إلى يوم الدين.

ونتيجة تلك المقدمات أن ما درج عليه الخلفاء الراشدون وجمهور الصحابة الكرام، هو الدين المبين الواجب إتباعه، فلا مجال للوم أحد عليهم أبدا، ولا محيد إلا الالتزام لما قرروه، بل ويجب الترضي عنهم فرضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة علماء دينه

المداومين على نشره والقائمين بنصره بالمعنى الشامل للقراء والحفاظ والمحدثين والأئمة المجتهدين وباقي العلماء العاملين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

سواء كان ذلك العلم من صميم الدين كعلم قرآات القرآن الكريم وتجويدها، وعلم السنة النبوية رواية ودراية، وفقه الأحكام، أو مما يتوقف عليه فهمه كعلم اللغة، والنحو، والصرف، ووضع المفردات والمركبات، والبلاغة، وأصول الدين، وأصول الفقه، أو مما يتوقف عليه وضوح الحق في التعاريف والأدلة كعلم المنطق، وآداب البحث والمناظرة وغيرها مما هو مدون ومدروس في المدارس الدينية. ومعنى محبتهم النظر إليهم بالاحترام والإجلال، وتأييدهم في حياتهم لإنجاز مهمتهم، والدعاء لهم بعد وفاتهم ذلك لأن تلك العلوم مما يتوقف عليها فهم الدين الواجب وما يتوقف عليه الواجب واجب، وحسبك في الموضوع الآيات البينات، والأحاديث الصحاح الواردة في تشريف العلم وأهله، وذلك كله معلوم لا حاجة لنا إلى الإطالة به، وإنما المهم هنا إلفات نظر المسلمين إلى الاجتهاد والمجتهدين، وأتباعهم في أحكام الدين.

وإليكم نبذة في الموضوع، وهي أمور: تعريف الاجتهاد والمجتهد، وما يتوقف عليه الاجتهاد، ووجوب الاقتداء بالمجتهد ممن لم يبلغ درجة الاجتهاد.

فنقول: **الاجتهاد** لغة: بذل الجهد والسعي الحثيث في الأمر، وعرفا: استفراغ

ما في الوسع لفهم الأحكام الشرعية واستنباطها من الأدلة كالكتاب والسنة والإجماع. ومما يجب علمه أن الاجتهاد في أحكام الدين واجب على الكفاية، إذا كان هناك جمع ممن يتأتى منهم ذلك، وواجب عيني إذا تعين شخص له.

والدليل عليه أمور: **الأول**، أن الدين أحكام كثيرة لا تحد ولا تستقصى، فلولا الاجتهاد لتعطلت الأحكام وذلك ممتنع شرعا.

فإن قال قائل: إن الدين أحكام محدودة منصوصة بالكتاب والسنة فلا حاجة إلى الاجتهاد والمجتهد، قلنا: إن ملة خالدة مؤبدة، جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين لكافة الشعوب والقبائل، وأمة كهذه الأمة الخالدة تتطور كسائر الأمم بحسب الضروريات والحاجيات والتحسينيات، و تصادف وقائع ليست أحكامها منصوصة في الكتاب، ولا ظاهرة بسهولة منه، ولا من السنة، ووجود هذه الوقائع، ووجوب معالجتها معلوم عند كل عاقل له خبرة بالأمور، فأصبح الاجتهاد لاستنباط الأحكام غير المنصوصة فرض كفاية، إذا كان هناك جماعة يمكنهم القيام به، وفرض عين إذا انحصر العلم في واحد.

الثاني، أن أدلة الأحكام: إما من الكتاب، أو من السنة النبوية قولا أو فعلا أو تقريرا، والدليل اللفظي إذا كان قطعي الثبوت كالكتاب والسنة المتواترة، فيحتاج إلى تحقيق أن اللفظ خاص يراد به خاص، أو عام يراد به عام، أو خاص يراد به عام، أو عام يراد به الخاص، وإلى تحقيق أنه كما له منطوق فهل له مفهوم أو لا، وهل يحتج بذلك المفهوم أو لا؟ وكل ذلك يحتاج إلى الاجتهاد.

وقد يكون في ألفاظ الكتاب والسنة اشتراك لفظي، وذلك إما في المفرد كالقرء المشترك بين الحيض والطهر، وصيغة الأمر المشتركة بين الوجوب والندب، والنهي المشترك بين التحريم والكراهة، وأما في المركب كالاستثناء الواقع بعد جعل محتمل لرجوعه إلى جميعها أو إلى بعضها.

وقد يحتمل اللفظ لأن يكون حقيقة أو مجازا، والمجاز له أنواع كثيرة، وقد

يكون اللفظ مطلقا، وقد يكون مقيدا، كالرقبة في الكفارة، وقد يقع تعارض بين دليلين في الألفاظ التي يتلقى منها الأحكام، وفهم الحكم المشروع القوي يحتاج إلى مزيد علم وبصيرة لا يوجدان إلا في المجتهد، هذا كله في المتواتر وأما غيره ففيه ما سبق ومشاكل أخرى من حيث السند وغيره، وإذا كان الدليل فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد ينازع الخصم بأن ذلك الفعل من خصائصه صلى الله عليه وسلم، أو أنه يحتمل الوجوب أو الندب، وقد يعارضه فعل آخر صدر منه صلى الله عليه وسلم، أو قياس جلي، والخروج من هذه المشاكل لا يمكن من غير المجتهد.

وإذا كان الدليل تقريرا من الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك أيضا يحتمل وجوها وملابسات لا يتعين المقصود منها إلا برجال الاجتهاد.

ومن أنصف علم أن كل عربي لا يفهم كل الآيات بكافة محتملاتها ومحتوياتها ولو كان مثقفا، بل يحتاج إلى درس وعلم ومرونة. فمن هنا تتبين حاجة المسلمين إلى الاجتهاد ورجال الاجتهاد، ولذلك استمر الاجتهاد من الصدر الأول إلى قرون متتالية.

الرابع، ما دل على وجوبه من الكتاب فمنه قوله تعالى (**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** * النساء: ٨٣) فإن في الآية الشريفة إسناد العلم بخفايا الأمور ومعالجة المشاكل إلى أهل الاستنباط، وكشف الخفايا والدقائق من أولي الأمر العلماء والقادة من المسلمين. ويدخل في ذلك الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية الخفية من طيات الكتاب والسنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.

ومنه قوله تعالى (**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** * التوبة: ١٢١) ومعلوم عند أهل العلم أن التفقه مصدر باب التفعل، ويدل على الاعتماد والاكتساب بقوة وصرف الهمة إلى كشف المهمة، ويشمل ذلك فهم كل حكم من أحكام الله تعالى مأخوذ من كتاب الله أو سنة رسوله، بطريق الوضوح أو الخفاء،

منطوقا أو مفهوما، دلالة أو إشارة أو اقتضاء، وفيه الاجتهاد واستفراغ الوسع لفهم الأحكام وهو الاجتهاد، كما أن في الآية دليلا على أن التعليم والاجتهاد من فروض الكفاية، وأنه يجب أن يكون غرض المتعلم الواصل إلى مقام العلم والإفادة نشر الدين ونصره لا الاستعلاء على بني عصره وأمره.

ومنه قوله تعالى (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** * النحل: ٤٣) وفي الآية دليل على وجوب سؤال الناس أهل العلم فيما لا يعلمونه، سواء متن النصوص، أو معناها، أو ما استنبط منها لأن المشتقات في الآية مطلقة، وهذه الآية من أوجز الآيات، وفيها دليل على أن الله لم يبعث ولم يرسل امرأة ولا ملكا للدعوة العامة فإن صدرها (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ** * يوسف: ١٠٩) وإن سؤال أهل العلم واجب للاسترشاد، وإن الحكم كلما كان أخفى كان أجر السؤال أعظم وأجر الجواب أوفى، وإن الاجتهاد هو غاية ما يصل إليه العباد.

ومنه قوله تعالى (**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** * النساء: ١١٤) والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة وإتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما، أو حرمة أحدهما، أو حرمة الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضم إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان إتباع غير سبيلهم محرما كان إتباع سبيلهم واجبا، لأن ترك إتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم إتباع غير سبيلهم، ومعلوم أن سبيل المؤمنين هو الاجتهاد واستنباط الأحكام في ما لم يكن عليه نص من لدن عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، عند من يقول باستمرار الاجتهاد، أو إلى انقطاعه عند من يقول بخلافه.
فإن قيل: إن الآية الكريمة لا تدل على حجية الإجماع لأنا لا نسلم أن الجمع المعرف باللام للاستغراق والعموم، لجواز كونه للجنس، ولو سلمنا أنه للعموم، فلا نسلم أن

إضافة السبيل إليه للعموم، لجواز كون الإضافة للعهد، بأن يراد به سبيل معهود وهو الإيمان. قلنا: إن الظاهر المتبادر إلى الأذهان من استعمال الجمع المعرف، ومن إضافة ما أضيف إليه العموم، والتبادر علامة الحقيقة، فيكون خلافه مجازا محتاجا إلى القرينة المانعة عنه، والأصل عدمها، على أن حمل الجمع المعرف أو إضافة السبيل إليه على الجنس، يقتضي أن يكون مصير من خالف سبيل أي فرد من المؤمنين إلى جهنم، وذلك باطل قطعا، فظهر حملهما على العموم والاستغراق، فيكون المعنى، ومن سلك غير السبيل الذي سلكه كافة المؤمنين ﴿**نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ** * النساء: ١٥) وذلك واضح لا شبهة فيه

وخلاصة المعنى، أن سلوك سبيل عموم المؤمنين مرغوب، والانحراف عن سبيلهم كافة متوعد عليه، ومعلوم أنه لم يزل المؤمنون يجتهدون في استنباط الأحكام غير المنصوصة من لدن العصر الأول إلى ما شاء الله.

ولما كان سلوك سبيلهم خيرا والانحراف عنه شرا وجب أن يكون المراد بالمؤمنين العلماء لا الجهلاء، والعلماء العدول لا الفساق، والمتكاملين في العلم لا الناقصين، فقرر أهل البصيرة للاجتهاد أن يكون صاحبه: بالغا عاقلا، فقيه النفس أي شديد الفهم، حائزا للدرجة الوسطى لغة وعربية وأصولا وبلاغة، عالما بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة، خبيرا بمواقع الإجماع، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وشروط الخبر المتواتر والآحاد، والحديث الصحيح والحسن والضعيف. ويكفي في زماننا الرجوع إلى أئمة ذلك بملاحظة الكتب المعتمدة. ويعتبر للثقة بأحكامه أن يكون عادلا غير مبتدع داع إلى فئة معينة، لأن الدعاة متحيزون غالبا فلا يؤمن الدس منهم، وهذا هو المجتهد المطلق. وأما المجتهد المقيد فهو المقلد لإمام من الأئمة قد عرف أصول مذهبه وأحاط بها، فإذا سئل عن حادثة نظر في نصوص إمامه كنظر المجتهد في أصول الشرع، فإن لم يجد لإمامه في المسألة نصا قاس على أصوله، وخرج عليها، كبعض أصحاب الأئمة الأربعة، ولا يتعدى نصوص إمامه إلى نصوص غيره.

وهذا المجتهد المقيد قسمان: مجتهد مذهب، وهو المتبحر المذكور المتمكن من استنباط الأحكام من الكتاب والسنة لكن يتقيد في استنباطه منهما، بالتزام طريق إمامه في الاستدلال ومراعاة قواعده وشروطه، وبهذا يفارق المجتهد المطلق، فإنه لا يتقيد إلا بما رآه هو نفسه، والثاني مجتهد الفتيا (بضم الفاء) أو الفتوى (بفتحها) وهو المتبحر في مذهب إمامه المتمكن من ترجيح قول له على آخر أطلقهما إمامه، أو المتمكن من ترجيح قول أصحاب ذلك الإمام على قول آخر أطلقوهما، والأول أعلى رتبة من الثاني وهو ظاهر.

وهنا مسائل: الأولى- اختلف الأصوليون في جواز تجزؤ الاجتهاد، والصحيح الذي عليه الأكثر جواز تجزؤ الاجتهاد بأنواعه الثلاثة في فن من الفنون أو في قضية من القضايا، فيبلغ رتبة الاجتهاد في الأنكحة دون البيوع وبالعكس، فمن عرف الفرائض لم يضره جهله بعلم النحو مثلا. وكذا يجوز أن يبلغ رتبة الاجتهاد في قضية دون غيرها، ووقع لابن القاسم وغيره في مسائل معدودة خالفوا فيها الإمام مالكا رحمه الله تعالى وقيل لا يجوز تجزؤ الاجتهاد لارتباط العلوم والمسائل بعضها ببعض، لاحتمال أن يكون في ما لم يبلغ رتبة الاجتهاد فيه معارض لما بلغها فيه بخلاف من أحاط بالكل.

المسألة الثانية- اختلف الأصوليون في جواز اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في ما لا نص فيه وعدم جوازه، وعلى جوازه اختلف أيضا هل وقع منه أم لا.

أما الجواز ففيه مذاهب: الأول، الجواز وبه قال الجمهور وصححه ابن الحاجب والسبكي والقرافي. والثاني، المنع وبه قال بعض الشافعية. الثالث، له ذلك في الآراء والحروب. والرابع، الوقف. وأما الوقوع ففيه مذاهب: أحدها، وهو مختار الآمدي وابن الحاجب وابن السبكي أنه وقع منه الاجتهاد.

المسألة الثالثة- هي أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد فالصواب أنه لا يخطئ تتريها لمنصب النبوة عن الخطأ في الاجتهاد على ما هو الحق والمختار ومذهب المحققين من الأصوليين.

المسألة الرابعة- في جواز الاجتهاد من غيره في عصره صلى الله عليه وسلم، فذهب الأكثرون إلى جوازه، فمنهم من جوزه مطلقا، ومنهم من جوزه للغائب مطلقا، ومنهم من جوزه مطلقا إذا لم يوجد منه منع، ومنهم من جوزه للغائب إلى مسافة يصعب الرجوع منها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وفي وقوعه مذاهب: أوله أنه واقع في حضوره وغيبته وهو الصحيح، والأحاديث الواردة في جوازه ووقوعه كثيرة جدا يفيد مجموعها التواتر المعنوي المفيد للقطع، فمن الأحاديث الواردة في وقوعه بحضرته صلى الله عليه وسلم ما رواه البخاري عن أبي قتادة الأنصاري أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلا من المشركين قد علا رجلا من المسلمين، فاستدرت له حتى أتيته من ورائه، فضربته على حبل عاتقه ضربة قطعت الدرع، قال: وأقبل علي فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت فأدركه الموت، فأرسلني فلحقت عمر بن الخطاب فقلت له: ما بال الناس؟ قال: أمر الله عز وجل، ثم إن الناس قد رجعوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**من قتل قتيلا عليه بينة فله سلبه**)، قال أبو قتادة: فقمت فقلت من يشهد لي ثم جلست، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فقمت فقلت من يشهد لي إلى المرة الثالثة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**ما لك يا أبا قتادة**) فأخبرته فقال رجل من القوم صدق يا رسول الله وسلب ذلك القتيل عندي فأرضه مني فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه (لا ها الله ذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله وعن رسوله فيعطيك سلبه) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**صَدَقَ فَأَعْطِهِ**)، قال أَبُوقَتَادَةَ فَأَعْطَانِيهِ[١] الحديث.. ومعنى تصديقه لأبي بكر تصويبه للحكم الصادر منه بحضرته صلى الله عليه وسلم ومعنى (**لا ها الله ذا**) الهاء مكان الواو ومعناه لا والله لا يكون ذا وفي رواية لا ها الله إذا لا يعمد.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي وفيه بدل (**صَدَقَ فَأَعْطِهِ**) فقام رسول الله فأداه إلي. انظر القسطلاني (٦/٤٠٦-٤٠٧)

ومنها ما أخرجه البخاري أيضا من قوله صلى الله عليه وسلم (**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**)[١] فصلى بعضهم في الطريق حين دخل عليه الوقت وبعضهم في بني قريظة، فنظر بعضهم إلى أن مراده عليه الصلاة والسلام السرعة، ولا حاجة في تأخير الوقت، وبعضهم راعى اللفظ، و لم يعنف واحدا منهم. ومنها ما أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني نعليه وقال (**اذهب بنعلي هاتين فمن لقيته من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة**) فكان أول من لقيت عمر فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة، فقلت: هاتان نعلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني بهما من لقيته يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشرته بالجنة، فضرب بيده بين ثديي فخررت لاِسْتِي، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجهشت بالبكاء، وركبني عمر، وإذا هو على أثري، فقلت: لقيت عمر وأخبرته بالذي بعثتني به، فضرب بين ثديي ضربة خررت لإستي، وقال: ارجع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**يا عمر ما حملك على ما صنعت**) فقال: يا رسول الله أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه بشره بالجنة؟ قال (**نعم**) قال: فلا تفعل فإني أخاف أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون، فقال صلى الله عليه وسلم (**فخلهم**)[٢] فإقراره صلى الله عليه وسلم لعمر دليل على تصويب رأيه واجتهاده، إذ لا يقر على باطل.

ومنها ما أخرجه أبو داود في باب الرجل يتطوع في مكانه الذي صلى فيه المكتوبة عن أبي رمثة قال: صليت مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقد كان معه رجل قد شهد التكبيرة الأولى من الصلاة، فصلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، فقام الرجل الذي أدرك التكبيرة الأولى يشفع، فذهب عمر إليه: فأخذ بمنكبيه

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي عن ابن عمر. انظر القسطلاني (٣٢٨/٦)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٠١/١ -٣٠٦)

فهزه ثم قال: إجلس فإنه لم يهلك أهل الكتاب إلا أنه لم يكن بين صلواتهم فصل فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره وقال (**أصاب الله بك يا ابن الخطاب**)[١]

ومنها ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها دخل علي قائف والنبي صلى الله عليه وسلم شاهد، وأسامة بن زيد وأبوه زيد مضطجعان، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأعجبه، فقد سر النبي صلى الله عليه وسلم حتى برقت أسارير جبهته من صحة هذا القياس[٢] وموافقته لشرع، وكان زيد أبيض وابنه أسامة أسود، فالحق هذا القائف الفرع بنظيره وأصله وألغى وصف السواد والبياض الذي لا تأثير له في الحكم، ومن ذلك موافقات عمر رضي الله عنه الكثيرة. فمنها ما رواه الشيخان عن أنس وابن عمر، أن عمر قال وافقني ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت (**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** * البقرة: ١٢٥) وقلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة، فقلت: عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك[٣] إلى آخر موافقات عمر الكثيرة التي خصها بعض العلماء بالتأليف وبعضهم أنهاها إلى خمسة عشر. وأخرج أحمد وأبو حاتم والترمذي وصححه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**)[٤] وفي رواية (**إن الله جعل الحق على قلب عمر ولسان عمر**) فهذا دليل على أنه مجتهد مصيب في اجتهاده، إذ لا معنى لجعل الحق على لسان عمر وقلبه، إلا بالاجتهاد إذ لا سبيل للوحي، ولم يبق إلا الاجتهاد. وأخرج الشيخان عن

---

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة (٢٣١/١)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفرائض، انظر القسطلاني (٤٤٦/٩-٤٤٧)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب ما جاء في القبلة. انظر القسطلاني (٤١٧/١) وكرره في (١٣/٧-١٤)

(٤) انظر الترمذي رقم ٣٦٨٣ طبعة حمص وعند ابن ماجه بلفظ (**إن الله وضع الحق على لسان عمر**) رقم ١٠٨ (٤٠/١) وانظر التاج في فضائل عمر (٢٧٩/٣)

أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر**)[١] قال التوربشتي: المحدث في كلامهم هو الرجل الصادق الظن، وهو في الحقيقة من ألقى في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذي حدث، فدل الحديث على أن عمر له اجتهاد، وأنه مصيب فيه.

ومما وقع فيه اجتهاد الصحابة في زمنه في غيبتهم عنه، وهو حجة لقول القائل بجوازه ووقوعه في غيبته ما روى البخاري بعضه معلقا، ورواه بتمامه موصولا أبو داود والحاكم عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن أغتسل فأهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (**يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب**) فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت إني سمعت الله تعالى يقول (**وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** * النساء: ٢٩) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يقل شيئا[٢] وفي رواية لم يعنفه على اجتهاده فكان ذلك تقريرا منه صلى الله عليه وسلم له على اجتهاده.

ومن ذلك أيضا ما رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن علي بن أبي طالب قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قاضيا، فقلت: يا رسول الله ترسلني، وأنا حديث السن، ولا علم لي بالقضاء، فقال (**إن الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، إذا تقاضى إليك رجلان، فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء**) قال فما شككت في قضاء بعد.[٣] قال في المرقاة ولا شك إنه رضي الله تعالى عنه حين بعثه قاضيا على اليمن، كان عالما بالكتاب والسنة كمعاذ

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل، انظر القسطلاني (١٥/٥)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التيمم. انظر القسطلاني (٣٧٨/١) ومسند الإمام أحمد (٤٨١/٣)، وسنن أبي داود في كتاب الطهارة (٨١/١)

(٣) رواه الترمذي رقم ١٣٣١ طبعة حمص، ورواه ابن ماجه في سننه رقم ٢٣١٠ (ج: ٧٧٤/٢) وأبو داود في سننه (٢٧٩/٢)

رضي الله عنه، وقوله: وأنا حديث السن، اعتذار من استعمال الفكر واجتهاد الرأي من قلة تجاربه، ولذلك، أجابه بقوله **سيهدي قلبك**، أي يرشدك إلى طريق استنباط القياس بالرأي الذي محله قلبك، فينشرح صدرك وثبت لسانك فلا تقض إلا بالحق.

ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في المناقب عن زيد بن أرقم قال: أتى علي بثلاثة نفر وقعوا على جارية في طهر واحد، فولدت ولدا فادعوه، فقال علي لأحدهم: (تطيب به نفسا لهذا) قال لا. قال أراكم شركاء متشاكسين، إني مقرع بينكم فمن أجابته القرعة، أغرمته ثلثي القيمة وألزمته الولد، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أجد فيها إلا ما قال علي.

وفيه في المناقب أيضا عن جميل بن عبد الله بن يزيد المدني قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم قضاء قضى به علي فأعجبه وقال (**الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت**). وفيه في المناقب أيضا عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى اليمن فوجد أربعة وقعوا في حفرة حفرت ليصطاد فيها الأسد سقط أولا رجل فتعلق بآخر وتعلق الآخر بآخر حتى تساقط أربعة فجرحهم الأسد، وماتوا من جراحاته، فتنازع أولياؤهم حتى كادوا يقتتلون، فقال علي: أنا أقضي بينكم فإن رضيتم فهو القضاء، وإلا حجزت بعضكم عن بعض، حتى تأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقض بينكم، أجمعوا من القبائل الذين حفروا البئر ربع الدية، وثلثها، ونصفها، ودية كاملة: فللأول ربع الدية لأنه أهلك من فوقه، وللذي يليه ثلثها، لأنه أهلك من فوقه وللثالث النصف، لأنه أهلك من فوقه، وللرابع الدية كاملة. فأبوا أن يرضوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقوه عند مقام إبراهيم، فقصوا عليه القصة، فقال أنا أقض بينكم واحتبى ببرده فقال رجل من القوم: إن عليا قضى بيننا فلما قصوا عليه القصة أجازه صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي والدارمي عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له (**كيف تقضي**) قال أقضي

بكتاب الله، قال (**فإن لم تجد**) قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال (**فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله**) قال أجتهد برأيي ولا آلو. فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: (**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه الله**)[١] وتكلم الجوزقاني في هذا الحديث وقال إنه باطل، رواه جماعة من شعبة وسألت من لقيته، من أهل العلم بالنقل عنه فلم أجد له طريقا غير هذا، والحرث بن عمرو هذا مجهول، وأصحاب معاذ من أهل حمص لا يعرفون، لأن الحديث رواه شعبة عن أبي عون عن الحرث بن عمرو بن أخي المغيرة بن شعبة عن أناس من أهل حمص، أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد... الحديث. ومثل هذا الإسناد لا يعتمد عليه في أصل من أصول الشريعة.

وقد تكلم عليه ابن القيم في أعلام الموقعين عن رب العالمين، بما فيه كفاية فقال: هذا الحديث وإن كان عن غير مسمين، فهم أصحاب معاذ، فلا يضره ذلك لأنه يدل على شهرة الحديث: وإن الذي حدث به الحرث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا عن واحد منهم، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون واحد منهم لو سمي، كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى؟ ولا يعرف في أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح، بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم، لا يشك أحد من أهل العلم بالنقل في ذلك، كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث؟ وقد قال بعض أئمة الحديث أذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد يدك عليه اهــ. قال أبو بكر الخطيب: وقد قيل إن عبادة بن السني رواه عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ وهذا إسناد متصل ورجاله معروفون بالثقة وله شواهد موقوفة عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وقد أخرجها البيهقي في سننه عقب تخريجه لهذا الحديث تقوية له كذا في مرقاة الصعود، على أن أهل العلم قد نقلوه واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم، وفي تدريب

---

(١) رواه الترمذي رقم ١٣٢٧ طبعة حمص، وأبو داود في كتاب القضاء السنن (٢٧٢/٢)

الراوي للسيوطي يحكم للحديث بالصحة إذا تلقاه الناس بالقبول، وإن لم يكن له إسناد صحيح، وقال أبو الحسن الحضار في تقريب المدارك على موطإ مالك: قد يعلم الفقيه صحة الحديث إذا لم يكن في سنده كذاب بموافقة آية من كتاب الله أو بعض أصول الشريعة فيحمله ذلك على قبوله والعمل به.

وقال أبو إسحاق الأسفراني: تعرف صحة الحديث إذا اشتهر عند أئمة الحديث من غير نكير منهم ونحوه، لابن فورك، وزاد إلى أن قال وأيضا حديث معاذ هذا أخرجه أبو داود في سننه كما مر ولم يتكلم فيه بضعف، وقد قال أنه ذكر في كتابه (**الصحيح وما يشبهه ويقاربه**) وما كان من حديثه فيه وهن شديد يبينه، وإذا لم يبينه فهو صالح للاحتجاج به وبعضه أصح من بعض، وما سكت أبو داود عليه، فهو حسن عند ابن الصلاح وقال: إن ذلك لا يلزم بل قد يكون صحيحا عنده هو، وإن لم يبلغ الصحة عند غيره، فالحكم له بالحسن لا بالصحة تحكم اهـــ. وله من الشواهد الموصلة له إلى رتبة الصحة شيء لا ينتهي، فمنها ما مر من اجتهادات الصحابة بحضرته صلى الله عليه وسلم وإمضائه لذلك، ومنها غيرها مما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وجوب الإجتهاد على من كانت له أهليته

وإذ قد علمت ما تلونا عليك، فاعلم أنه قال القرافي في التنقيح، مذهب مالك وجمهور العلماء رضي الله عنهم وجوب الاجتهاد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحكمه الوجوب الكفائي، وقد يتعين، وذلك لقوله تعالى (**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** * التغابن: ١٦)[١] أي غاية جهدكم، ومن التقوى العمل على البصيرة فيه ومعرفة دليله، وذلك متعين في من جاد حفظه، وحسن إدراكه، وطابت سجيته وسريرته، ومن لا، فلا. وخلاصته إن من حاز على الشروط السابقة، وجب عليه الاجتهاد وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بحصول الأجر للمجتهد أصاب أو أخطأ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام. انظر القسطلاني (٣٤٣/١٠) ومسلم في كتاب الأقضية عن عمرو بن العاص. شرح النووي في هامش القسطلاني (٢٦٩/٧)، والترمذي السنن رقم ١٣٢٦ طبعة حمص والنسائي عن أبي هريرة في كتاب آداب القضاء (٢٢٣/٨-٢٢٤) وابن ماجه في كتاب الأحكام رقم ٢٣١٤. وأبو داود السنن (٢٦٨/٢).

فقد روى الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد**) قال الخطابي: إنما يؤجر المخطئ على اجتهاده في طلب الحق، لأن اجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ، بل يوضع عنه الإثم فقط. وهذا في من كان جامعا لآلة الاجتهاد عارفا بالأصول عالما بوجوه القياس. فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف، ولا يعذر بالخطأ بل يخاف عليه الوزر. ويدل عليه ما رواه الأربعة والحاكم عن بريدة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**)[١]

ويدل على وجوب الاجتهاد قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** * النساء: ٥٩) فإن معنى إطاعة الله تعالى العمل بنصوص كتابه، وإطاعة الرسول العمل بنصوص كلامه، وإطاعة أولي الأمر إذا كانوا من الأمراء للمسلمين العمل بأوامرهم ونواهيهم الصادرة إذا كانت موافقة للكتاب والسنة وإذا كان المراد بهم الأئمة والعلماء فالعمل بما وجهوه إلينا من نصوص الكتاب والسنة، وأحكامهم الاجتهادية. ومعنى الرد إلى الله وإلى الرسول عند التنازع استعمال الرأي من أصحاب العلوم والإدراكات في قياس محل النزاع على ما علم من الدين، والأخذ بالأشباه والنظائر، كما جرت عليه المسلمون من السابق إلى اللاحق، فإن اجتهادات الخلفاء الراشدين وعلماء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين، قد وفت بأحكام الإسلام للعالمين، فنوروا واستناروا، وأفادوا وأجادوا، وجعلوا المسلمين في أنوار تلمع بين أيديهم وأيمانهم، واطمأنت القلوب واستقرت النفوس الطاهرة المستضيئة بأنوار

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأقضية (٢/٢٦٨) والترمذي في السنن رقم ١٣٢٢ طبعة حمص

الإسلام والدين، وذلك مصداق قوله سبحانه وتعالى (**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** * يوسف: ١٠٨)

وجوب التقليد على من لم تكن له رتبة الإجتهاد

والتقليد وهو الأخذ بقول إمام من أئمة الدين بدون معرفة دليله استقلالا، وهذا واجب على العامي للعالم بدليل الكتاب والسنة والإجماع من أهل القرون الثلاثة المشهود لهم من الصادق المصدوق بالخيرية، وإجماع من بعدهم إلا ما شذ من شواذ الناس.

فمن الكتاب قوله سبحانه وتعالى (**فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** * التوبة: ١٢٢) أمر الله سبحانه وتعالى بالتفقه في الدين، وهو العلم الراسخ المفيد للمسلمين في إلقاء النصوص وتفسيرها، وتفهيم المستنبطات وكفاية المسلمين بها وبإنذار المتفقهين الناس الذين يرجعون إليهم، أي وتبشيرهم، ولكن اقتصر على الإنذار، لأنه على مغبة المعاصي ودفع المفسدة أهم من جلب المنفعة، كما ترجى بعد الأمرين من المسلمين أن يحذروا من عقابه سبحانه وتعالى وكفى به زاجرا عن المخالفة للمجتهدين وداعيا لهم إلى إطاعتهم لمن كان له معرفة بأسلوب الكتاب المبين.

ومنه قوله سبحانه (**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** * النساء: ٥٩) فإن أولي الأمر هم الأئمة الأعلام، على أكثر أقوال المفسرين وإطاعتهم وإتباعهم في ما يلقونه إليهم من نصوص الكلام ومن مستنبطات الأحكام.

ومنه قوله سبحانه (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** * النحل: ٤٣) فإن الآية بظاهرها يشمل سؤال الجاهل للعالم من متن الذكر إلى معناه ومفهومه ومستنبطاته وكل ما يستفاد منه إلى يوم الدين، لأن الأمر المقيد بالعلة يتكرر بتكررها كما لا يخفى على العاقلين.

ومن السنة السنية كثيرة فمنها قوله صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن ماجه وأحمد وأبو داود والترمذي -إلا أن في رواية أحمد وأبي داود (**صلى بنا**) وليس في

ابن ماجه والترمذي لفظ (**صلى بنا**)- بسند صحيح عن العرباض بن سارية قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله وعظتنا موعظة مودع، فاعهد إلينا بعهد، فقال: (**عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدا حبشيا وسترون من بعدي اختلافا شديدا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**)[١] وفي رواية عنه قال وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع، فما تعهد إلينا. قال (**قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن عبدا حبشيا فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد**)[٢]

والمراد بالخلفاء الراشدين قيل الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، لقوله (**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**)[٣] وقد انتهت بخلافة علي كرم الله وجهه والأشهر الستة التي مكثها الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، لأنهم أفضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وقيل هم ومن على سيرتهم من أئمة الإسلام المجتهدين في الأحكام، فإنهم خلفاء الرسول في إحياء الحق، وإرشاد الخلق، وإعلاء الدين، وكلمة الإسلام.

ووصف الراشدين بالمهديين، لأنه إذا لم يكن مهتديا في نفسه، لم يصلح أن يكون هاديا لغيره، لأنه يوقع الخلق في الضلالة من حيث لا يشعر، وذكر سنتهم في

([١]) رواه الترمذي في سننه رقم الحديث ٢٦٧٨ طبعة حمص وابن ماجه في سننه رقم ٤٢ (ج: ١/١٥-١٦) وأبو داود في سننه (٥٠٦/٢)

([٢]) أخرجه ابن ماجه في سننه رقم ٢٣ (ج: ١٦/١)

([٣]) رواه الترمذي بلفظ (**الخلافة في أمتي ثلاثون سنة**) السنن رقم ٢٢٢٧ طبعة حمص. ورواه أبو داود بلفظ (**خلافة النبوة ثلاثون سنة**) السنن (٥١٥/٢)

مقابل سنته لأنه علم أنهم لا يخطئون فيما يستخرجون من سنته، أو أن بعضها ما اشتهر إلا في زمانهم. وقد علمت أن سنة الخلفاء الراشدين، هي المشاورة في مهمات الأمور، والعمل بما انعقد عليه أهل الشورى والاقتداء بنصوص الكتاب والسنة في ما وجدوها منها، والاجتهاد واستنباط الأحكام في ما لم يكن فيه نص. وقد سمعت منا سابقا مواد اجتهاد الخلفاء وغيرهم واقتداء المسلمين بهم. فالاجتهاد اجتهاد من الأئمة العظام، والاقتداء تقليد لهم وإتباع والتزام وعمل بالأحكام، ومضت على ذلك قرون الإسلام، وعقب الخلفاء الراشدين دور التابعين الأعلام والمجتهدين العظام الذين ملأوا الأقطار من مستنبطات الأحكام وتقرير قواعد تكفي لحفظ نظام الإسلام.

والمراد بالمحدثات في الحديث الشريف ما ليس له أصل في الدين. وأما الأمور الموافقة لأصول الدين فغير داخلة فيها وإن أحدثت بعده صلى الله عليه وسلم، ويدل على هذا إضافة السنة إلى الخلفاء، ومعلوم أن في سنتهم ما هو محدث بعده صلى الله عليه وسلم كجمع المصحف وغيره وقد سمى صلى الله عليه وسلم جميع أمورهم سنة، ولذا قال النووي: قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث (**كل بدعة ضلالة**)[١] عام مخصوص. قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في آخر كتاب القواعد: البدعة إما واجبة كتعلم النحو لفهم كلام الله تعالى ورسوله، وكتدوين أصول الفقه، والكلام في الجرح والتعديل، وأما محرمة كمذهب الجبرية، والقدرية، والمرجئة، والمجسمة، ولكن الرد على هؤلاء من البدع الواجبة، لأن حفظ الشريعة من هذه البدع فرض كفاية، وأما مندوبة كأحداث الربط والمدارس، وكل إحسان لم يعهد في الصدر الأول، وكالتراويح بالجماعة العامة. وأما مكروهة كزخرفة المساجد، وتزويق المصاحف عند الشافعية، وأما عند الحنفية فمباح. وأما مباحة كتوسع في لذائذ المآكل والمشارب والمساكن وتوسيع الأكمام، وقد اختلف في كراهة بعض ذلك.

قال الشافعي رضي الله عنه ما أحدث مما يخالف الكتاب، والسنة، أو الأثر، أو

---

(١) سبق تخريجه

الإجماع، فهو ضلالة، وما أحدث من الخير مما لا يخالف شيئا من ذلك فليس بمذموم، وقد قال عمر رضي الله عنه في قيام رمضان (نعمت البدعة)

وأنت قد علمت ما ألقيناه عليك، وأقول: إن الله سبحانه أعلن في آيات كثيرة من كتابه الكريم، أن الخطاب مع أهل العقل، وأن الإرشاد لا ينفع إلا (**لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** * ق: ٣٧) وإن العقل يهتدى بنور الآيات والسنة النبوية إلى كل خير يستفاد ويستنبط منهما، ويحذر عن كل شر وضلالة تكون في طرف النقيض والمخالفة والمنافرة مع الإسلام.

وعلى ضوء هذا تعلم أن كل ما يتوقف عليه بقاء كيان الإسلام وإعلاء كلمة الله فهو من الواجبات وإن كل ما يخدم ذلك و لم يكن من المهمات فهو من المندوبات وكل ما يضاد ذلك ويناقض محتواه، فهو من المحرمات، وكل ما لا يناسبه و لم يكن ينافره، فهو من المكروهات، وكل ما بين الأمرين، فهو من المباحات. وإذا شاقك أحد من المسلمين وادعى خلاف ذلك فقل له: إذا يكون تأليف أستاذك وجمعه لفتاواه ونشر رسائله في العالم وبث الأمور التي لم تكن في عهد الرسول بدعة وضلالة، فأولى بك أن تترك أنت أولا ما تستمر عليه وترجع إليه، وبعد ذلك تهدينا إلى ما تميل إليه.

ونرجو من إخواننا وسادتنا وأبنائنا أن ينصفوا ويعتدلوا ويرجعوا إلى أعمال الصحابة في أسفارهم وفي غياب الرسول، وفي أعمال الخلفاء الراشدين بعده، وفي ما استمر عليه أعلام الأئمة والعلماء، وأن يقتدوا بجمهرتهم، فالإنسان من حقه أن لا يعدو عن حقائق ثابتة لا ينكرها المؤمن العالم المعتدل المنصف: أولا إتباع القرآن الكريم، ثانيا سنة الرسول العظيم، ثالثا التزام إجماع المسلمين، رابعا أن لم يجد الإجماع فالاقتداء بالأكثرية الساحقة من المسلمين، فإن الدين واضح مستبين ولا غموض فيه، ويرشدك إلى هذا قوله تعالى (**اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا** * آل عمران: ١٠٣) وقوله صلى الله عليه وسلم (**لا تجتمع أمتي على ضلالة**)[١] نسأل الله

---

(١) سبق تخريجه في ص ١٥٥.

سبحانه وتعالى أن يشملنا برحمته، ويفيض علينا من نعمته، وأن يرزقنا الاستقامة على إتباع دينه وشريعته برحمته إنه أرحم الراحمين.

محبة أمته

ومن محبته صلى الله عليه وسلم محبة أمته، والنصيحة لهم، وإعانتهم، وخدمتهم بقدر المستطاع الأهم فالأهم، لا سيما تأييد قادة الأمة وأعيانها المختصين بمزيد النفع لحوزة المسلمين، ولا سيما الأعيان المختصين بالفضائل العلمية، والأنوار البهية التي تبدو آثارها عليهم، من أتباع الكتاب والسنة السنية، وفوائدهم للأمة المحمدية، ودعوتها إلى ترك السيئات، وفعل الحسنات، ورفع آثار الشقاق والنفاق، وتوجيهها إلى محاسن الآداب والأخلاق. وقد عرفوا من سالف الزمان (بالأولياء) وقد جاهدوا في الله واجتهدوا ونصحوا وأرشدوا، وهم قوم لا يشقى جليسهم، ويسعد أنيسهم، وتظهر آثار صحبتهم مع محبتهم في كل من جاورهم، وأخذ الأدب منهم، بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل، والاستقامة على الكتاب وهدي سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، وأولئك هم الصادقون المقصودون في قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** * التوبة ١١٩)

فإن قال قائل: لا مزية لقوم من الأمة ولا اختصاص، فالمؤمنون كلهم مؤمنون والناس ناس فأين هذا المقام والاختصاص؟

قلنا: حقا إن المؤمنين كلهم مؤمنون ولكنك إن أنصفت علمت أن المؤمنين وإن كانوا كلهم أصحاب الاعتقاد والعمل الصالح والتقوى ولكنهم مختلفون في درجاته ولذلك قال سبحانه وتعالى (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** * الحجرات: ١٣) فإنه لو كان التقوى على درجة واحدة، ما كان يأتي في القرآن الكريم بصيغة التفضيل، وكما أنهم اختلفوا في التقوى، اختلفوا في الأعمال قال تعالى (**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** * التوبة: ١٠٢) وقال (**لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ** * النساء: ٩٥) وقال تعالى (**لاَ يَسْتَوِي**

مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا * الحديد: ١٠) إلى آيات أخرى كثيرة. فإنها تعلن على رؤوس الأشهاد أن بين المؤمنين فروقا كثيرة في قوة الإيمان واستقامة الأعمال، وحسن الأخلاق والأحوال.

فالأمر الواضح الجلي، هو أن المؤمنين كلهم مؤمنون ومن أفراد أمة الإجابة لسيد المرسلين، ولكن هناك تفاوتا كثيرا، ولذلك يقول تعالى (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ** * الأحزاب: ٢٣) ويقول (**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** * الزمر: ٣٣) ويميز المستقيمين بميزات عالية فيقول (**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** * فصلت: ٣٠-٣١) أي أنهم تنزل عليهم ملائكة الرحمة لتطمئن قلوبهم بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأنهم أولياؤهم وأنصارهم وأحباؤهم، نتيجة استقامة أولئك الناس على الإيمان. وقرر الله سبحانه أن من المؤمنين أولياء لله، وقال (**إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ** * الأنفال: ٣٤) فجعلهم منحصرين في المتقين وجعل التقوى ميزة وشعارا لهم.

وينبغي هنا أن نعلم ما هي التقوى وما المراد بالمتقين؟ ومعلوم أن التقوى من الوقاية: وهو الحذر والخشية وفرط الصيانة، ويدل على ذلك آيات، قال تعالى (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ** * النساء: ١) أي اخشوه، وقال تعالى (**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ** * الشعراء: ١٠٦) يعني ألا تخشون الله، وكذلك قال سادتنا: هود، وصالح، ولوط، وشعيب لقومهم، وجاء في القرآن الكريم قول إبراهيم عليه السلام لقومه (**وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ** * العنكبوت: ١٦) يعني اخشوه وكذا قوله تعالى (**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** * آل عمران: ١٠٢) وقوله تعالى (**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا** * البقرة: ٤٨) وحقيقة التقوى وإن كانت ما ذكرنا، إلا أنها جاءت في القرآن بمعنى الإيمان كقوله تعالى (**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى** * الفتح: ٢٦) أي التوحيد

والإيمان، وقوله تعالى (**أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى** * الحجرات: ٣) أي للإيمان، وجاءت بمعنى الطاعة كقوله تعالى (**أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ** * النحل: ٢) أي فأطيعون، وفيها (**أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ** * النحل: ٥٢) أي تطيعون، (**وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** * المؤمنون: ٥٢) أي فأطيعون، وجاءت بمعنى ترك المعصية، كقوله تعالى (**وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ** * البقرة: ١٨٩) أي فلا تعصوه، وجاءت بمعنى التوبة، كقوله تعالى (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا** * المائدة: ٦٥) أي آمنوا وتابوا، وجاءت بمعنى الإخلاص، كقوله تعالى في سورة الحج (**فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** * الحج: ٣٢) أي أن تعظيم شعائرها لله ناتج عن الإخلاص، وكذا قوله تعالى (**وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** * البقرة: ٤١) أي فاخلصوا لي.

وحاصل الكلام أن صفوة التقوى الحذر والوقاية عما يخالف رضاء رب العالمين، وذلك بالتقوى والحذر عن الكفر حتى يكون المتقي من المؤمنين، والوقاية عن فعل المحرمات وترك الواجبات، ليكون مواطنا عادلا من المؤمنين، فتليق بأن يدخل في الذين وصفهم الله تعالى بأنهم شهداء على الناس يوم الدين، والوقاية عن الانهماك في حب الدنيا والدنايا، لأن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، وبذلك نتعلق بذاته وصفاته في حب الله رب العالمين، وبذلك ظهر أن ملاك التقوى ثلاث: تقوى عن الكفر، وتقوى عن المخالفات، وتقوى عن الدنايا والشهوات.

ومن هنا يتبين معنى التقوى ويظهر قول ابن عباس رضي الله عنه: إن المتقين هم الذين يحذرون من الله العقوبة في ترك ما يميل الهوى إليه، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى قالوا إن أصحاب الصفائر لا يدخلون في المتقين لأنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (**لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا عما به البأس**)[١]

([١]) رواه الترمذي في صفة القيامة عن عطية السعدي بروايتين رقم الحديث ٢٤٥٣، ورواه ابن ماجه في الزهد عن عطية أيضا بلفظ (**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين**) رقم الحديث ٤٢١٥

وإذا علمت انحصار الأولياء في المتقين، وأن المتقين هم الموصوفون بالأوصاف المذكورة، علمت أن أولياء الله قوم من المؤمنين قائمون على قدم العبودية الخالصة لله، وأنهم هم الذين قال سبحانه وتعالى في حقهم (**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** * يونس:٦٢) وهم الذين جعلهم الله تعالى في كنف حمايته ورعايته يحبهم ويحبونه، رضاهم في رضاه، وهواهم تابع لدينه وهداه، فيعادي من عاداهم، ويوالي من والاهم، وعليه ما ورد من حديث البخاري الصحيح، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قال (**من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**)[١]

وزاد عبد الواحد بن ميمون عن عروة عن عائشة عند أحمد والبيهقي في الزهد (**وفؤاده الذي يعقل به ولسانه الذي يتكلم به**)[٢] وفي حديث أنس (**ومن أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا**) وهو مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته، حتى كأنه سبحانه يترل نفسه من عبده مترلة الحواس التي يستعين بها.

وهذا الحديث الشريف القدسي فسره العلماء بأن العبد يتقرب إلى ربه بمزيد النوافل، حيث أنها ما أوجبها الله عليه، ولكنه يريد التقرب منه تعالى بمزيد طاعته، حتى تحصل رابطة لطف وعناية خاصة إلهية بالنسبة إليه، وعند ذلك لا يسمع إلا ذكره ولا يلتذ إلا بتلاوة كلامه، وقراءة كتابه، ولا يأنس إلا بمناجاته، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوته، ولا يمد يده إلا في ما فيه رضاه، ورجله كذلك. ولما حصلت

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب التواضع. انظر القسطلاني (٢٨٩/٩-٢٩٠)

(٢) هذه الزيادة أخرجها الطبراني وأبويعلى وأبونعيم، انظر شرح الإتحاف السنية بالأحاديث القدسية ص ١٦٦

هذه العلاقة باللطف دخل العبد في حظيرة القدس، فصار بحيث كل من مد يد الارتباط إليه أمده الله بإحسانه، وكل من مد يد العداء إليه قطع الله يده.

فانظر أيها المؤمن المثقف المنصف أن الأحكام التكلفية العامة تعم كل مكلف، وبأدائها يكونون ناجين داخلين في جنات النعيم، وأن فوق تلك الدرجة درجات يختصها برحمته من تجرد عن العلاقات المباينة لكمال العبودية، وتزود بعلاقات الأنس بحضرة القدس، فيترقون إلى حظيرة الاختصاص، والله ذو الفضل العظيم، فثبت من هذه الأدلة الجلية من الكتاب والحديث القدسي أن للمؤمنين درجات، مع تحقق القدر المشترك بينهم.

ولذلك يشهد عليه الصلاة والسلام بخيرية القرون الثلاثة قرن الصحابة فالتابعين فتابع التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وتنتهي شهادته هنالك، ولكنه يعلن (**إن مثل أمته مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره**)[١] حتى يعلم أن باب الرحمة مفتوح وكل من أراد الدخول فيه على أساس عمله بما أتى به الرسول الأكرم فلا مانع من دخوله والله الموفق.

وكشف سر ذلك هو أن الله سبحانه قد أعلن أنه غني عن العالمين، وأنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، أي ليعرفوه فيعبدوه لتوقف العبادة على المعرفة. ومنذ خلق الإنس والجن ما تركهم مهملين، فجعل من رحمته رسالته وسيلة المعرفة والعبادة والوصول إليه، كما قال (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ** * فاطر: ٢٤) وقال (**لِئَلاَ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** * النساء: ١٦٥) وقال (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** * الإسراء: ١٥) وقال (**ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى** * المؤمنون: ٤٤) أي متعاقبين واحدا بعد واحد ووترا بعد وتر، والمقصود التتابع والتعاقب فيهم.

---

(١) ذكره النووي في الفتاوى من رواية أبي يعلى وضعفه، وقال الزركشي: هذا عجب فإن الترمذي أخرجه عن قتيبة بن حماد... قال في الأحاديث المشتهرة، مخطوط وذكره الحافظ الهيثمي وقال: حديث حسن له طرق. مجمع الزوائد (١٩٧/٢-١٩٨)

وأما كيفية البعث والإرسال هو أنه اصطفى بفضله ورحمته الواسعة وموهبته المطلقة عبادا ممتازين لحمل رسالته (**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** * الأنعام: ١٢٤) فجعلهم مظاهر للفيوضات الربانية ومهابط للوحي الإلهي وموارد للأنوار والبركات، حتى ختمهم بحضرة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين، فكانوا حلقة الارتباط بين المعبود والعباد يستفيدون ويفيدون، يسترشدون ويرشدون ويستفيضون من أنوار القدس ويفيضون، فكان صدر الرسول مشروحا بأنوار الله ولسانه وجوارحه وحواسه، بل ذرات وجوده منورة بالمواهب القدسية، وصار ينبوعا للخيرات اعتقادا وعملا وأخلاقا وأنوارا. فأفاض على جميع العباد تعاليم الله سبحانه وتعالى بأقواله وأفعاله وتقريره وتنويره، وعم ذلك جميع المكلفين.

وماذا كان موقف المكلفين من ذلك؟ فمنهم من عاند ودخل في الكافرين، ومنهم من أجاب ودخل في المؤمنين، ومن المجيبين من خلط عملا صالحا وآخر سيئا فعسى أن يشمله الله برحمته وعفوه ومغفرته ومنهم من أطاع حق الإطاعة وما قصر بقدر ما لديه من الاستطاعة فدخل في المؤمنين الملازمين لبيوت (**أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** *النور ٣٦-٣٧)

ومنهم من ربى بنفسه وعلا بها إلى جانب قدسه باستمرار إتباع الرسول الكريم واقتدائه في كل نسيم وجسيم، وكسب محبته من حيث أن المبعوث رحمة للعالمين، فأحبه الرسول وتشربت روحه وقلبه وقالبه من زلال صفاء صفاته، وتنورت ذرات وجوده من جمال سناء سماته، فصار قبسا من نور الرسالة، ومستضيئا من ضياء صدره، ومتفانيا في تلبية حقيقة أمره وكان وجوده مرآة لوجود الرسول وصحبته مرفأ للوصول، كل ذلك من صحبته صلى الله عليه وسلم ومحبته، فوقر في صدورهم وقر من الأنوار واستقر في قلوبهم لمعات من الأسرار، فساقتهم إلى سلوك سبيل مجاهداته صلى الله عليه وسلم، سواء من طريق الرياضة النفسية والصلاة

والصيام والتهجد والقيام، أو من طريق الجهاد بالنفس والنفيس لإعلاء شأن الإسلام، أو من طريق الدعوة إلى حضرة القدس بتعليم الدين ونشر الأحكام، أو من طريق التفكر الروحي والنظر في آلائه تعالى وكبريائه وفيضه على الأنام بأنواع الإحسان والإكرام، فوصلوا إلى درجة وهبهم الله تعالى بها رتبة خلافة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم، لأنهم صاروا مظاهر لأوصاف الرسول لا بطريق العلم والارتسام، بل بطريق التحقق والاتصاف، إلا مرتبة النبوة والرسالة، حيث كانتا من الموهبة لا من المكتسبة، مع أنهم اقتبسوا منها بالخلافة عنه صلى الله عليه وسلم وراثة التبليغ إلى الأنام وإرشادهم إلى دين الإسلام أيضا.

ولا يخفى على المسلمين العارفين بمناقب الصدر الأول من المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم وأحوال الخلفاء الراشدين والسابقين من الأنصار والمهاجرين، وينكشف عندهم حال أبي بكر رضي الله تعالى عنه في الأسرار بالأذكار، والتفدية بالمال والحال والنفس في خدمة دين الرسول المختار، وأنه مختار من سائر إخوانه بما وقر في صدره من المهابة والأنوار.

وحال عمر رضي الله تعالى عنه في الجهر بالأذكار ومراقبة الحق في الليل والنهار، وصفاء قلبه وإصابة رأيه وموافقاته مع وحي الله في عدة مواضع معروفة عند العلماء الأبرار، وأنه صلى الله عليه وسلم ميزه عن غيره بأنه من الملهمين، وأن الحق معه، وأن الشيطان يخاف منه ويسلك غير مسلكه إلى آخر صفاته وخدماته للحق والدين.

وحال عثمان في التفدية بماله واشترائه الجنة مرتين، أي استحقاقه للفوز بالجنة جزاء لخدماته، وأنه كان يستحي منه ملائكة الرحمن.

كما لا يخفى حال علي كرم الله وجهه في صفاته وذكائه وعلمه وقضائه، وفي علاقته بربه ورضاه، وملازمة مراقبته ربه وتقواه. والحاصل أنه كان لكل منهم ومن حاذى حذوهم دأب خاص ومنهج مخصوص في التقرب إلى الله وإتباع الكتاب

وسنة الرسول ودعوة الناس إلى الله.

وعلى المنهج السابق مضى المسلمون قرنا فقرنا، وكان في كل قرن بجنب المؤمنين العادلين قوم منهم مخصوص بأحوال خاصة، ومحبة نفسية لرجال المحبة والولاية في الصدر السابق، وخلفوهم في ما استخلفوهم فيه، فلم يقصروا بقدر الإمكان، وخدموا الدين بقدر المستطاع والمناسبة، وكان لكل منهم حسب مشرب من صحبه منهج خاص في تربية المسلمين بالطاعة والأذكار، وتنوير قلوبهم عن غبار محبة الشهوات والأقذار، وربطهم بالسلف الصالح من حيث التنور بالأنوار، وذلك المنهج الخاص اشتهر في ما بعد القرون الثلاثة باسم الطريقة فكان يقال: طريقة جنيد ابن محمد في التربية، وطريقة فلان، وطريقة فلان، إلى آخره، كما يقال طريقة البخاري في رواية الأحاديث الشريفة وشرطه من المعاصرة واللقاء، وطريقة مسلم من المعاصرة وإمكان اللقاء وطريقة فلان من رواية الصحاح فقط.

وكما يقال: طريقة أبي حنيفة نعمان بن ثابت الكوفي في استنباط الأحكام، وطريقة مالك في استناده بعمل أهل المدينة المنورة في نقل السنة النبوية، وطريقة الشافعي، وطريقة أحمد بن حنبل.

أو كما يقال: طريقة حفص في قراءة القرآن الكريم، وطريقة ورش، وغيرهم، وهذه الأسامي والاصطلاحات وإن لم تكن مذكورة مشهورة في الصدر الأول، لكنها كلها من صميم الإسلام، والخدمة النافعة لدين سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، ومن اعتبر هذه الأمور من البدع، فإن أراد البدعة اللغوية فكلامه واضح، ولكن الكلام ليس في أتباع اللغة ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** * البقرة: ٣١)

وإن أراد معنى أنه بدعة وضلالة في الدين، فيلزمه أن جمع القرآن، وكتابة القرآن وتنقيطه، وتدوين الأحاديث الشريفة، وفتح المدارس لتعلمها، كل تلك الأمور المهمة المقررة لبقاء الإسلام من البدعة والضلالة، وحاشا أن ينطق مسلم فاهم مكلف بهذا الكلام.

كرامات أولياء الله تعالى

وإذا علمت ما تلونا عليك من اختصاص جمع من المؤمنين بمزيد درجات من الله سبحانه وتعالى، لإيمانهم الراسخ، وأعمالهم الصالحة، وتقواهم المستمر الذين قال الله سبحانه وتعالى في حقهم (**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** * يونس: ٦٢-٦٤) وفسرت البشرى بما بشر الله به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، وما يريهم من الرؤيا الصالحة، وما يمنع لهم من المكاشفات. وبشرى الملائكة عند النزاع، وغير ذلك من المواهب. فليعلم أنه استقرت عقيدة المسلمين على ثبوت الكرامة لهم، والكرامة: أمر خارق للعادة تظهر على أيدي العباد المختصين بإتباع الكتاب والسنة النبوية، إكراما لهم ورعاية لمقامهم. والفرق بينها وبين المعجزة من وجوه:

الأول- أن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة مقرونة بالتحدي، والكرامة لا تظهر إلا على يد من يتبع الرسول ولا تقترن بالتحدي.

الثاني- أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة، والكرامة يجوز معارضتها بما يماثلها، أو يكون أعلى منها من جهة خرقها للعادة.

الثالث- أن الرسل الكرام مأمورون بإظهار المعجزة، وأصحاب الكرامة لا يؤمرون بإظهارها، بل ويحبون إخفاءها، إلا إذا تعلق بها تأييد شأن الدين كتثبيت حكم شرعي، أو تبكيت شخص من المخالفين، إلى غير ذلك.

ويدل على ثبوتها أدلة، من الكتاب والسنة، والمعقول. أما الكتاب فمنه قصة مريم عليها السلام قال تعالى (**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** * آل عمران: ٣٧) وجه الاستدلال أن حصول ذلك الرزق عندها كان أمرا خارقا للعادة، وكل ما كان خارقا للعادة ظاهرا على شخصية كذلك فهو كرامة لها.

فإن قيل: ما الدليل على كون ذلك الرزق شيئا خارقا للعادة. فالجواب أمور:

الأول- أن حصول ذلك الرزق عندها ذكر في مقام إعلاء شأن مريم ورفعة قدرها عند الله، وكل أمر كذلك فظهوره كرامة لصاحبه.

الثاني- دلالة غلبة الرجاء على سيدنا زكريا عند ذلك، ودعائه وطلبه من الله أن يرزقه (وهو شيخ هرم وأهله عجوز) ولدا يخلفه، فإنه لو لم يكن ما عند مريم دالا على مزيد إحسانه تعالى وإكرامه لها ما كان تتأكد داعية زكريا عليه السلام لدعائه وندائه ربه تعالى ذلك.

الثالث- دلالة تنكر الرزق في الآية على كونه شيئا بديعا عجيبا مخالفا للمعتاد.

الرابع- ما دلت عليه الروايات من أن زكريا كان يجد عندها فاكهة الصيف بالشتاء، وفاكهة الشتاء بالصيف.

فإن قيل: ولم قلت إن كل أمر كذلك يكون كرامة لها، لم لا يجوز أن تكون معجزة لزكريا عليه السلام. فالجواب أنه لو كان معجزة له لكان عالما به، ولم يسألها عن كيفية حصوله عندها، ولم يستغرب وجودها هنالك، وسياق الآية يدل على أن زكريا لم يكن عالما به، بل استغرب وتعجب واطمأن قلبه من جوابها، ولذلك دعا هو بطلب ولد من إحسانه تعالى إليه.

فإن قيل: لعله كان من خدمات بعض المسلمين لها إذ ذاك قلنا: قد علمت أن زكريا استغرب حصوله عندها، وتقديم بعض أهل الخير بعض الهدايا ليس بمستغرب.

ومن أدلته على الكرامة واختصاص بعض عباده بها فضلا ورحمة، بقاء أصحاب الكهف مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين بدون عروض أي نقص وتفتت على أجسادهم الأمر المستحيل عادة، ولم يكن إذ ذاك رسول يتحدى بوضع كذلك، وإنما هو فضل وإحسان إليهم، وإرادة لظهور أمرهم في وقت ما، ليكون عبرة لأولي الأبصار، ودليلا على قدرته لأهل الاعتبار.

ومن أدلته قضية صاحب سيدنا سليمان عليه السلام ونقل عرش بلقيس مع

كبر حجمه، وبعد المسافة بآلاف الكيلو مرات في طرفة العين إلى محضره عليه السلام، وكانت كرامة لذلك الشخص الذي كان عنده علم من الكتاب ومعلوم أنه لم يكن ذلك العلم من العلوم المادية المعروفة بعلم جر الأثقال ونحوه، لأنها لم تصل قبل ذلك الوقت، وفي ذلك الوقت، وبعده إلى يومنا هذا الطور الذي تحصل به أمثال تلك العجيبة، كما أنه لم تكن معجزة صادرة من سيدنا سليمان مباشرة، لأنه لم يكن هنا تحد، ولو كان منه ما كان داع إلى طلب النقل من غيره، وليس في سياق الآية الكريمة دلالة على أنه كان من أعماله، فظهر أنه كان كرامة لصاحبه خصه الله بها إظهارا لفضله بما آتاه من علم الكتاب، وأثرا من الآثار الروحية الخالدة.

وأما الأخبار فكثيرة: منها ما أخرج في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم عليه السلام، وصبي في زمن جريج الناسك، وصبي آخر.**

أما عيسى فقد عرفتموه، وأما جريج فكان رجلا عابدا ببني إسرائيل، وكانت له أم فكان يوما يصلي إذ اشتاقت إليه أمه، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب الصلاة خير أم رؤيتها، ثم صلى، فدعته ثانيا، فقال: مثل ذلك، حتى قال ثلاث مرات، وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على أمه، قالت: اللّهمّ لا تمته حتى تريه الموسات. وكانت زانية هناك فقالت لهم: أنا أفتن جريجا حتى يزني، فأتته فلم تقدر على شيء، وكان هناك راع يأوي بالليل إلى أصل صومعته، فلما أعياها، راودت الراعي عن نفسها فأتاها، فولدت، ثم قالت: ولدي هذا من جريج، فأتاه بنو إسرائيل، وكسروا صومعته، وشتموه، فصلى ودعا ثم نخس الغلام). قال أبو هريرة: كأني انظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال (**بيده: يا غلام من أبوك؟، فقال: الراعي، فندم القوم على ما كان منهم، واعتذروا إليه، وقالوا: نبني صومعتك من ذهب أو فضة، فأبى عليهم وبناها كما كانت.**

وأما الصبي الآخر فإن امرأة كان معها صبي لها ترضعه إذ مر بها شاب جميل ذو شارة حسنة، فقالت: اللّهمّ اجعل ابني مثل هذا، فقال الصبي: اللّهمّ لا تجعلني مثله، ثم

مرت امرأة ذكروا أنها سرقت وزنت وعوقبت، فقالت: اللّهمّ لا تجعل ابني مثل هذه، فقال الصبي: اللّهمّ اجعلني مثلها، فقالت له أمه في ذلك، فقال: إن الشاب كان جبارا من الجبابرة فكرهت أن أكون مثله، وأن هذه قيل أنها زنت ولم تزن، وقيل أنها سرقت ولم يسرق، وهي تقول حسبي الله)[١]

ومنها خبر الغار: وهو الخبر المشهور في الصحاح فعن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فآواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل، وسدت عليهم باب الغار، فقالوا: والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أُغْبِقُ قبلهما، فناما في ظل شجرة يوما فلم أبرح عنهما وحلبت لهما غبوقهما فجئتهما به، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أغبق قبلهما، فقمت والقدح في يدي انتظر استيقاظهما، حتى ظهر الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللّهمّ إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت انفراجا لا يستطيعون الخروج منه. ثم قال الآخر: كانت لي ابنة عم وكانت أحب الناس إلي، فراودتها عن نفسها فامتنعت، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني وأعطيتها مالا عظيما على أن تخلي بيني وبين نفسها، فلما قدرت عليها قالت: لا يجوز لك أن تفك الخاتم إلا بحقه، فخرجت من ذلك العمل وتركتها وتركت المال معها، اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفجرت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم قال الثالث: اللّهمّ إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد ترك الذي له، وذهب، فثمرت أجرته حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين وقال: يا عبد الله أد لي أجرتي فقلت له: كل ما ترى من

([١]) هذا الحديث أخرجه البخاري بطوله في باب خلق آدم وذريته القسطلاني ٤١١/٥-٤١٢، وأخرجه مسلم في كتاب البر انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٤٤١/٩)

أجرتك من الإبل والغنم والرقيق فقال: يا عبد الله أتستهزئ بي فقلت: إني لا استهزئ بك فأخذ ذلك كله، اللّهمّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة عن الغار فخرجوا يمشون) وهذا حديث صحيح متفق عليه[١]

ومنها ما روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (**بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفتت إليه البقرة، فقالت: إني لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث**) فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**)[٢]

ومنها ما روي من قوله صلى الله عليه وسلم (**لقد كان فيمن قبلكم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر...**) الحديث[٣] والمحدثون: بفتح الدال المشددة - هم الملهمون كأنهم حدثوا بشيء فقالوه.

ومنها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**بينما رجل يسمع رعدا أو صوتا في السماء أن أسق حديقة فلان، قال: فغدوت إلى تلك الحديقة فإذا رجل قائم فيها، فقلت له: ما اسمك قال فلان بن فلا بن فلان، قلت: فما تصنع بحديقتك هذه إذا صرمتها، قال ولم تسأل عن ذلك؟ قلت: لأني سمعت صوتا في السحاب أن اسق حديقة فلان، قال أما إذا قلت فإني أجعلها أثلاثا فاجعل لنفسي وأهلي ثلثا، واجعل للمساكين وابن السبيل ثلثا، وانفق عليها ثلثا**)[٤]

ومنها قوله صلى الله عليه وسلم (**ربّ أشعث لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره**)[٥] ولم يفرق بين شيء وشيء فيما يقسم به على الله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب. انظر القسطلاني (٥/٩) وفي كتاب بدأ الخلق. القسطلاني ٤٢٧/٥، ومسلم في كتاب العلم. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٦٦/١٠)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدأ الخلق، انظر القسطلاني (٤٣١/٥) وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل أبي بكر، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني ٢٥٨/٩

(٣) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي باب مناقب عمر، انظر القسطلاني (١٠٣/٦)

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزهد. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني ٤٤٢/١٠

(٥) أخرجه مسلم في كتاب البر، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني ٥٤/١٠

ومنها ما رواه البخاري في علامات النبوة عن أنس رضي الله عنه «إن رجلين من الأصحاب خرجا من عند النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى وصل أهله»[١] وهذا إنما كان إكراما لهما ومعجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهذان الرجلان هما أسيد بن حضير وعباد بن بشير رضي الله تعالى عنهما.

وأما الدليل المعقول فهو أن العبد ولي الله، والله ولي العبد، وإذا ثبتت الموالاة بين الله وبين العباد، فالمرجو هو أن يفعل الله سبحانه ما فيه إعلاء شأن عبده بالكرامة في الدنيا والاحترام في الآخرة.

أما أن العبد ولي الله فلقوله تعالى (**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** * يونس: ٦٢) وأما إن الله ولي العبد فلقوله تعالى (**اللهُ وَلِي الَّذِينَ آمَنُوا** * البقرة ٢٥٧) وقوله (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** * المائدة ٥٥) وقوله (**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا** * محمد: ١١) وقوله تعالى تعليما لعباده ما يدعون به (**أَنْتَ مَوْلاَنَا** * البقرة: ٢٨٦)

وأيضا أن الله تعالى حبيب العبد، والعبد حبيب الرب، والمحب يعمل لحبيبه ما فيه الكرامة والعزة، أما أن الله تعالى حبيب العبد فلقوله تعالى (**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ** * البقرة: ٢٨٦) وأما أن العبد حبيب الرب فلقوله تعالى (**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** * البقرة: ٢٢٢) وكذلك يدل على المحبة في الجانبين قوله تعالى (**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** * المائدة ٥٤)

وهنا دليل آخر هو أنه تعالى (**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** * الشورى:١٢) فلا يعجزه شيء وهو على ما يشاء قدير والعباد المخلصون اختصهم الله سبحانه بالتوفيق على الطاعة والاستقامة على أداء واجب العبودية، وهذا التوفيق أصل لظهور كل

(١) أخرجه البخاري في المناقب باب منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشير، انظر القسطلاني (١٥٩/٦-١٦٠)

احترام وكرامة للعباد المطيعين، فمن المناسب لتوفيقهم إعلاء شأنهم بإظهار الكرامة لهم، وتوليهم في كافة شؤونهم كما قال (**وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** * الأعراف: ١٩٦)

وهنا دليل آخر، وهو أن المتولي للأفعال هو الروح لا البدن، لا شك أن معرفة الله تكون كالروح للأرواح، أي أنه كلما، ترقت الأرواح في مدارج معرفة الله، ترقت في مدارج الطاعة والإخلاص، وكلما ترقت في ذلك زادت المناسبة والارتباط وتهيأت لفيض أنوار القدس عليها، وإذا صارت الروح مظهرا للفيوضات، فظهور الكرامات والإمداد الغيبية لصاحب هذه الروح يصير نتيجة واقعية، وسنة ثابتة من سنة الله التي خلت في عباده (**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً** * فاطر: ٦٢)

ولا شك أن الروح خالدة، ولا فناء لها بانتقالها إلى عالم البرزخ، ولذلك يرى أهل المعرفة آثار الأرواح الطيبة، ويدرك أهل الصفاء أنوار الأرواح عند الزيارات بحيث يندهش العقل من إدراك تلك الأنوار والفيوضات.

ومن الكرامات التي ظهرت من الصحابة رضي الله تعالى عنهم جملة كثيرة: منها ما صح من حديث عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان نحلها جاد عشرين وسقا. فلما حضرته الوفاة، قال والله يا بنية ما بين الناس أحد أحب إلي غنى بعدي منك، ولا أعز علي فقرا بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقا، فلو كنت جددته وخزنته كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله قالت عائشة: يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء فمن الأخرى، فقال أبو بكر: ذو بطن بنت أراها جارية فكان ذلك.

(والجاد) بمعنى المجدود، أي نخل يجد منه ما يبلغ عشرين وسقا، وفي القصة كرامتان إحداهما إخباره رضي الله تعالى عنه بأنه يموت في ذلك المرض حيث قال وإنما هو اليوم مال وارث، والثانية إخباره بمولود له وهو جارية، والسر في إظهار ذلك استطابة قلب عائشة رضي الله عنها في استرجاع ما وهبه لها ولم تقبضه

فأخبرها رضي الله عنه بأنه مال وارث وإن معها أخوين وأختين.

ومنها ما في البخاري (باب السمر مع الضيف والأهلي) من كتاب المناقب من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الصفة مرة (**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس**).

وفيه أن أبا بكر انطلق بثلاثة وغادرهم في بيته وتعشى عند النبي صلى الله عليه وسلم، ولبث حتى صلى العشاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله، فقالت له امرأته: ما حبسك عن أضيافك. قال: أو ما عشيتهم قالت أبوا حتى تجيء، ثم قال كلوا: فقال قائلهم وايْم الله ما كنا نأخذ من لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها حتى شبعوا، وصارت أكثر مما كانت قبل، فنظر أبو بكر فإذا شيء أو أكثر فقال لامرأته يا أخت بني فراس ما هذا، قالت: لا وقرة عيني لهي الآن أكثر مما كانت قبل بثلاث مرات فأكل منها أبو بكر[١] الحديث.

وهذه كرامة أظهرها الله في بيت أبي بكر، كرامة له، حيث قصد إشباع أضيافه واستطابة قلوبهم حيث غاب عنهم.

ومنها قصة عمر رضي الله عنه مع سارية بن زنيم الخلجي حيث أمره على جيش من جيوش المسلمين، وجهزه إلى بلاد فارس، فاشتد على عسكره الحال على باب (نهاوند) وهو يحاصرها، وكثر جموع الأعداء، وكان المسلمون ينهزمون، وعمر رضي الله عنه بالمدينة، فصعد المنبر وخطب، ثم استغاث في أثناء خطبته بأعلى صوته: يا سارية الجبل يا سارية الجبل، فأسمع الله عز وجل سارية وجيوشه أجمعين، وهم على باب نهاوند صوت عمر فلجأوا إلى الجبل، وقالوا: هذا صوت أمير المؤمنين فنجوا وانتصروا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة، انظر القسطلاني (٥١٨/١) وكرره في باب علامات النبوة القسطلاني ٤٢/٦

وروي أن سيدنا عليا كرم الله وجهه كان حاضرا، ولما سمع الحاضرون، قالوا: ما هذا الذي يقوله أمير المؤمنين وأين سارية منا الآن؟ قال: دعوه فما دخل في أمر إلا وخرج منه، ثم تبين الحال بالآخرة.

ومنها ما ظهر على يد عثمان رضي الله عنه، وذلك أنه دخل إليه رجل كان قد لقي امرأة في الطريق فتأملها، فقال له عثمان رضي الله عنه: يدخل أحدكم وفي عينيه أثر الزنا، فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال لا، ولكنها فراسة.

وإنما أظهر عثمان هذا تأديبا وزجرا لرجل عن هذه المعصية.

ومنها ما ظهر على يد علي المرتضى رضي الله تعالى عنه، روي أن عليا وولديه الحسن والحسين رضي الله عنهم سمعوا قائلا يقول في جوف الليل:

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم * يا كاشف الضر والبلوى مع السقم

قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا * وعين جودك يا قيوم لم تنم

هب لي بجودك فضل العفو عن زللي * يا من إليه رجاء الخلق في الحرم

إن كان عفوك لا يرجوه ذو خطأ * فمن يجود على العاصين بالنعم

فقال علي رضي الله عنه لولده: اطلب لي هذا القائل، فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين، فأقبل يجر شقه، حتى وقف بين يديه، فقال: قد سمعت خطابك فما قصتك، فقال: إني كنت رجلا مشغولا بالطرب والعصيان، وكان والدي يعظني ويقول إن لله سطوات ونقمات، وما هي من الظالمين ببعيد، فلما أَلَحَّ في الموعظة ضربته، فحلف ليدعون علي، ويأتي مكة مستغيثا إلى الله، ففعل ودعا فلم يتم دعاؤه حتى جف شقي الأيمن فندمت على ما كان مني، وداريته وأرضيته، إلى أن ضمن لي أنه يدعو لي، حيث دعا علي، فقدمت إليه ناقة فأركبته فنفرت الناقة ورمت به بين صخرتين فمات هناك.

فقال له علي رضي الله عنه: رضي الله عنك إن كان أبوك رضي عنك، فقال:

تعالى رضيت عمن رضي عنه أبوه كذلك، فقام علي كرم الله وجهه، وصلى ركعات ودعا بدعوات أسرها إلى الله عز وجل، ثم قال: يا مبارك قم فقام ومشى، وعاد إلى الصحة كما كان، ثم قال: لو أنك ما حلفت أن أباك رضي عنك ما دعوت لك.

والكلام هنا في قول علي كرم الله وجهه لذلك الرجل المشلول (قم يا مبارك) فإنه يتبين أنه ظهر عليه كرم الله وجهه بصلاته إشراق قلبي حصل له به اعتقاد أن الله تقبل دعاءه فأمره بالقيام فقام وقد حقق الله ما اعتقده.

ومنها ما ظهر على سيدنا العباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم في استسقائه عام الرمادة في زمان عمر رضي الله عنه وبرجائه، وكانت السنة سنة جدب والريح تذري التراب كالرماد وقد قبل الله تعالى دعاءه واستسقاءه، ولا شك أن مقارنة الإجابة بالدعاء في السنة التي كاد أن تيأس فيها من المطر كرامة باهرة.

ومنها ما ظهر لسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه يوم القادسية، وذلك أنه كان به جرح لم يستطع القيام معه والركوب إلى ساحة الحرب، فبلغه من بعض الشعراء كلام تألم قلبه منه، فدعا عليه، وقال اللّهمّ اكفنا لسانه ويده فخرس لسانه وشلت يده.

وكان سعد مستجاب الدعاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له بذلك فقال (**اللّهمّ سدد سهمه وأجب دعوته**)،[١] فكان لا يدعو بشيء إلا أجاب الله دعوته، وكان الصحابة يعرفون ذلك منه.

ولما عزله عمر رضي الله عنه وولى مكانه عمار بن ياسر رضي الله عنهما بعث مع سعد من يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجدا حتى سأل عنه، فيثنون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، القسطلاني ٨٥/٢ وأخرج مسلم بعض هذا الحديث في كتاب الصلاة، شرح النووي في هامش القسطلاني ٩٨/٣-٩٩، والإمام أحمد في المسند (١٧٥/١) والنسائي (١٧٤/١) والطبراني رقم ٣٠٨.

عليه خيرا، حتى دخل مسجدا لبني عبس، فقام رجل منهم، يقال له أسامة بن قتادة ويكنى أبا سعدة، فقال: أما إذا نشدتنا فإن سعدا كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية.

فقال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللّهمّ إن كان عبدك هذا كاذبا قام رياء وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن. قال عبد الملك بن عمير من رواة الحديث: فأنا رأيته قد سقط حاجباه على عينه من الكبر، وأنه ليتعرض للجواري في الطريق يغمزهن، وكان بعد إذا سئل يقول شيخ كبير مفتون أصابتني دعوة سعد. وأراد عمر رضي الله عنه أن يرد سعدا بعد ذلك إلى الكوفة فامتنع.

وأقبل سعد يوما برجل يسب عليا وطلحة والزبير رضي الله عنهم، فنهاه، فكأنما زاده إغراء، فقال له: ويلك ما تريد إلى أقوام خير منك، لتنتهين أو لأدعون عليك، فقال هاه فكأنما تخوفني يعني نبيا من الأنبياء، فدخل سعد دارا فتوضأ ودخل مسجدا فقال: اللّهمّ إن كان عبدك يسب أقواما قد سبقت لهم منك الحسنى حتى أسخطك بسبه إياهم فأرني اليوم آية تكون آية للمؤمنين فخرجت بُخْتِيَّةٌ، من دار قوم وأقبلت لا يصدها شيء حتى انتهت إليه، وتفرق الناس، فجعلته بين قوائمها، ووطئته حتى طفئ.

ومنها ما ظهر على يد ابن عمر رضي الله عنهما، حيث قال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنح فبصبص بذنبه وذهب.

ومنها ما ظهر على أيدي سلمان وأبي الدرداء فقد كانت بين يدهما قصعة، فسبحت حتى سمعا التسبيح.

ومنها ما ظهر على عمران بن حصين كان يسمع تسبيح الملائكة حتى اكتوى فأحتبس ذلك عنه، ثم أعاده الله عليه.

ومنها ما ظهر لخالد بن الوليد رضي الله عنه، وهو أنه شرب السم و لم يضره، إلى غير ذلك من الكرامات التي ظهرت من سائر الصحابة، ومن التابعين، وتابعي

التابعين رضي الله تعالى عنهم، ومن غيرهم من خيار المسلمين في القرون التي مضت عليهم، بحيث وصل القدر المشترك منها مبلغ التواتر المفيد لليقين.

فإن قيل: ما بال الكرامة في زمن الصحابة وإن كثرت في نفسها قلت بالنسبة إلى ما يروى من الكرامات الكائنة بعدهم على يد الأولياء.

فالجواب: ما أجاب به الإمام الجليل أحمد بن حنبل رضي الله عنه حيث سئل عن ذلك فقال: أولئك كان إيمانهم قويا فما احتاجوا إلى زيارة يقوى بها إيمانهم، وغيرهم ضعيف الإيمان في عصره، فاحتيج إلى تقويته وإظهار الكرامة.

ومما ينبغي علمه أنه كما اختصت المعجزة بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، اختصت الكرامة بالمؤمنين المتقين المستقيمين على إتباع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، كالصحابة الكرام، وأفراد التابعين، وتابعي التابعين، وسائر المؤمنين الأخيار رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

فلا تصدر الكرامة قطعا من الفساق الفجار والعصاة الأشرار، وما يتوهم من وقوع بعض الأمور غير الاعتيادية منهم فليست كرامة، وإنما هي نتيجة علوم خاصة اكتسابية كالسحر والشعوذة وخفة اليد، أو نتيجة تدريبات رياضية علاجية كشرب حبوب مسمومة في اليوم مرات، والطفرة إلى الأسفل من أعالي السطوح العاليات، أو نتيجة رياضات نفسية بالجوع والعطش والسهر كإدراك بعض أسرار خفية من بعض الأشخاص، على أنها ظنون وأوهام تتخلف كثيرا، كما علم بالتجارب القطعية، أو أثر دعاء صالح دعاء لبعض الناس لرعاية مصالح دينية مهمة في بعض الأوقات، فاستمرار أثر ذلك فيهم كرامة لذلك الداعي، ولكل صالح مطبق لتلك المصالح، واستدراج لغيرهما من الناس غير المراعين لأحكام الدين المبين، وذلك لأن الكرامة فرع معجزة الرسول، فهي من باب الإمدادات الربانية والفيوضات الرحمانية، والأنوار الروحية الناشئة من صميم الإسلام والمتابعة لسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما صحبه الصالحين المتقين الصادقين

فعليها أدلة قاطعة من الكتاب والسنة. أما الكتاب فكقوله تعالى (**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** * الكهف: ٢٨)

في هذه الآية الشريفة أمر الله سبحانه وتعالى حبيبه محمدا صلى الله عليه وسلم، بتثبيت نفسه الشريفة الكريمة مع المؤمنين الذين يدعون ربهم في طرفي النهار ابتغاء مرضاه، وينهاه عن إمالة عينه إلى من سواهم من الذين يريدون الدنيا وشهواته، ثم ينهاه عن مطاوعة الذين غفلوا عن ذكر الله واتبعوا هواهم وخالف أمرهم وحالهم دين الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن في المصابرة والمجالسة معهم تعاونا في الدين تنورا للقلب في مدارج علاه، وأن في المجالسة مع أهل الكفر والفسوق إعراضا عن عبادة الله وأداء حقوقه، فمجالسة الأولين عبادة وسعادة، ومجالسة الآخرين بعد عن الله وشقاوة، ولا يرضى أحد باستبدال السعادة بالشقاوة، والقرب من الله تعالى بالبعد عنه، وقد ثبت الأدلة القطعية أن من جالس أهل الخير ينال خيرا، ومن جالس أهل الشر ينال شرا، ولذلك يحث الله تعالى عباده بقوله (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** * التوبة: ١١٩) ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن الكينونة مع الصادقين وصحبتهم ومحبتهم، يورث القلب استقامة على الحق وسلامة عن الباطل، وكأنها تكون وسيلة لتركيز التقوى، فكأنه سبحانه وتعالى قال: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وإن لم تعلموا حصول التقوى من أي وجهة، فاعلموا أنه بالصحبة مع الصادقين. وإن الإنسان إذا جالس أهل الخير وأهل العلم استفاد منهم الخير والعلم، وذلك مدلول قوله تعالى (**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** * الكهف: ٦٨) بل هذه الآية تدل بجلاء على أن إتباع الناس لأهل الصلاح لنيل ما عندهم من العلم، والأحوال، والصفات الحسنة، وتعليم ذلك الصالح صاحبه أحوال

أهل الخير، وكيفية استفادتها مطلوب، ومرغوب، حتى للأنبياء والمرسلين.

وأما من السنة فما روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك أما أن يحذيك وأما أن تبتاع منه وأما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير أما أن يحرق ثيابك وأما أن تجد منه ريحا منتنة**)[١] متفق عليه.

والحاصل أن الصاحب يأخذ من صاحبه بالمصاحبة والمحبة في مدة يسيرة، ما لا يستفيده بجهده وحده في أزمنة كثيرة، حتى أن الصاحب يكتسب دين صاحبه ودَيْدَنَهُ، وعليه ما روى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)[٢] رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح، وقال الترمذي حديث حسن ولما اكتسب بصحبته آدابه وأخلاقه ودينَهُ ودَيْدَنَهُ يكون قرينا له في الآخرة، وعليه قال صلى الله عليه وسلم (**المرء مع من أحب**)[٣] وفي رواية قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال (**المرء مع من أحب**)

الزيارة

وإذا حصلت الصحبة والمحبة بين شخصين وتحابا في الله وتصاحبا، فإن كانا يعيشان معا فذلك ظاهر، وإن اقتضى الوضع أن يتفارقا فليزر أحدهما الآخر.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (**أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال لا غير إني**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع القسطلاني ٣٩/٤ وكرره في كتاب الذبائح القسطلاني ٢٩٢/٨، ومسلم في كتاب البر شرح النووي في هامش القسطلاني ٥٨/١٠

(٢) رواه الترمذي رقم ٢٤٨٤ طبعة القاهرة، وقال حديث حسن وأبو داود في كتاب الأدب من سننه ٥٥٩/٢، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، والقول ما قاله الترمذي. انظر اللآلىء المنتشرة في الأحاديث المشتهرة للزركشي، مخطوط.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب عن أبي موسى، انظر الصحيح ٤٩/٨.

أحببته في الله تعالى قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[١] رواه مسلم.

ومن هنا ثبت أن زيارة الأحباب الصالحين بعضهم بعضا مستحبة، سواء كان في قرية واحدة أو في قريتين، وإذا توقف عليها فهم حكم من أحكام الدين ولا يمكن فهمه من غيره، أو دفع رذيلة نفسية من الرذائل المهلكة كالحقد والحسد، وجبت تلك الزيارة، لأن ما يتوقف عليه الواجب واجب قطعا، فإن تزكية النفس عن الرذائل والأمراض النفسية توجب الفلاح والخلاص، كما قال تعالى (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** * **وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** * الشمس: ٩-١٠) وقد جرب أن مجاورة أولئك الأصفياء دواء لأدواء القلوب.

وسقط قول من منع زيارة الناس للصالحين بحجة (**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد**...) الحديث[٢] لأنه مبني على شد الرحال لأداء الصلاة في المسجد، كما روي ذكر الصلاة في بعض الأحاديث الشريفة، لا لزيارة المسلمين بعض العارفين لأخذ آدابهم والتعلم منهم والانطباع والتخلق بما عندهم من الآداب والفضائل، وإلا لانسد باب كسب المعارف الدينية بصنوف الفقه، والعقايد والحكمة، والعربية وغيرها كما هو معلوم.

وإن مما يرشد المسترشدين إلى الحق لزوم إتباع طلاب العلوم النافعة الدافعة لأمراض القلوب رجالا أصفياء، أتقياء، يداوون أسقام القلوب بالأنوار والإرشاد السليم إلى طريق التزكية، لزوم تداوي المرضى بالأسقام البدنية عند الأطباء الحاذقين، فإن الدين روح الحياة للإنسان وثمرتها، وزكاء النفس وطيبها، وخلوصها من العلل المانعة عن الوصول إلى الله هو روح الدين. والإنسان إذا مات بالأمراض البدنية لا يفوته إلا تمتعات مادية مؤقتة، وإذا ما بالأمراض الروحية تفوته السعادة الأبدية،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر عن أبي هريرة، شرح النووي في هامش القسطلاني ٩/٤٦١

(٢) سبق تخريجه في ص: ٩٤

وتنوب عنها الشقاوة السرمدية والعياذ بالله تعالى، وجوب تداوي أمراض النفس وإتباع الصالحين مما لا يشك فيه عاقل، فإن تزكية النفس واجبة، وكل ما يتوقف عليه هذا الواجب واجب.

لا يقال: إن إتباع الشرع الشريف كاف عن كل شيء، لأنه فيه ما يحتاج إليه الإنسان في السعادة، فلا حاجة إلى شيء آخر، لأنا نقول: نحن لا نخالفك قطعا، ولكنا نقول: قد تركت أنت إتباع الشرع، لأن الشرع يأمر بالعبادة والإخلاص والعبادة تستفاد من التعليمات الدينية. وأما الإخلاص للنية التي عليها المدار، لا يمكن إلا بالتخلق بالأخلاق المحمدية، وهذه الصفة لا يمكن عادة وجودها، إلا بمحبة الدين، وأهل الدين، وصحبتهم، ومحبتهم، والأخذ بآدابهم الدينية المستفادة من مجاورة الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك يقول سبحانه وتعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** * التوبة: ١٩٩)

ألا ترى قوله سبحانه وتعالى حكاية عن سيدنا موسى عند مكالمته مع العبد الصالح عليهما الصلاة والسلام (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** * الكهف: ٦٦) وجوابه بقوله (**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا** * الكهف: ٦٧-٦٨) ألم تعلم أن ذلك العبد كان محبوبا لدين الله، وقد علمه من العلوم اللدنية.

وهنا يتبين لك الحق لأنه إن كان العبد الصالح نبيا، فمعناه جواز أن يتعلم الرسول من النبي ببعض العلوم المختصة، وإن كان وليا من أوليائه تعالى فيكون الحق أوضح لأنه إذا قرر إتباع الرسول مع كونه أعظم قدرا عند الله لولي من الأولياء لمعرفة واستفادة بعض الأسرار التي خصه الله بها، فوجود الاستفادة بل وجوبها من إتباع العامة للخواص من العلماء والأولياء يكون أوضح، وهذه القضية وإن كانت في شريعة سابقة على شرعنا، لكنها حكاها الله في مقام التقرير والارتضاء، ووفور قدرته تعالى في اختصاص من شاء بما شاء.

فالخلاصة في المقام أن الدين الخالص الذي حصره الله تعالى في الاختصاص به وقال (**أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** * الزمر: ٣) لا يمكن إلا بإتباع ما جاء به الرسول بأصوله وفروعه، ولا يتحقق ذلك، إلا بارتكاز العقيدة السليمة في القلوب، ومباشرة الأعمال الصالحة، ومجانبة الأعمال السيئة، والإخلاص في ذلك، والاعتقاد يؤخذ من تعليم العقايد، والأعمال تستفاد من تعليم الفقه، وأما الإخلاص فلا سبيل إليه إلا بفضل من الله، وموهبة خالصة، والانطباع بأحواله، وذلك في الصدر الأول، وبصحبة ومحبة أولئك الأصحاب المجاورين المحبين في الطبقة الثانية، وهكذا إلى أن ينتهي الزمان ويحصل الأمان.

زيارة الصالحين بعد وفاتهم رحمهم الله تعالى

وأما زيارة الموتى من الصالحين الكرام، فشعبة من زيارة مطلق الأموات، ولها وجوه وأصناف:

فمنها زيارة الميت كائنا من كان، وهذه مأمور بها ومرغوب فيها، لتذكر الآخرة، والتفكر في هازم اللذات، والعبرة بأحوال من ولد ومات، قال صلى الله عليه وسلم (**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة**)[١] رواه مسلم وفي رواية (**فمن أراد أن يزور القبور فليزر فإنها تذكرة بالآخرة**)

صدر النهي عن زيارة القبور في صدر الإسلام، لقرب عهد الناس بالجاهلية، ولما تمهدت القواعد واتضحت الأحكام وعلموا ما ينفع وما يضر، نسخ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك النهي بالأمر بها. والقاعدة الأصولية المقررة أن الأمر بعد الحظر للإباحة، على أنه اعتضد بتكرر زيارته صلى الله عليه وسلم للأموات، ولذلك اتفق العلماء قبل ظهور البدع والأهواء، على ندب الزيارة للرجال في قبور المسلمين، وإن بلوا لبقاء علاقة الروح بمحل القبر دائما.

---

(١) سبق تخريجه في ص ٩٤

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول (**السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقيع الغرقد**)[١] رواه مسلم.

وعن بريدة رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم (**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية**)[٢] رواه مسلم.

ومنها الزيارة لأداء حق نحو والد وذلك آكد لخبر أبي نعيم (**من زار قبر والديه أو أحدهما يوم الجمعة كان كحجة**) ولفظ رواية البيهقي (**غفر له وكتب له براءة**)[٣]

وأما لنحو حق صداقة ومعارفة، فذلك أيضا مندوب لما ثبت أنه لما مات عثمان بن مظعون ودفن وحضر دفنه صلى الله عليه وسلم، وأتى بحجر وضعه موضع رأسه، ولما سئل عن ذلك أجاب صلى الله عليه وسلم بقوله (**أتعلّم بِهَا قبرَ أخي عثمان**)[٤] ومعلوم أنه أراد أن يظهر القبر له إذا زاره في المستقبل، ومن هذا أخذ الناس وضع حجرين على قبر الميت رأسه، وقدمه للمؤنث، وثلاثة أحجار للمذكر: رأسه، وقدمه، ووسطه.

ومنها الزيارة للتبرك، فيسن لأهل الخير، لأن لهم في برازخهم أنوارا وبركات لا تحصى، أما سيد البشر صلى الله عليه وسلم فقد ذكرنا قبل ما له علاقة به، وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٠٦/٤)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز عن سلمان بن بريدة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣١٢/٤)

(٣) رواه الحافظ الهيثمي بلفظ (**من زار قبر أبويه كل جمعة غفر له وكتب برا**) قال: رواه الطبراني وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف انظر مجمع الزوائد (٥٩/٣-٦٠)

(٤) رواه أبو داود عن المطلب. انظر السنن (١٨٩/٢-١٩٠)

وأما زيارة الأولياء والصالحين والعلماء العاملين، وعلى رأسهم الصحابة الكرام، والتابعون، وتابعوهم من الأخيار، والشهداء لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، فتدخل في الندب المطلق من حيث أن زيارتهم زيارة الموتى من المسلمين، وفي الندب المؤكد لما لهم من حقوق التعليم، ونشر الدين، والتضحية في سبيل الإسلام والمسلمين، وتدخل في نطاق زيارة تأكد، لأن أرواحهم كانت ولا تزال منورة بأنوار الله في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، والأرواح المنورة لا تنقطع علاقتها بربها أبد الآبدين، ومذهب جمهور المسلمين أن الأرواح خالدة مؤبدة، ومعنى ذلك دوام فيض البركات والأنوار عليهم، فزيارتهم زيادة في الأجر واستفادة من بركات أرواحهم الطاهرة، وقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال (**آنس ما يكون الميت في قبره إذا رأى من كان يحبه في الدنيا**)[١] وهذا الحديث الشريف يشمل زيارة الأصدقاء في الدنيا، وزيارة الأخيار الذين كان الزائر يعرفهم في حياتهم بصورة قطعية، وغيرهم ممن لم يكن بينهم تعارف ظاهر، ولكن هناك تعارف روحي بصورة استنباطية، لأن المعارفة الروحية لا تتوقف على المعارفة الظاهرة في عالم الحياة المادية، وهو معلوم لأهل العلم واليقين.

بيانات وإيضاحات

هناك أمور ينبغي التعرض لها لزيادة بصيرة المسلمين:

الأول- أنه هل للأموات إدراك واطلاع على الزائر وشخصية وفهم لأحواله؟

الثاني- هل هناك فائدة تعود على الميت أو لا؟ وعلى الزائر ثانيا؟

والثالث- أنه هل يجوز للزائر التوسل بهم إلى الله سبحانه لحصول خير أو دفع شر؟

فنقول أما **الأول**- فإن كان الميت نبيا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلهم إدراك، فقد ثبت أن الأنبياء أحياء في قبورهم، وإن الأرض لا تأكل أجسادهم لما

---

(١) لم أطلع لهذا الحديث على سند، لكن معناه وارد في عدة أحاديث مثل (**ما من رجل يمر..**) الحديث ص ٢٢٨، وحديث (**ما من رجل يزور..**) الحديث ص ٢٢٩ وأحاديث أخرى.

روى النسائي عن أوس بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**إن الله عز وجل قد حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**)[١] عليهم الصلاة والسلام، وأخرجه ابن ماجه في سننه أيضا. وروى البيهقي في كتاب الأنبياء وصححه من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال (**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**)[٢] وكذلك رواه أبو يعلى والبزار وابن عدي وأخرج مسلم في باب فضائل موسى عليه السلام من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره**)[٣]

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم تعرض عليّ أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرت لكم**)[٤] وذلك العرض كل يوم، وقد عد من خصائصه صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في هذا الباب مما يدل مجموعها دلالة لا مرية فيها على حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك الشهداء فقد ثبت أيضا أنهم أحياء في قبورهم وإن كانت حياتهم دون حياة الأنبياء قال تعالى (**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ** * البقرة: ١٥٤) أي لا تحسون ولا تدركون حالتهم بالمشاعر، لأنها من أحوال البرزخ التي لا يطلع عليها، ولا طريق للعلم بها إلا بالوحي أو الإلهام. وما كان هذا شأنه لا يتصرف العقل فيه وهو خارج عن طوره، وجمهور السلف على أن هذه الحياة حياة حقيقية، وأنها للروح والجسد، ولكن الجسد جسد برزخي لا

---

(١) انظر النسائي (٣/٩١-٩٢) رواه أحمد في المسند (٤/٨) والحاكم في المستدرك (١/٢٧٨) وابن ماجه عن أبي الدرداء رقم ١٦٣٧ وأبو داود في كتاب الصلاة من سننه (١/٣٥١)

(٢) صححه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء ص: ٤، وأيد الشوكاني في نيل الأوطار (٥/١٠٨)

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٩/٢٣١)

(٤) رواه الحافظ الهيثمي عن عبد الله بن مسعود، وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد (٩/٢٤)

دنيوي، ونحن لا ندركها بالعين المجردة في هذه النشأة، وإنما تدرك بعين البصيرة لمن شاء الله، وممن صرح بهذا القول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والحسن، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، والجبائي، والروماني وجماعة من المفسرين.

وأما سائر الموتى فأرواحهم في عالم البرزخ مشغولة بشؤون أخرى غير هذه الشؤون، وفي عالم آخر مباين لهذا العالم المحسوس، مع أن لهم إدراكات متناسبة لمدارجهم ومعارجهم وعلو طبقات أرواحهم، ففي كتاب الروح لابن القيم تحت عنوان فصل أن الموتى يتساءلون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأفعالهم، وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلي على هذا فقال (ذكر ما جاء أن الموتى يتساءلون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم) قال: ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (**ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلّم عليه إلا عرفه ورد عليه**)[١] ويروي هذا من حديث أبي هريرة مرفوعا قال (**فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام**) قال ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم**)[٢]

واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**ما من أحد يسلم عليّ إلاّ رد الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام**)[٣] وكان صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر (**السلام عليكم أهل الديار**) الحديث، وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه، ودعاء من يدعو له، وصح عن عمرو بن دينار أنه

---

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق انظر الجامع الصغير (٢/٢٥٥)

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في القبور، ورواه ابن أبي عبد البر في التمهيد، وصححه عبد الحق الأشبيلي، انظر ما قاله الحافظ العراقي في الأحياء (٤/٤٧٥)

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١/٤٧٠) وصححه النووي في الأذكار ورياض الصالحين. انظر دليل الفالحين (٧/٢١٧-٢١٨) وأخرجه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء ص ١٣.

قال (**ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وأنهم يغسلونه ويكفنونه وأنه لينظر إليهم**)[١]

وأما استشكال إسماع الموتى وسماعهم بقوله تعالى (**فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** * الروم: ٥٢) وبقوله تعالى (**مَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَلاَ ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ** * فاطر: ٢٢) فمدفوع بأمور:

الأول- إن المراد إسماع هيكل الميت بواسطة آلة السمع وذلك مستحيل عادة، لبطلان إحساس الحواس للميت، فلا يمكن إسماعه إلا بقدرته تعالى.

والثاني- إن المراد تسلية الرسول من جهة أن الإنسان الذي أصر في حياته على الكفر لا يتأثر بالمواعظ والإرشادات التي تأتيه من الرسول فهو كالميت المتجمد المشرف على التمزق والبلي، وليست إفادة الإرشاد بالنسبة إليه في وسعك، وإنما هو في قدرة خالق الكائنات الذي يقدر أن يسمع حتى الجمادات وينطق الحيوانات التي لا نطق لها. وليس المراد بما في الآيتين نفي إدراك أرواح الموتى وسماعهم بالقوة الروحية ما يلقى إليهم، لوجود أدلة على إدراك الأرواح للأشياء وسماعها للأصوات سماعا برزخيا، مثل ما يرى أحد مناما ويسمع في رؤياه كلام من يخاطبه ويناجيه.

والثالث- إن إرشاد الناس وإفادتهم بالحقيقة، وإسماع الموتى بعد التحول من قانون الحياة الاعتيادية، بل كل كائن يكون، وكل حادث يحدث، إنما هو بخلق الله وقدرته، وليس لكم إلا الكسب الاعتيادي، وهو لا يفيد إنتاج المقصود لولا خلق القادر المعبود. فلا ينبغي أن تتألم بكلامهم وتتأثر بسوء إفهامهم إن أنت إلا رسول (**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ** * النور: ٥٤)، فهي من قبيل (**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ** * القصص: ٥٦) (**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** * الشورى: ٥٢) وليس

---

(١) ورواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد بلفظ (**إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره**)، تخريج أحاديث الإحياء، (٤٨٢/٤)

المراد بالآيتين وأشباههما نفي الإدراك عن الأرواح، ونفي السماع البرزخي، لأن ذلك المعنى مخالف لنصوص السنة، يدل لهذا ما في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم لأهل قليب بدر (**هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا**) فقال عمر أتكلم الموتى يا رسول الله فقال عليه السلام (**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم لما أقول غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا**)[١] أي لأنهم كانوا مشركين لا يمتثلون في الدنيا أوامر الله ورسوله، فبماذا يردون عليّ الآن؟ ولا ريب أن ذلك إنما يكون بسماع الأرواح، إذ لو كان بسماع الآلات لكان دون سماع الأحياء لأن آلاتهم الإحساسية تأثرت وضاعت من حين القتل، فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (**ما أنتم بأسمع منهم**) وأما سؤال عمر رضي الله عنه فمبني على ظن أن التكلم للهيكل المخصوص الفاقد للحس والحركة كما هو المعروف من الموتى، فأرشده الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الموجه إليهم الخطاب هم الموتى باعتبار أرواحهم المتعلقة بهم بعد الموت علاقة خاصة فهي التي تخاطب وتسمع فتسمع. وما روى مسلم (**إن الميت ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا**)[٢] وما ثبت من سؤال الملكين للميت بعد دفنه، وما ثبت من النعيم وغيره لهم في عالم البرزخ.

فظهر مما ذكرنا أن لأرواح الأموات إدراكات وإطلاعات بحسب ما لهم من الدرجات، وإن أولياء الله تعالى وهم المتقون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الاعتقاد والعمل الصالح ومنهج الخلق المحمدي، لأرواحهم بركات لأنهم تتنزل عليهم الملائكة بالبشرى، وأن من زارهم يستفيد من بركاتهم وأنوار أرواحهم، حيث أن مشاهدهم فيها بركات تنبع عن أرواحهم الصافية. وإن من كان في الأماكن

---

(١) أخرجه مسلم عن أنس في عذاب القبر، شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٢٢٣) وأخرجه البخاري عن أبي طلحة وليس فيه (**غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا**) انظر القسطلاني (٦/٢٥٣-٢٥٤)

(٢) أخرجه مسلم عن أنس في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٣٢٢) وأخرجه البخاري في باب عذاب القبر انظر القسطلاني (٢/٤٦٣-٤٦٤)

المبروكة بالنية الطيبة، يستفيد من تلك البركات، فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بأرض كانت بها أمة سابقة متمردة، وغضب الله عليهم، فأمر أصحابه بإسراع دوابهم واستعجال الخروج منها بحجة أنها أرض مغصوبة.

وروى مسلم في صحيحه في باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيا: روي عن عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله بن دينار أنه سمع عبد الله ابن عمر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الحجر (**لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم**)[١]

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرا أن يصيبكم مثل ما أصابهم**)[٢] ثم زجر فأسرع حتى خلفها.

وعن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهرقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم من البئر التي كانت تردها الناقة.

وقال النووي في شرح مسلم وفي هذا الحديث فوائد منها النهي عن استعمال مياه بئر الحجر إلا بئر الناقة، ومنها لو عجن منه عجينا لم يأكله بل يعلفه الدواب، ومنها أنه يجوز علف الدابة طعاما مع منع الآدمي من أكله، ومنها مجانبة آبار الظالمين والتبرك بآبار الصالحين.

ويستفاد استنباطا دقيقا من قوله سبحانه وتعالى (**وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ** * آل

---

(١) الحديث مع الشرح موجود في شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٠-١١٢)

(٢) الحديث مع الشرح موجود في شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٠-١١٢)

عمران: ١٩٣) استحباب وابتغاء أن يكون المسلم يسعى لوصوله إلى مجتمع الأبرار ليكون وفاته بمقربة منهم وأن يدفن في مقابرهم ليجاورهم في البرزخ فإن الإنسان يستفيد من بركاتهم وأنوارهم وجاههم بأن يتشفعوا له عند الله بالعفو والغفران فإن لهم جاها ووجها عنده تعالى وليس بغريب أن قال سبحانه وتعالى في شأن موسى (**وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا** * الأحزاب: ٦٩)

فأخذ العلماء من هذا بقاعدة دليل العكس، أن البقاء في المحل المبارك يستوجب الرحمة والبركة، وذلك على منوال ما قال صلى الله عليه وسلم (**وفي بضع أحدكم صدقة**) قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ قال (**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر**) فقالوا: نعم قال: (**فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر**)[١] فالمحل المبروك والمحل المغصوب محلان متنافران، فما ثبت في الأول مناف لما ثبت في الآخر، ويشهد بذلك واقع حال المسلم الذي زار الأماكن المقدسة، والمشاهد المباركة، وإحساسه بالنفحات والبركات، وقوله تعالى (**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** * الجاثية: ٢١) وإن أولياء الله تعالى مشمولون بعنايات ورعايات إلهية لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فيدل عليه قوله تعالى (**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** * الكهف: ٨٢) في تقرير الأمر بالعبد الصالح لإقامة جدار اليتيمين. وأما في الآخرة، فيدل عليه قوله تعالى (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** * الطور: ٢١) ومعنى هذا سراية أنوار الأبرار إلى المؤمنين المحبين من جهة علاقة الحب لله رب العالمين.

ولا يقال: إن كل امرئ بما كسب رهين، فأين هذه الاستفادة، لأنا نقول: هذا من باب الفضل، وارتهان كل شخص بما كسبه من باب العدل، وباب الفضل

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، شرح النووي في هامش القسطلاني (٤/٣٧٥-٣٧٧)

مفتوح على مصراعيه، وإلا لما كان لدعاء الأنبياء لأمتهم، ولا لدعاء اللاحقين لمن سبقهم بالإيمان فائدة مع أن نفعه منصوص في القرآن الكريم، حتى أن الله سبحانه وتعالى لم يعذب الكافرين في الدنيا ببركة وجود الرسول وقربه لهم فقال (**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** * الأنفال: ٣٣) فكيف بالمؤمنين المحبين.

وأن التوسل بهم بالطريق المشروع جائز كما ذكرنا في أوجه التوسل السابقة، ولا نظر إلى كلام المنكر لذلك المخالف لما درج عليه أكثرية الأمة المرحومة، فإن ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن، لكنه يجب على المؤمن الزائر رعاية أحكام الدين، ويجب على ولاة الأمر منع المحرمات، كاختلاط النساء بالرجال، ووضع منهج أمين سليم لتلك الزيارات لا سيما في الحضرات المقدسة، كمشاهد الأنبياء والمرسلين، فإن الشريعة حاكمة على الناس أجمعين.

القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر، أي الإيمان والاعتراف بأن كل ما وجد، أو هو موجود الآن، أو سيوجد فهو بقدرة الله تعالى وخلقه وإيجاده وإبداعه من العدم، حسب إرادته وعلمه، كالذرات المعدومة، والأرواح المكتومة التي أبدعها من الانتفاء إلى الوجود، وكالتركيب من الأجزاء الموجودة شيئا في صورة حادثة لم تكن قبل، فالممكنات بأسرها مسخرة للأمر الإبداعي المرجح للوجود على العدم، أو للعدم على الوجود. فكما أن إيجاد المعدوم فعل فاعل قادر، كذلك إعدام الموجود، وذلك لانحصار الموجود في الواجب الذي لا يقبل العدم، والممكن الذي يقبل الوجود والعدم والأول فاعل مطلق، والثاني منفعل مطلق، ولا مجال للممكن أمام الواجب من التخلف عن مقتضى القدرة والإرادة قيد شعرة، ولذلك يقول سبحانه (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** * يس: ٨٢) فإن هذه الجملة المدهشة كناية عن سرعة نفوذ القدرة في المقدورات واستحالة تخلفها عنها، مع العلم أنه يجوز توجيه الخطاب في جملة (كن) إلى الأمر الحاضر في علمه تعالى، ويراد به ظهوره وخروجه من عالم العلم والصورة

العلمية الصرفة إلى عالم الأعيان الخارجية التي تكون مبدأ للآثار المقدرة.

فالكائنات بأسرها من المحيط والمحاط، وكل ما دخل في دائرة الوجود والتعين والانضباط أثر قدرة الفاعل المختار «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[١]

وقد اتفقت الملل المهتدية بالنقل السليم والعقل المستقيم، على أن كل ما سوى الله تعالى بخلقه، ويدخل في ذلك السموات ونجومها، والأرض وتخومها، والأجواء وغيومها، والصغير والكبير والهواء والأثير، بما في الأرض من المعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان، ذواتها، واستعداداتها، وأفعالها وصفاتها، من الحياة والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع والبصر، والكلام، وسائر ما يدخل في نطاق التصوير، سواء وقع في التعبير أم لم يقع فيه لضيق التقدير.

ولكن في الحركات والسكنات والآثار النظامية التي تدخل في نطاق إرادة الإنسان وطاقته، كلام. والذي جاءت به الشريعة السماوية والعقول المهتدية، هي أيضا بخلقه وإيجاده تعالى، لكن لها علاقة بالإنسان تعبر عنها بالكسب والاكتساب، أو بالفعل، أو بالعمل النظامي الإرادي ويدل على ذلك دليل النقل ودليل العقل، أما دليل النقل فهو كقوله تعالى (**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** * الزمر: ٦٣) وقوله (**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** * الزمر: ٦٢) وقوله (**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** * الصافات: ٩٦) الآيات تدل على أنها بخلقه تعالى.

وقوله تعالى (**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** * الأحقاف: ١٤) وقوله تعالى (**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** * البقرة: ٢٨٦) وقوله تعالى (**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** * الزلزلة: ٧-٨) وكقوله تعالى (**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** * البقرة: ٢٨٦)

---

(١) أورده الغزالي في الإحياء باب الدعاء عن أبي الدرداء، وقال الحافظ العراقي أخرجه الطبراني وهو ضعيف، انظر الإحياء (١/٢٨٣-٢٨٤) وذكره الخيالي في حاشيته على شرح العقائد النسفية للتفتازاني في مبحث الأفعال، انظر شروح العقائد (١/١٤٨) مطبعة الكردستان العلمية.

وأنه لو لم يكن للعباد كسب وعمل أرادي يدخل في نطاق علمه وإرادته وتصرفاته، ما كان يرسل الرسل إليهم، وما كان يشرع الأحكام عليهم.

وأما الدليل العقلي، فهو أن الإنسان يعلم علما قطعيا إن هذا الكون البديع ليس إلاّ أثر فاعل كامل مبدع، وإن وجود نفسه وشخصه وصفاته أثر الفاعل، وليس له دخل فيه، وإلا كان يختار لنفسه ما يعجبه ويعجب العالم من الصفات الكمالية والأحوال البهية والمناقب السنية، كما يعلم علما قطعيا أن تلك الأفعال التي يباشرها لا يعلم تفصيلها وكمية أجزائها وحركات العضلات في تحصيلها، فهذه الملاحظات تدل على أن خالقها هو الله سبحانه، كما أن عنده علما ضروريا بأنه ليس منقطع العلاقة عن أعماله وأفعاله، فإنه يفرق بالبديهة بين حركاته ورعشاته إذا جاءه الخوف المفزع أو المرض المزعج، وبين حركاته الاصطناعية في الرياضة والمشي والركض وراء ما يقصده ويرغب فيه أو عما يخافه ويهرب عنه.

وإنه لو لم يكن للإنسان علاقة واقعية، لما سعى البشر منذ خلق في التطور من حال إلى حال ومن سيء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن، ولما أنشئت المدارس للتربية والتعليم، وما كان ينتقل الإنسان في بساط الأرض طالبا حصول علم يهديه إلى السعادة وينجيه من الشقاوة، ولما جاء على أحد لوم وتوبيخ في أي عمل إجرامي، وأي دناءة نفسية وقذارة شخصية، وما ورد عليه مدح وثناء في أي عمل رشيد واختراع وإبداع ومقاومة للمفاسد وهداية للرشاد، وخلاصة كل تلك الأدلة النقلية والعقلية هي أن الكائنات جميعها بخلق الله تعالى، وأن للإنسان علاقة في أفعاله الإيجابية والسلبية وأن الإنسان مخير وليس مسيرا.

وأما هذه العلاقة التي بها يكون الإنسان مخيرا، فهي بأنه لا شك أن الإنسان ليس جامدا كالمعادن فقط، ولا ناميا كالنباتات فقط، ولا حساسا كالحيوانات العجم فقط، وإنما هو كائن نام حساس ناطق، أي أنه عاقل له قوة إدراك الكليات العقلية والجزئيات الحسية، وأنه بعلمه يميز بين المنافع والمضار، وبإرادته يخصص ما

يرى فيه المصلحة ويرجحه على ما لا يرى المصلحة فيه وينبعث من علمه وإرادته نشاط ومد أعصاب إلى تنجيز ما تعلق به العلم والإرادة ويتصمم عزمه عليه، فيخلق الله سبحانه وتعالى ما علمه وأراده وصصم العزم عليه، وإن شئت فقل أن الكسب هو تصميمك العزم وإرادتك الجزئية المتوجهة نحو المراد التي هي شرط عادي لخلق الله تعالى له، فالتصميم والإرادة الجزئية منك والخلق لله تعالى، والدليل على الأول قوله تعالى (**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** * البقرة: ٢٨٦) وعلى الثاني قوله تعالى (**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** * الرعد: ١٦) وقوله (**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** * الصافات: ٩٦)

فإن قلت: هذا كلام مفهوم ولكن هناك ما يعارضه، حيث دل الدليل على أن كل عمل لكل عامل سبق في علمه تعالى وتعلقت به إرادته، وعلمه لا يتبدل وإرادته لا تتحول، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال (**السعيد من سعد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه**)[١]

وما روي عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال (**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكا، ويؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة**)[٢]

وإن هذا الحديث الشريف حديث عظيم الفوائد، وإنكار عمرو بن عبيد من زهاد القدرية له من ترهاته وخرافاته[٣] وقول الخطيب الحافظ هو والله الذي لا إله

---

(١) أخرجه البزار بسند صحيح عن أبي هريرة، كما قاله الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٧/٧)

(٢) أخرجه البخاري في باب القدر، انظر القسطلاني (٣٤٣/٩-٣٤٦) وكرره في كتاب التوحيد باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين.

(٣) راجع تاريخ بغداد للخطيب (١٦٦/١٢-١٨٨) ترى تفصيل ذلك.

إلا هو من كلام ابن مسعود، تعقبوه، أي ردوه عليه بإثبات إسناده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

قلنا: إن ما قلت أمر صحيح ومسلم ولكنه لا يخالف ولا يعارض ما قررنا، لأن علمه سبحانه وتعالى شامل أزلا وأبدا لكل عمل ولكل عامل، ولكل تصميم وتوجيه يحصل منه، وإرادته تعالى تابعة لعلمه، ولا ينكر أحد ذلك (**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** * الملك: ١٤) وقد صح (**أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن**[١] لكن العلم كشف أزلا ما أنت تعمله باختيارك وإرادتك، وإرادته تعلقت به حسب علمه بذلك، فالعلم ليس مجبرا، وإنما هو مظهر، والإرادة منه تعالى تابعة لعلمه الكشاف وليس أمرا إخباريا يوجب عليك الأمر بالقهر والاعتساف. فمثل علمه سبحانه وتعالى كمثل مرآة واسعة أمام شخص ينظر فيها ويرى فيها صورة من يمر في مقابلها مع أن ذلك الشخص لم يأمر أحدا بالمرور ولم يجبر أحدا على العبور فالعلم ثابت وحاك، والمعلوم محكي، والعلم يظهر أنك ستفعل ذلك بإرادتك وتوجهك.

وهذا أمر جلي واضح، وكل من خرج عنه وقع في تناقض مع نفسه وحرج.

فإنه كما سبق علمه بأعمالك وتصرفاتك، سبق علمه بمرضك وتداويك، أو عدم تداويك، فهل تقول: لا فائدة في التداوي، فإنه سبق في العلم ماذا يكون؟ وسبق علمه بمدة حياتك ومعيشة نفسك وعائلتك المرفهة أو المضيقة، فهل تقول: لا فائدة في السعي والجهد حول تحصيل النفقة فإنه مضى في علمه حياتي ومعيشتي ومعيشة عائلتي، ولا فائدة في الركض حول ذلك؟ وإذا قتل شخص شخصا، فقد سبق في علمه ذلك، فهل تقول أنه سبق علمه بالجناية ومآلها فلا معنى للقصاص وأخذ الدية وغير ذلك؟

نعم كل ذلك سبق في علمه، وسبق في علمه مباشرتنا لأسباب المرادات على اختلاف أنواعها، أو عدم مباشرتنا لها. وكسلنا عن أداء الواجب من جانبنا، ولا شبهة أن العلم في كل ذلك قد كشف ما يكون على حسب اختيارنا وإرادتنا.

---

(١) سبق تخريجه في ص: ٢٣٧

وعلى ذلك تمشي قاعدة (**إن الصدقة تدفع البلاء وتزيد العمر**)[١] أي أن الله قرر أن يكون عمر فلان أربعين سنة إذا كان عاقا لوالديه وقاطعا لأرحام من ينتمي

---

(١) وردت أحاديث كثيرة تدل على أن الصدقة والدعاء لها تأثير مباشر في إسعاد الإنسان وطول عمره منها ما رواه الطبراني عن رافع بن خديج (**الصدقة تسد سبعين بابا من السوء**) وروى القضاعي عن أبي هريرة (**الصدقة تمنع ميتة السوء**) وروى الخطيب في تاريخ بغداد عن أنس (**الصدقة تمنع سبعين نوعا من البلاء أهونها الجذام والبرص**) وروى أبو نعيم في الحلية عن علي (**الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء سعادة، وتزيد العمر، وتقي مصارع**) (السوء) وروى الديلمي في مسند الفردوس عن أنس (**الصدقات بالغدوات يذهبن بالعاهات**) انظر فيض القدير (٢٣٦-٢٣٧) وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللّهمّ إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، وكذلك روي عن ابن مسعود مثله، انظر تفسير القرطبي (٣٣٠/٩) وتفسير ابن كثير (٥١٩/٢)

وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإن الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه**) السنن كتاب الفتن رقم الحديث ٤٠٢٢ ورواه النسائي أيضا.

وهذه الأحاديث وإن كان كلها ضعيفا من حيث السند، لكن معناه صحيح لأن هذا المعنى وارد في القرآن وفي أحاديث صحيحة منها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه**)، وفي حديث آخر (**من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثر فليصل رحمه**) أخرجه في كتاب الأدب، انظر فتح الباري (٣٤٨/١٠) وأخرجه مسلم في كتاب الأدب انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٤٥٠/٩)

وما رواه الحاكم في المستدرك، والترمذي عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر**) انظر سنن الترمذي باب القدر رقم الحديث ٢٢٢٥.

ويؤيد معنى الأحاديث قوله تعالى (**يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** * الرعد: ٣٩) وقوله تعالى (**وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ** * فاطر: ١١) وعلى ضوء ما ذكرنا لك تجد أن كلام الأستاذ هنا في غاية الوضوح من حيث الألفاظ والمعاني، وفي منتهى القوة من حيث الدليل والبرهان، وما جعله قاعدة فهي بحق قاعدة شرعية لأنها مؤسسة على الكتاب والسنة، غير أن هذه القاعدة ليست مجمعا عليها، فقد رفض بعض العلماء تلك القاعدة ويؤولون الآيات والأحاديث، بأن المراد بزيادة العمر الثناء الحسن والذكر الجميل بعد الموت حيث ورد في المثل (العقل أحد الجمالين والذكر الحسن أحد العمرين) أو التغيير يكون بالنسبة إلى ما أثبتته الملائكة في صحيفتهم، فقد تثبت الملائكة الأجل فيها مطلقا، ولكن في علم الله مقيد، ثم يؤل الأجل إلى موجب علم الله، وذلك لقوله تعالى (**إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** * يونس: ٤٩). لأنه يعرف من الأزل أن هذا الإنسان يعمل الإحسان والخير أو يعمل الشر فعلمه تعالى يقين.

إليه، وإن يترل عليه بلايا إذا بخل بأداء واجب وجب عليه، وأن يكون عمره سبعين سنة إذا كان بارا بالوالدين، وواصلا لأرحام الأقربين، وسخيا في أداء الواجب وصرف الخيرات على الفقراء والمعوزين، ويعلم أنك من أي الفريقين في اختيارك وتصرفاتك، فإذا قال لك شخص لماذا تتصدق على المحتاجين أو لماذا تصل أرحامك فإنك لا تصل إلى خير وراء ذلك فلا تضيع مالك، فجوابه أن جاهل بسنة الله في الكون فحقه أن لا يغسل بدنه حتى من الأوساخ، لأنه سبق في علمه كل ما يجري على جسده فيموت في لباد من الأقذار ويقذف في قعر البحار.

فنحن نمشي على نظام الإرادة والاختيار، والله هو الفاعل العليم القادر المختار، والجهلة يظنون من أن القضاء والقدر لا يتغير، وأن لا فائدة في حركاتنا وسكناتنا. ولا يعلمون أن الفرار من الوباء قضاء، وأن الصيانة بالمعدات الحربية قضاء، وأن الرعاية في أداء الأمانة قضاء، فواجبنا أن نمشي على طريقة تنكشف من سلوكها قضاء يعود علينا بالمنفعة والسعادة في الدارين.

ولم يكن في تأريخ الرسل، رسول أفضل من سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وأوثق بربه تعالى، وأقوى توكلا عليه، مع أنه يمر الأيام والليالي، وهي مستمر في الجهاد والكفاح والإرشاد والإصلاح، وإعداد العدد والسلاح، بالإضافة إلى ما يقوم به من صيامه بالنهار وقيامه بالليل، ومن أذكاره وأوراده وقراءته للقرآن الكريم، واستعاذته بالله من الشيطان الرجيم، وكل ذلك على أي جهة من الجهات، كانت ولن تزال معلومة لله سبحانه وتعالى. والموفق يدري أنه مكلف ويدري أنه لولا طاقة منه ما كلفه الله فيعمل ويستمر على أمر الله، حتى يفوز بسعادة الدارين. (**رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** * الكهف: ١٠)

الأجل

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الأجل واحد، فإذا مات رضيع بلدغ عقرب، أو مات شيخ هرم في فراشه، فقد مات بأجله. وإذا قتل رجل في ساحة الحرب، أو

برمي ظالم، أو مات شاب في جو ملائم، فقد مات بأجله. ذلك لأن الأجل بمعنى آخر زمان الحياة: عبارة عن أن علم الله تعالى انتهاء حياة الشخص فيه، سواء تعلق علمه تعالى بأن ذلك الانتهاء يكون شيئا اعتياديا، أو يكون بعارض غير اعتيادي.

وأما قول الفلاسفة بأن الأجل أجلان: أجل طبيعي، وهو عبارة عن وقف انطفاء الحرارة الغريزية للحي، بسبب انتهاء الطاقات، وقابلية الحياة في ذلك الشخص، وأجل انخرامي، وهو عبارة عن انتهاء حياته، بسبب عارض. فهو شيء غير مقبول، لأنا لا ننكر أن لأجزاء البدن طاقات، ولا تنكر المعارضة للبلوى والآفات، ولكنا نقول: أن علم الله سبق بانتهائه في ذلك الحين، فلا يبقى للتخيلات والفرضية مجال، فهو مثل أن يقول قائل: لو درس فلان في مدرسة عالية إلى أن يتجاوز المراحل كلها، لصار دكتورا كبيرا، ولو امتنع عن الدراسة لكان أميا جاهلا، ولكن تحقق الأمر الثاني في الواقع فواقعه أنه أمي لا غير.

ومثل قول الفلاسفة، قول الكعبي القائل: بتعدد الأجل على وزان ما ذكرناه عن الفلاسفة. وأما قول جمهور المعتزلة: أن الأجل واحد، ولكن قد يقطع عنه الأجل ولا يموت بأجله، بل بقتل قاتل، فلا معنى له قطعا، لأن الله إذا قرر أن يكون أجله بعد انقضاء مائة سنة، فكيف يمكن لأحد أن يمنع ما قدره الله لحياته؟ وإنما قرر أن ينتفي بقتل القاتل وهذا الرأي أيضا مأخوذ من نظرية الفلاسفة، وجواز امتداد الحياة لو لم يمنع عنها مانع. ونحن نقول بهذا الجواز ولكنه لا يفيد، لأنه لما علم الله تعالى بطلان حياته في ذلك الوقت بقتل القاتل فلا يبقى معنى لأجل آخر، ولقطع ذلك الأجل عليه.

فإن قلت: فإذا كان الأجل هو الوقت الذي علم الله بطلان الحياة فيه، ولا يقبل التغير مطلقا، فما معنى خوفنا من الحرق والغرق، والحرب، والضرب، وغير ذلك؟ قلنا: وجه الخوف هو أنا لا نعلم الغيب، ولا نعلم بكيفية تعلق علمه بحياتنا، ولعله تعلق بانتهاء الحياة بسبب النار أو بسبب الوقوع في البحر أو بسيف محارب أو بضربة ضارب، وكل ذلك مجهول لنا، ومن ناحية أخرى جرت السنة الإلهية، بأن النار

محرقة، وأن الماء مغرق، وأن الضرب مؤلم، والسيف معدم، فلنا مجال للخوف منها والابتعاد عنها بقدر الإمكان حفظا للنظام، مع أن الأجل محتوم والقضاء مبرم معلوم.

الله هو الهادي

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى هو الهادي وهو المضل، أي أنه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ونقصد بالهداية والضلال هنا الوصول إي المطلوب الخير، أعني سعادة الدارين وضد ذلك. ومما لا شك فيه أن الاهتداء الناتج عن الهداية، والضلال الناتج عن الإضلال، وصفان للعبد، وأن لكل منهما أسبابا كسائر الممكنات المحسوسة والمعقولة.

فمن أسباب الأول سماع الحق من المحقين، والوعظ من الواعظين، والانقياد لإرشاد المرشدين، والتفكر في آثار قدرة رب العالمين، وتأديب النفس ورياضتها، وكبح جماحها، وردها عن غيها وشهواقا. وأهم أسبابه صحبة أهل التقوى واليقين، ومجالسة العارفين، وتوقيرهم، وطلب الدعاء منهم والتأدب بآدابهم، ومطالعة كتبهم والسلوك على سبيل سيرهم. كما أن من أسباب الضلال أضداد ذلك.

ومما لا شك فيه أن الله تعالى خلق للإنسان العقل والحواس التي يطلع بها على الحقائق والدقائق، فمن استخدمها في العلم بالأشياء كما هي عليه، والانتفاع بها على الوجه الصواب، وأصغى لمن ألقى إليه الدليل الصحيح، واستمع القول واتبع أحسنه، فهو الموفق السعيد في الدارين، ومن استخدمها على خلاف ذلك فهو المخذول البعيد فيهما، فالمخذول يجب أن يلوم نفسه، لأنه هو الذي ضيع استعداده وحواسه وعقله وإدراكه حتى خلق الله له الضلال (**وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** * يونس: ٤٤)

والموافق يجب أن يحمد ربه على أن آتاه فرصة استخدامها في الخيرات، ويقول (**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ** * الأعراف: ٤٣)

نعم إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الناس على قلب رجل واحد أي

يضل الجميع، أو يهدي الجميع ولو الكفار والأشرار (**وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** * النحل: ٩) لكنه تعالى مختار في أفعاله، ولا عتاب عليه بعد ما أفاض الاستعداد والقابلية للخير والشر في كل نفس منفوسة، فإذا زاد على ذلك بالفضل والكرم، ووفق هذا للتوجه إلى الخير فهو فضله ورحمته، وإن لم ينظر إلى هذا و لم يحسن إليه فذلك حكمه وحكمته وهو في كل فعال محمود.

ومما يجب الانتباه له أن استحقاق العبد للجزاء، وفوزه بالدرجات نتيجة لمصابرته وجهده في أداء الواجبات وكف النفس عن المحرمات، وإلا فلو منعه الله سبحانه وتعالى عن الحرام، ولم يجعله في محل يتناول حراما لم يبق له مجال التخلق بالعبودية، لأنه لا يمدح الأعمى بأنه لا ينظر إلى الأجانب، والأصم بأنه لا يستمع اللهويات، وإنما المدح للبصير السميع الذي يؤدي الواجب مخلصا وخالصا لوجهه الكريم، ويترك الحرام خوفا من عقابه العظيم أو إجلالا لعظمته وقدره الجسيم، وعليه قال تعالى (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** * النازعات: ٤٠-٤١) نسأله الفوز من رحمته برضاه يوم لقائه إنه أرحم الراحمين.

الله مختار

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى مختار وفي كل ما خلقه ويخلقه، وخلقه للأشياء مقرون بالعلم الكامل والإرادة والقدرة والحكمة، فلا يجب عنه ولا يجب عليه شيء، والكائنات تحت ملكه وسيطرته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، إذا أثاب على الأعمال الصالحة أثاب بفضله، وإذا عاقب، عاقب بعدله. يغفر لمن يشاء ما شاء سوى الكفر، فلا يغفره، لأنه أخبر بأنه (**لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** * النساء: ٤٨) وذلك الغفران ليس مشروطا بالتوبة، بل له الغفران لذنوب المذنبين ما عدا الكفر، تاب أم لم يتب. وغفرانه للتائب توبة صحيحة لوعده به. لا للزومه عليه. ولا يستحق أحد الجنة ونعيمها الأبدي بعمله فإنه لا يساوي ذلك، وإنما هو فضل وإحسان وكرم ورحمة واسعة.

ومع أن كل شيء بخلقه وإرادته، لكنه لا يرضى لعباده الكفر والفسوق والعصيان، ولا يستحبها، فإن الإرادة غير الرضا والمحبة، ألا ترى أنك تريد إجابة دعوة بعض الداعين إلى بعض الأمور، وتستجيب الدعوة مع أنك كاره له غير راض وغير محب. فقد تريد شيئا وتحبه كأكل طعام لذيذ نافع، وقد تريد ولا تحب كما في أكل الشيء اللذيذ الذي أشار الطبيب إلى امتناعك عن أكله، وقد تحب شيئا ولا تريده كما تحب أن تسافر للحج ولا تريد السفر بالفعل لبعض الموانع.

رؤية الله يوم القيامة

ومن نور الإسلام الإيمان بأن المؤمنين يرون الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بعيون الرأس رؤية واقعية عينية، للدليل عليها من الكتاب والسنة. أما الكتاب فقوله تعالى (**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** * القيامة:٢٢- ٢٣) وأما السنة فقوله عليه الصلاة والسلام (**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر**)[١]

وأما قوله تعالى خطابا لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام (**لَنْ تَرَانِي** * الأعراف: ١٤٣) فهو لنفي وقوع الرؤية في الدنيا، لا لنفي وقوعها في الآخرة، وذلك لأن القوى الدنيوية لا طاقة لها في إزاء تلك الرؤية، وقوله تعالى (**لاَ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ** * إبراهيم: ١٠٣) أي لا تدركه في الدنيا، أو لا تدركه إدراكا وافيا بالمرئي، أو لا تدركه أبصار الكفار، بدليل قوله تعالى (**كَلاَ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** * المطففين: ١٥) وأما الاعتراض بأن الرؤية تحتاج إلى بعض شرائط لا تتحقق في رؤية الله تعالى، فمدفوع بأنه من باب قياس الغائب على الشاهد، وذلك قياس فاسد، فإن الله سبحانه حي، والحياة فينا تحتاج عادة إلى بنية ومزاج، وليست حياته تعالى كذلك، وهو تعالى عليم، والعلم فينا يحتاج إلى القلب والدماغ وأشياء أخرى، وليس علمه تعالى كذلك، وهو تعالى متكلم والكلام فينا يحتاج إلى بعض

---

(١) سبق تخريجه بالتفصيل في ص: ٢٨

قوى نفسانية، وإلى بعض آلات حسية، والله تعالى بريء عن ذلك كله. فالواجب هو الإيمان بما جاء الكتاب والسنة به، وتفويض حقيقته وكيفيته إلى الله العليم الخبير.

البرزخ

ومن نور الإسلام الإيمان بالنعمة والنقمة البرزخيان أي التصديق بأن للميت من حين موته إلى بعثه للحشر عذابا، أو راحة ونعمة من الله سبحانه وتعالى بالنسبة إليه، فالمكلف بعد الموت سواء كان حريقا أو غريقا، أو مقبورا، فهو من آن موته إلى وقت البعث والقيامة الموعودة، أما في راحة ونعمة، أو في عذاب ونقمة.

والآيات والأحاديث الصحاح الدالات على عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين له أكثر من أن تحصى، بحيث يبلغ القدر المشترك من الأحاديث حد التواتر، وإن كان كل واحد منها من أخبار الآحاد، واتفق عليه السلف الصالح قبل ظهور المخالف من أهل البدع والأهواء..

ومن أدلة الكتاب على ذلك قوله تعالى في شأن قوم نوح عليه السلام (**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا** * نوح: ٢٥) فإن ظاهر الفاء في قوله تعالى (**فأدخلوا**) للتعقيب بدون مهلة، فيكون معناه الإدخال في النار البرزخي فورا بعد الإغراق.

ومنها قوله تعالى (**فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** * غافر:٤٥-٤٦)

فإن ظاهر قوله تعالى (**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**) هو العرض في البرزخ بقرينة قوله تعالى (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا**) الآية.

ومنها قوله تعالى في شأن حبيب النجار (**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** * يس: ٢٦-٢٧) فإن ظاهر ذلك تبشيره بالجنة والمغفرة بعد وفاته مباشرة، والتبشير من جملة النعمة البرزخية.

ومنها قوله تعالى (**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي**

ٱلآخِرَةِ * إبراهيم: ٢٧) قال القرطبي[١] في تفسيره: نزلت في عذاب القبر يقال: من ربك فيقول ربي الله وديني دين محمد، فذلك قوله (**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ**) وقد جاء هكذا موقوفا في بعض طرق مسلم عن البراء أنه قوله (أي قول البراء) والصحيح فيه الرفع كما في صحيح مسلم وسنن النسائي وأبي داود وابن ماجه[٢] وغيرهم عن البراء عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وذكر البخاري حدثنا جعفر بن عمر قال حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد عن سعد بن عبيد عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا أقعد المؤمن في قبره أتاه آت ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**) فذكر قوله (**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي ٱلآخِرَةِ** * إبراهيم: ٢٧)[٣] وفي تفسير القرطبي قيل إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصف مسألة منكر ونكير وما يكون من جواب الميت قال عمر يا رسول الله أيكون معي عقلي قال: (**نعم**) قال: كفيت إذا فأنزل الله عز وجل هذه الآية[٤]

ومن أدلة السنة ما رواه الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم مر بقرين فقال: (**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير**) – يعني عند الناس – زاد البخاري في رواية، (**بلى إنه كبير** – يعني عند الله – **أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من البول**). وفي رواية (**لا يستبرئ**) بدل (**لا يستتر**)[٥] ومعنى الرواية الأولى كشف العورة للناس ومعنى الرواية الثانية عدم اهتمامه بانقطاع قطرات بوله وقيامه من محله

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٣٢٧/٩-٣٦٤)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٢٢/١٠) ورواه النسائي، انظر السنن كتاب الجنائز. (١٠١/٤-١٠٢) ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد. انظر السنن رقم الحديث ٤٢٦٩. ورواه أبو داود في كتاب السنة، انظر السنن رقم الحديث ٤٧٥٠.

(٣) انظر القسطلاني باب ما جاء في عذاب القبر (٤٦١/٢)

(٤) انظر تفسير القرطبي (٣٦٣/٩)، القسطلاني ٣٢٧/٩

(٥) أخرجه البخاري في باب عذاب القبر، انظر القسطلاني (٤٦٧/٢)

وتوسخ بدنه أو ثوبه. وما روي أنه صلى الله عليه وسلم يقول من جملة أدعيته المأثورة (**اللّهمّ إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من عذاب النار وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال**)[١] وجاءت الاستعاذة من عذاب القبر في روايات كثيرة. ومنها ما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من دفن ميت وقف عليه وقال (**استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل**)[٢]

ومنها ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**)[٣] ومنها ما رواه مسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري عن زيد بن ثابت قال: قال أبو سعيد و لم أشهده من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن حدثنيه زيد بن ثابت قال بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال صلى الله عليه وسلم (**من يعرف أصحاب هذه القبر**) فقال رجل أنا قال: (**فمتى مات هؤلاء؟**) قالوا: ماتوا في الإشراك فقال: (**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوات الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**) ثم أقبل علينا بوجهه فقال: (**تعوذوا بالله من عذاب النار**) قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال: (**تعوذوا بالله من عذاب القبر**) قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: (**تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن**) قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: (**تعوذوا بالله من فتنة الدجال**) قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال[٤]

(١) أخرجه البخاري في باب عذاب القبر، انظر القسطلاني (٢/٤٦٦) وأبو داود في كتاب الصلاة من سننه (١/٣٥٣)

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز من سننه رقم الحديث ٣٢٢١ دار إحياء السنة.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٣١٨) وأخرجه البخاري في باب الميت يعرض عليه، انظر القسطلاني (٢/٤٦٧)

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجنة باب عرض مقعد الميت. انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٣٢٠)

ومنها ما رواه مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم (**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم قال يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة**، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: **فيراهما جميعا**، قال قتادة: وذكر لنا أنه **تفسح له في قبره سبعون ذراها ويملأ عليه. خضرا إلى يوم يبعثون**)[١] ومنها ما رواه مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**إن الميت إذا وضع في قبره أنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا**)[٢] وفي مسلم أيضا عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: (**يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا**) فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال (**والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**) ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قليب بدر[٣]

ومنها ما رواه البيهقي وابن أبي الدنيا عن ابن عمر مرفوعا (**القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة**)[٤] ومنها ما رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم (**ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر**)[٥]

---

(١) أخرجه مسلم في باب عرض مقعد الميت، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٢١/١٠) وأخرج البخاري بعضه في عذاب القبر القسطلاني (٤٦٤/٢)

(٢) أخرجه مسلم في باب عرض مقعد الميت، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٢٢/١٠)

(٣) سبق تخريجه في ص ٢٣١

(٤) وأخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رقم الحديث ٢٥٧٨ طبعة القاهرة، وأخرجه السيوطي في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في شرح العقائد النسفية، مخطوط وتجده في فيض القدير (٤٤٥/٥)

(٥) ذكره السيوطي في الجامع الصغير وحسنه، انظر فيض القدير للمناوي (٤٤٩/٥)

والصحيح الذي عليه أكثر الأئمة أن الثواب والعذاب على مجموع الروح والجسد، لكن الجسد البرزخي، لا هذا الجسد المادي المرئي المشهود، لأنه ربما يحرق الإنسان فيصير بدنه هباء منبثا، أو يتفتت في القبر، ومعنى الجسد البرزخي أنه يخلق الله تعالى لروح المتنعم أو المعذب جسدا لطيفا كجسد الملائكة التي لا فرق فيه بين المحل الكبير والصغير، ولا يمنعه مانع، من قبوله التنعم والتعذيب، وتصور ذلك سهل لمن له إلمام بالوحي والرسالة، ومن تأمل عجائب الملك والملكوت، وغرائب صنعه تعالى، لم يستنكف عن قبول أمثال هذه الأشياء، فإن للنفس نشآت، وهي في كل نشأة منها تشاهد صورا تقتضيها تلك النشأة، فكما أنا نشاهد في المنام صورا لا نشاهدها في اليقظة، كذلك نشاهد في حال انخلاعنا عن البدن أمورا لم نكن نشاهدها في الحياة، وإلى ذلك يشير قول من قال: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

فإنا نصدق بأن القبر يوسع على الميت من أهل السعادة بمقدار ما يعلمه الله تعالى، وأنه يبقى في النعيم إلى ما شاء الله، وكذلك نصدق بأن الحية مثلا موجودة تلدغ الميت، ولكنا لا نشاهد ذلك فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة تلك الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت وليس كلامنا سفسطة وخداعا عاديا، وإنما هو مبني على العلم والحقيقة الواقعة، ألا ترون أن الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبرائيل على الرسول صلى الله عليه وسلم وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه صلى الله عليه وسلم يشاهده، ويجب أن نؤمن كما آمنوا بذلك، ويؤمنون بنزول الملائكة في واقعة بدر وحنين، وما كانوا يشاهدونها إلى غير ذلك من الأمور الغيبية البرزخية، وكذا نؤمن بما روينا من حياة الأنبياء في قبورهم، وليس ذلك مما يدرك بالعيون الجسدية، ومن يأبى ذلك فهل يأبى نزول الوحي على الأنبياء والمرسلين؟ وهل يأبى نجاة إبراهيم من نار نمرود، أو ولادة عيسى بلا أب، أو تكلمه في المهد، أو صنعه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيرا بإذن الله، أو إبرائه الأكمه والأبرص بإذنه، أو إحيائه الموتى؟ ومن

يستغرب ذلك فليعلم أنه على نقص من الإدراك، فإن العالم فيه نواميس كونية مادية علمية توصل إليها بالعلوم المادية، وفيه نواميس علمية معنوية غيبية لا يوصل إليها إلا بعلم من لدن حكيم عليم خبير يختص به من يشاء. هدانا الله وإياكم إلى الإيمان الكامل بالغيب، حتى ندخل في حظيرة القدس بتوفيقه إنه هو الموفق وهو المعين.

الإيمان بالآخرة

ومن نور الإسلام الإيمان باليوم الآخر، أي الإيمان والتصديق بفناء هذا العالم المحسوس بسمائه ونجومها، وبرق الشمس والقمر، وبزوال هذا الوضع المشاهد من الجبال والأوهاد وغيرها، وحدوث عالم آخر وبعث الموتى من أماكنهم وسوقهم إلى صعيد واحد فيسألون ويحاسبون، ويحكم بينهم بالعدل، فإن كانوا من الكفار فمصيرهم إلى النار خالدين، وإن كانوا من المؤمنين العصاة، فإما يعفى عنهم ويغفر لهم، وإما يكون مصيرهم إلى النار بقدر ما عليهم من العقاب، ثم يخرجون منها إلى الجنة خالدين، وإن كانوا من المؤمنين الأبرياء، فأمرهم بدخول الجنة بكرامة وسلامة وخلود أبد الآبدين. ويعبر عن فناء هذا العالم بالساعة، وقبل البحث عنها ينبغي البحث عن علاماتها، فإن وقت حلولها غير محدود، قال تعالى (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا** * النازعات: ٤٢-٤٤) وقال (**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** * طه: ١٥) فالساعة حق ووقتها غيب، وحلولها أقرب من كل قريب، قال تعالى (**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** * النحل: ٧٧)

وعلائم الساعة كثيرة مذكورة في كتب مختصة بالموضوع، ونقتصر منها على ما يكتفي به هنا فقد قال صلى الله عليه وسلم (**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج** [وهو القتل] **وحتى يكثر فيكم المال فيفيض**

حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا.. ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها) رواه الأربعة.[١]

وظاهر فقرات علائم هذا الحديث الشريف إلى قوله صلى الله عليه وسلم (**وحتى تطلع الشمس**) تنطبق على ما حدث بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى دور تابعي التابعين ولا بأس فإن بعثه صلى الله عليه وسلم من علائم الساعة أيضا فيقول (**بعثت أنا والساعة كهاتين**)[٢] مشيرا إلى أصبعين من أصابعه الشريفة.

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم وهو (**يليط حوضه**) الخ، أنه يصلح حوضه بالطين ليسقي منه مواشيه فتقوم الساعة قبل سقيهم.

وعن حذيفة الغفاري رضي الله عنه قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قالوا نذكر الساعة. قال (**إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم**)[٣]

---

(١) البخاري كتاب الفتن، انظر القسطلاني (١٠/٢٠٤-٢٠٨) ومسلم في كتاب الفتن مختصرا شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٣٣٩)

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٩/٢٩٢) ومسلم في كتاب الفتن، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٤١٩)

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، انظر النووي في هامش القسطلاني (١٠/٣٥٣-٣٥٤) ورواه ابن ماجه في سننه كتاب الفتن رقم (٤٠٤١) و(٤٠٥٥) وأبو داود، انظر السنن كتاب الملاحم (٢/٤٤٩)

رواه مسلم الترمذي وأبو داود. وفي هذا الحديث ذكر علائم مهمة تقترب من حلول الساعة كما هو الظاهر من مدلوله...

وعن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا**)[١] رواه أبو داود والترمذي بسند صحيح، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة، وأن عيسى عليه السلام سيترل ويصلي خلفه، وقال الحافظ أيضا الصحيح أن عيسى رفع إلى السماء وهو حي، وقال الشوكاني في رسالته المسماة بالتوضيح في تواتر ما جاء في الأحاديث في المهدي والدجال والمسيح، وقد ورد في نزول عيسى عليه السلام تسعة وعشرون حديثا ثم سردها، وقال بعد ذلك وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع، يعني أن أفراد الأحاديث وإن لم تكن متواترة فقد بلغ المعنى المشترك حد التواتر، وكفى به شاهدا على المطلوب.

ومن علاماتها ما ذكره صلى الله عليه وسلم في جواب السائل عنها بقوله الكريم (**أن تلد الأمة ربتها**) [أي سيدتها]وفي رواية (**ربها**) [أي سيدها] (**وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**) الحديث[٢]

والعلماء فسروا الفقرتين بالمعنى المشهور، واعتقد أن معنى الفقرة الأولى كثرة عقوق البنين والبنات لأمهاتهم لقلة تأثير التربية وضعف الحياء ووفور الانحراف في البيئة والمجتمع، وتأثر الناس بتقليد الأجانب، فتختلف أحوال النسل مع الأصل، فيتجرد الجيل عن الأخلاق الفاضلة والنبل والشهامة، فلا يراعون حقوق الآباء والأمهات

---

(١) أبو داود. انظر السنن (٤٢١/٢-٤٢٢)

(٢) الحديث بطوله أخرجه مسلم في كتاب الإيمان (٣٦/١) والنووي في الأربعين، وابن رجب في الأربعين ورواه أحمد في المسند (٣٣٣/٤)

وصلة الأرحام. ومعنى الفقرة الثانية تطور العالم إلى حيث تأخذ البلاد زخرفها، وتتزين بما يعجب الناظر، فإذا تزخرفت وازينت ترك الناس البوادي والقرى والأرياف ودخلوا في البلاد، وانخرطوا في سلك المعتزين بالدنيا والمغتريين بمتاعها، وينخرطون في أنظمة أهلها في مقابل مال وجاه ينالونهما، فيبنون دورا راسخة ويشيدون قصورا شامخة، ويتنافسون بينهم في الأمور الحيوية كما نشاهد في أهل زماننا هذا.

ومن علامات الساعة توسيد الأمر إلى غير أهله، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث القوم جاء أعرابي فقال متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعضهم سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم لم يسمع حتى إذا قضى حديثه قال: (**أين السائل عن الساعة؟**) فقال هذا يا رسول الله، فقال: (**إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة**) قال كيف إضاعتها؟ قال (**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**)[١] وفي فيض القدير، وإنما دل على دنو الساعة لإفضائه إلى اختلال الأمر والنهي، ووهن الدين، وضعف الإسلام، وغلبة الجهل، ورفع العلم، وعجز أهل الحق عن القيام به ونصرته.

والعامل الأقوى في توسيد الأمر من الحكم والقضاء والإفتاء والتدريس والإمامة والخطابة ونحوها إلى غير أهله، قلة العلم من المولين والمتولين، فقد روي عن ابن عمرو بن العاص أنه صلى الله عليه وسلم قال (**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا**)[٢] قال أحمد: قال ذلك في حجة الوداع. وفي الباب عن أبي أمامة أيضا وزاد فقال أعرابي: يا نبي الله كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف وقد تعلمنا ما فيها وعلمناها نساءنا وذرارينا وخدمنا فرفع رأسه وهو مغضب فقال: (**هذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا بحرف**

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الرقاق باب رفع الأمانة، انظر القسطلاني (٢٨٤/٩)

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠٦/١٠) وأخرجه البخاري في كتاب العلم بلفظ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحديث، انظر القسطلاني (١٩٦/١)

مما جاءهم به أنبياؤهم)[١] فأفاد أن بقاء الكتب بعد رفع العلم بموت العلماء لا يعني من ليس بعالم شيئا. قال ابن حجر قد اشتهر هذا الحديث من رواية هشام فوقع لنا من روايته أكثر من سبعين نفسا عنه..

الزلزلة (والنفخة الألى)

وأما قيام الساعة ووقوعها بالفعل، فقد جاءت منصوصة في الكتاب في آيات بينات كثيرة، وهي آتية سريعة الحصول قال تعالى (**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ** * النحل: ٧٧) وقد روينا حديثا شريفا ينص على أن مجيئها مفاجأة عالمية تبغت الناس وهم في معاملاتهم ومكاسبهم الحيوية، فتبغتهم ولا تبقى لهم مفرا وسعة.

ومبدؤ زلزلة الأرض اهتزازها وخرابها، قال تعالى (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ** * الحج: ١-٢) وقال سبحانه وتعالى (**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** * الزلزال ١-٨)

وعند اهتزاز الأرض وزلزالها تتلاشى الجبال، وتستوي الأرض، ولا تبقى عليها الأوهاد والتلول، قال تعالى (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا** * طه: ١٠٥-١٠٧)

وقال تعالى (**إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا** * الواقعة: ٤-٦) وقال تعالى (**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** * القارعة: ٥-٦) وأما بقاء هذه الأرض التي نحن عليها بالذات فمن

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٦٦) وذكره ابن حجر في الفتح باختصار. انظر الفتح (١/١٤٠) ورواه ابن ماجه نحوه عن زياد بن لبيد كتاب الفتن السنن رقم ٤٠٤٨

المفسرين من قال: بأنها تبقى وتمتد، وتحصل لها سعة لا يعلمها إلا الله، وذلك لقوله تعالى (**وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ** * الانشقاق: ٣-٤) ومنهم ومن يقول: بأنها تفنى ويخلق الله بدلها أرضا أخرى صافية نقية بيضاء لقوله تعالى (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ** * إبراهيم: ٤٨) الآية فإن ظاهرها التبدل ذاتا وصفة.

وأما السموات والنجوم والشمس والقمر فالآيات الكريمة تنطق بفنائها لقوله تعالى (**يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** * الأنبياء: ١٠٤) وقال تعالى (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ** * الكوثر: ١-٢) وقال (**إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ** * الانفطار: ١-٢) وقال (**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** * الانشقاق: ١-٢) وقال تعالى (**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الآنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ** * القيامة: ٧-١٠) وقال تعالى (**فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ** * الرحمن: ٣٧) وقالوا في تفسيرها وصارت السماء في حمرة الورد وجريان الدهن، أي تذوب مع الانشقاق. إلى غيرها من الآيات الواضحات التي تدل على فناء السموات بما فيها، وانمحاء: الشمس، والقمر، والنجوم.

النفخة الثانية

وهذه الحوادث كلها أثر النفخة الأولى من الملك الموكل بها، وهو إسرافيل عليه السلام، وبها يموت من هو حي في البر والبحر والجو، إلى النفخة الثانية التي تحيا بها كل مكلف قال تعالى (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** * الزمر: ٦٨) وبين النفختين أربعون سنة أي مدتها. وإحياء الموتى منصوص في القرآن الكريم في عدة آيات بينات، واعتقاده من أهم أركان الإيمان.

وأما أن الحياة تتعلق بأجزاء الميت بعينها، أو بمثلها فلا بأس فيها، فقد جاء في أحاديث أن الميت تحيى على حبة عجب الذنب من أواخر فقرات الظهر، ولا تبلى

تلك الحبة أينما كانت ولا تتأثر بأي مؤثر، وجميع ذرات مجموعة جسد الإنسان عند موته باق في العالم سواء كانت ترابا أو ماء أو هواء، وهو على جمعها وإعادة صورها السابقة إذا شاء قدير. وقال سبحانه وتعالى (**أَوَلَمْ يَرَ الآنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الاَخْضَرِ نَارًا فَاذَآ اَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** * يس: ٧٧-٨٣) وقال تعالى (**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** * الروم: ٢٧)

وقال تعالى (**مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** * لقمان: ٢٨) وبعد إعادة الحياة إلى المكلفين وخروجهم من أماكنهم يساقون إلى المحشر، قال تعالى (**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** * ق: ٢١-٢٢) وقد نص القرآن على أن كل أمة تدعى بسيدها ومقتديها، سواء كان قائدا لها إلى الخير والسعادة، أو إلى الشر والشقاوة قال تعالى (**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** * الإسراء: ٧١)

فيكون أول من تنشق عنه الأرض سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتتبعه أمته على اختلاف طبقاهم بحسب رفعة الدرجات في الدين، ولا شبهة في أنه تتبع كل جماعة إمامها أيضا في الدين، فإن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة وسيد الأنام وعند ذلك أشرقت الأرض بنور مخلوق بأمر الله سبحانه إذ لا شمس هناك ولا قمر قال تعالى (**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ** * الزمر: ٦٨-٧٠)

الحشر

قال سبحانه وتعالى (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** * يس: ٥١-٥٢) فالناس يحشرون ويكونون على ما كانوا عليه من الأحوال في الدنيا، عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (**يبعث كل عبد على ما مات عليه**)[١] الحديث أي فمن مات على خير بعث على حال سارة حسنة، ومن مات على شر بعث بحال شنيعة والعياذ بالله تعالى منها.

والناس في مبدء البعث والحشر تخيم عليهم الهيبة والمخافة والفزع إلا من أمنه الله بلطفه ورحمته، وجعله في ظل كرمه ورأفته، وحشره مع من أحبه من صاحب شريعته أو من كبار أمته، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال (**يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا**)[٢] رواه الشيخان.

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (**إنكم محشورون رجالا وركبانا وتجرون على وجوهكم**)[٣] رواه الترمذي.

وهذه الأحوال المذكورة في هذه الروايات الصحيحة بعض من أحوال المبعوثين المحشورين، فالأحوال تختلف بالحسن والأحسن والسيئ والأسوأ، إلى أحوال كثيرة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وأهل البعث والحشر بالإجمال أصناف ثلاثة: السابقون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، فالسابقون الساقون أولئك هم المقربون في جنات النعيم، وأصحاب

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣٢٨/١٠)

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٣٠٣/٩) ومسلم في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٣١٢/١٠)

(٣) انظر كتاب الزهد باب الحشر رقم الحديث ٢٥٤١ سنن الترمذي.

الميمنة في سدر مخضود وطلع منضود وظل ممدود وماء مسكوب، إلى آخر ما ذكر في أوصاف نعيمهم، وأصحاب المشأمة في سموم وحميم وظل من يحموم، وهذه الأقسام الثلاثة مستوعبة لجميع الأمم من الثقلين من لدن أول عالم التكليف إلى آخره، وتفصيل أحوال أفرادها في علم علام الغيوب. فنسأل الله الرءوف الرحيم أن يحسن إلينا بالحشر في السابقين المقربين، أو في أصحاب الميمنة المكرمين عنده تعالى. وهذا السوق والحشر يكون على أرض جديدة غير أرضنا كما هو ظاهر قوله تعالى (**يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ** * إبراهيم: ٤٨) وهي بيضاء نقية صافية لم تقع عليها معصية[١] أو على عين مادة الأرض الموجودة الآن، لكنها تتغير من حال وجود الجبال والأوهاد وإلى حال لا ترى فيها عوجا ولا أمنا، فذاتها عين ذات الأرض السابقة، وصفتها غير الصفة الأولى كما ذكره أصحاب التفسير، والتبيان للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة.

الموقف

ومن نور الإسلام الإيمان بهول وقت الحشر وعمومه للناس إلا من خصه الله برحمته ونجاة منه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم**)[٢] رواه الشيخان، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يقوم أحدهم في رشحه** [أي عرقه]**إلى أنصاف أذنيه**)[٣] رواه الشيخان والترمذي، وعن المقداد بن أسود رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (**تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في**

(١) حيث ورد في صحيح البخاري عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ، عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ**،) الحديث انظر فتح الباري كتاب الرقاق (١١/٣٢٣)

(٢) رواه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٩/٣١٠)

(٣) رواه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٩/٣٠٩) مسلم كتاب الجنة، شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٣١٣)

العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه [أي منتهى أليته]، **ومنهم من يلجمه العرق إلجاما)** أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه)[١] رواه مسلم والترمذي.

وقد ذكر العلماء أخذا من نصوص الأحاديث الشريفة، إن ذلك العذاب المخيف المختلف إنما هو بالنسبة إلى الكفار، وبعض العصاة من المؤمنين. وأما الباقي فيمر عليهم زمان الحشر والموقف كزمان صلاة فريضة صلاها في وقتها نسأل الله تعالى الأمان من عذابه ومن الناجين السبعة[٢] الذين يجعلهم الله تحت ظل رحمته، وليعلم المؤمن أنه لا منافاة بين ذلك الحديث الشريف وبين ما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ** * التكوير: ١) أي لفت على تفسير، أو انكسفت على تفسير آخر، أو أدخلت في العرش على تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، لأن ذلك التكوير إنما هو عند الزلزلة والنفخة الأولى، ووقت البعث والحشر في ما بعد النفخة الثانية، كما قال تعالى (**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** * الزمر: ٦٨) وفي هذا الوقت تعود الشمس كما كانت بأمر الله تعالى وقدرته، فتدنى من رؤوس الخلائق ليتعذب بحرارتها الكفار والعصاة المتجاسرون المتمردون ممن شاء الله تعذيبه بها.

ثم تتحول الشمس إلى ما يختاره ويريده الله من الفناء أو الانكدار، ولا يبقى بعد ذلك مجال للشمس، ولا للقمر، ولا لسائر النجوم، كما قال سبحانه وتعالى (**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا** * الزمر: ٦٩) أي بنور مخلوق بقدرة الباري لتنوير الموقف وإجراء المحاسبة وموازنة الأعمال. وإنما ذكرت ذلك، لأن حديث أدناء الشمس من رؤوس الخلائق رواه مسلم والترمذي وتكوير الشمس عند مجيء الساعة منصوص في القرآن الكريم، والجمع بين القرآن والحديث الصحيح واجب.

---

(١) مسلم كتاب الجنة، شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/ ٣١٣-٣١٤)

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**) الحديث. رواه البخاري في وجوب صلاة الجماعة، وكرره في الزكاة، والرقاق، وكتاب المحاربين، انظر فتح الباري (٢/١٢٠) ورواه مسلم في كتاب الزكاة في صحيحه، والترمذي في كتاب الزهد في سننه.

السؤال

ومن نور الإسلام الإيمان بسؤال الباري سبحانه وتعالى جميع عباده المكلفين ومحاسبتهم وإيتاء كتب الأعمال قال تعالى (**يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَمُ الْغُيُوبِ** * المائدة: ١٠٩) وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**ما منكم أحد إلا سيكلمه الله ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة**[١] رواه الشيخان والترمذي. وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن عمله فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه**)[٢]

صحف الأعمال

ومن نور الإسلام الإيمان باستلام صحف الأعمال، قال الله تعالى (**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** * الحاقة: ١٩-٢٩) وقد روي في الصحاح أنه بعدما أفسح الله المجال لعبده في إبداء معاذيره يقول العبد لربه لا أجيز علي إلا شاهدا مني فينطق الله جوارحه.

عن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال: (**هل تدرون بم أضحك**) قلنا الله ورسوله أعلم قال: (**من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال: يقول بلى، قال فيقول: فإني لا أجيز على**

([١]) أخرجه في الرقاق، انظر القسطلاني (٩/٣١٤)

([٢]) الترمذي رقم الحديث ٢٥٣٢ طبعة القاهرة.

نفسي إلا شاهدا مني، فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسحطا فعنكنّ كنت أنا ضل)[١] رواه مسلم.

الميزان

ومن نور الإسلام الإيمان بالميزان قال تعالى (**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** * الأنبياء: ٤٧) فالوزن حق، وكيفيته موكولة إلى علم العليم الخبير، والإيمان به واجب، فعندنا في عالم الشهادة موازين للحرارة والبرودة، ولثقل الأشياء وخفتها، ولضغط الدم، وللأنواء الجوية، وكذلك في القيامة ميزان توزن فيه، أما صحائف الأعمال، أو نفسها بعد تجسيمها بأجسام نورانية وأجسام ظلمانية، وظاهر الحديث الشريف أن له كفتين إحداهما للحسنات والأخرى للسيئات، ويجوز أن يبقى على ظاهره، لأنه أمر ممكن أخبر به الصادق، ولا موجب للعدول عنه.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول الله أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفه فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء)**[٢] رواه الترمذي

---

(١) مسلم كتاب الزهد، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٤٣٣-٤٣٤)

(٢) سنن الترمذي رقم ٢٧٧٧ طبعة القاهرة. وأخرجه ابن ماجة في كتاب الزهد من سننه رقم الحديث ٤٣٠٠.

القصاص

ومن نور الإسلام الإيمان بالقصاص أي الانتقام من الظالم وأخذ حق المظلوم منه على ما فصل في الدين، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه**)[١] رواه الشيخان. وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**)[٢] رواه البخاري في الرقاق. وهذا في المكلفين وهم الجن والإنس، وإن كان عدل الله تعالى سيقوم على كل مخلوق كما قال صلى الله عليه وسلم (**لتؤدن الحقوق حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**)[٣] وترشد إلى هذا الاقتصاص قوله تعالى (**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** * الأنعام: ٣٨) ولكنه لا دليل على الثواب والعقاب في الجنة والنار بالنسبة إلى غير الجن والأنس فيكون المآل المحو والله اعلم.

الصراط

ومن نور الإسلام الإيمان بالصراط، وهو جسر ممدود على نار جهنم، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (**ثم يضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم أحد يومئذ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ، اللّهمّ سلم، سلم**)[٤] رواه الشيخان. وروى مسلم في الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، القسطلاني (٤/٢٥٨) وكرره في الرقاق، القسطلاني (٩/٣١١)

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٩/٣١١-٣١٢)

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/١٤)

(٤) قطعة من حديث طويل رواه البخاري في الرقاق أوله (**يجمع الله الناس فيقول**) الحديث انظرالقسطلاني (٩/٣٣١-٣٣٢)

عن أبي هريرة وعن حذيفة رضي الله تعالى عنهما (**إنه ترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق**)، قال قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق، قال (**ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم على الصراط يقول رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا، قال وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار والذي نفس أبي هريرة بيده أن قعر جهنم لسبعون خريفا**)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (**ترسل الأمانة والرحم**) معناه تقوم الأمانة والرحم في صورة شخصين فتقفان على حافتي الصراط تشهدان لمن قام بحقهما، وعلى من لم يقم بحقهما وذلك لعظم أمرهما. فالصراط كقنطرة على النار بعد أن ينتهي الناس من الموقف يؤمرون بالمرور عليه، فأهل النار يقعون فيها، وأهل الجنة يمرون عليها على اختلاف درجات سرعتهم، ولكن ينال بعضهم منها شدائد نسأل الله السلامة منها، فإنه ثبت أن من المؤمنين من يمر كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش، ومكدوس في نار جهنم.

وتبين من هذه المباحث أن الجن والإنس يعرضون على الله سبحانه وتعالى يوم القيامة في المحشر جميعا كما قال تعالى (**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ** * الحاقة: ١٨) وللموقف أهوال وأحوال، فالحال الأولى وقف الخلائق، وهم سكوت خائفون راهبون خاشعون، وهذه الحال أشد الأحوال قال تعالى (**وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا**) * طه: ١٠٨) قال (**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا** * طه: ١١١) وبعد وقوفهم في تلك الشدة يشفع الرسول صلى الله عليه وسلم فتتبدل الشدة بأحوال أخرى ويشرع في السؤال والحساب وتترل الصحف،

---

(١) هذا قسم من حديث طويل رواه مسلم في كتاب الإيمان أوله (**يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون**) الحديث، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١/١٧١-١٧٣)

وتأخذها الناس بأيمانهم وشمائلهم ووراء ظهورهم، فتوزن الأعمال ويحاسب المكلفون، ويأخذ العصاة في المناقشة بعد ظهور خفة ميزان خيرهم، فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، وبعد ذلك يضرب الصراط على متن جهنم فيؤمرون بالمرور عليه، وأول من يمر عليه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فمن ناج سالم، ومن مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، فالكافر يبقى خالدا فيها والمؤمن يبقى مقدار استحقاقه العذاب، ثم يخرج منها، أو يخرج قبل التعذيب بالشفاعة، ومصيره إلى الجنة ورضوان الله رب العالمين، فنسأل الله الرؤف الرحيم أن يعاملنا بفضله وإحسانه ويحشرنا تحت لواء سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

الحوض المورود

وأن لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حوضا مشهورا بالحوض المورود يصله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عبوره من الصراط وترد عليه أمته، عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**إن أمامكم حوضا كما بين جرباء وأذرح**)[١] رواه الثلاثة. وعن حارثة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**الحوض كما بين المدينة وصنعاء**)[٢] وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء**)[٣] رواهما الشيخان.

وللبخاري (**حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك**

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب الحوض، انظر القسطلاني (٣٣٩/٩) ومسلم في الفضائل، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٥٢/٩) وأخرجه أبو داود عن ابن عمر في باب الحوض، انظر السنن ج ٢ ص ٥٣٨). جرباء وأذرح، قريتان بالشام بينهما ثلاث مراحل

(٢) انظر البخاري في الرقاق باب الحوض القسطلاني (٣٤٢/٩-٣٤٣) ومسلم في الفضائل، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٥٢/٩)

(٣) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الرقاق باب الحوض القسطلاني (٣٣٨/٩-٣٣٩) ومسلم في الفضائل، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٥٨/٩)

وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبدا)[١].

وماء هذا الحوض يمتد من نهر الكوثر الجاري في الجنة كما يؤخذ من حديث نهر الكوثر في الحديث الوارد في شأنه وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الشفاعة

ومن نور الإسلام الإيمان بأن الشفاعة ثابتة للرسل وللأخيار في حق أهل الكبائر من المؤمنين، لا سيما شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد دل عليها الكتاب، فمن الكتاب قوله تعالى (**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** * محمد: ١٩) وقوله تعالى (**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** * البقرة: ٢٥٥) فإنه لو لم تجز الشفاعة ما كان يستثنى وقت إذنه تعالى بها، فإن المحال لا يتقيد بوقت دون وقت، وقوله تعالى (**وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** * الأنبياء: ٢٨) أي أن الشافعين لا يشفعون إلا لمن ارتضى الباري سبحانه وتعالى أن يشفع له، وقال تعالى على لسان بعض الكفار (**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ** * الشعراء: ١٠٠) فلو لم تكن الشفاعة واقعة للمذنبين من المسلمين، لم يبق فرق بينهم وبين الكافرين. ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه جابر (**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)**[٢] وهذا الحديث رواه الترمذي وأبو داود، وهو حديث مشهور، بل الأحاديث في باب الشفاعة متواترة المعنى.

وحكمة الشفاعة تكريم الشافعين، ورفع شؤونهم على رؤوس الأشهاد، وإفاضة الكرم الإلهي على المشفوع له، وغفران الباري سبحانه وتعالى للمذنبين بدون الشفاعة جائز، وأخبر عن وقوعه الباري تعالى بقوله (**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ** * البقرة: ٢٨٤) فمع شفاعة الشافع أولى وأجلى.

---

(١) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو في الرقاق باب الحوض القسطلاني (٣٣٨/٩)

(٢) رواه الترمذي رقم الحديث ٢٥٥٢ و٢٥٥٣ طبعة القاهرة وأخرجه أبو داود في باب الشفاعة، انظر السنن (٥٣٧/٢) وأخرجه ابن ماجة بلفظ (**إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي**) انظر السنن كتاب الزهد رقم الحديث ٤٣١٠

واستدلال المخالف بنحو قوله تعالى (**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ** * غافر: ١٨) ساقط عن الإعتبار لأنه محمول على الكفار وكلامنا في الشفاعة للمسلمين.

عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة، وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا**)[١] وما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم حين نزل قوله تعالى (**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ** * الشعراء: ٢١٤) (**يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها**)[٢]

فما كان منه خطابا للكفار فواضح أن الشفاعة ليست للكافرين، وما كان خطابا للمؤمنين منهم الداخلين في القوم، والباقي كفار، أو خطابا لفاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها فيحمل على إظهار الخوف من الله تعالى، وأنه ليس يملك شيئا، وما له صلاحية بدون لطفه تعالى وكرمه، وعلى الترهيب لهم من عقاب الله تعالى، وعلى الترغيب في الزيادة من الطاعات لينالوا الدرجات، وليس معناه نفي الشفاعة جوازا أو وقوعا، مع تلك الأحاديث الكثيرة الدالة عليها، وليس في القول بالشفاعة أعداد الناس للجرأة والجسارة على المعاصي كما توهمه بعض، إذ ليس في علم أي شخص أنه يشفع له حتى يكون ذلك جالبا لإقدامه عليها كما هو واضح للمنصفين.
وثبت على ضوء الأحاديث الشريفة أن للرسول صلى الله عليه وسلم شفاعات خمسا:

الأولى- الشفاعة العظمى، المعروفة بالمقام المحمود، وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم. ففي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما زال الرجل**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه رقم ٢٥٥٨، وأخرجه ابن ماجة وفيه (**أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين**) انظر سننه كتاب الزهد رقم ٤٣١١

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة أوله (**لما نزلت هذه الآية (وأنذر.....**) دعا رسول الله قريشا فاجتمعوا كتاب الإيمان، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٢/١٨١-١٨٢)

يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم وقال إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وزاد عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني ابن أبي جعفر، **فيشفع ليقض بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده أهل الجمع كلهم)**[١]. انتهى نصا باختصار السند: وفي هذه الرواية اختصار من أسامي بعض الرسل عليهم السلام. وفي **فتح الباري** شرح صحيح البخاري للمحدث الشهير ابن حجر العسقلاني، قوله بحلقة الباب أي باب الجنة، أو هو مجاز عن القرب، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي اختص بها صلى الله عليه وسلم وهي إراحة أهل الموقف من أهوال القضاء بينهم والفراغ من حسابهم.

وفي **فتح الباري** في شرح كتاب الرقاق من صحيح البخاري ما نصه ووقع في حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى ما نصه (**ثم امتدحه بمدحة يرضى بها عني ثم يؤذن لي في الكلام ثم تمر أمتي على الصراط وهو منصوب بين ظهراني جهنم فيمرون)**[٢] انتهى، وفيه أن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم حينئذ عند الصراط.

الثانية- الشفاعة لإخراج عصاة المؤمنين من النار في صحيح البخاري في آخر الحديث الذي رواه في كتاب الرقاق قوله صلى الله عليه وسلم (**فيأتون فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت له ساجدا فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطه، قل يسمع، واشفع تشفع، فارفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني، ثم أشفع فيحد لي حدا، ثم أخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدا مثله في الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن)**[٣] انتهى، وقال قتادة: أي وجب

([١]) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، انظر القسطلاني (٦٣/٣) ومسلم في كتاب الزكاة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٤٣٨/٤) والنسائي في كتاب الزكاة (٩٤/٥)

([٢]) انظر فتح الباري عند شرح حديث أنس (**يجمع الله الناس يوم القيامة**) الحديث (٣٨٠/١١)

([٣]) أخرجه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٣٢٥/٩-٣٢٦)، وكرره في كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء، انظر القسطلاني (٤٠٦/١٠-٤٠٨)

عليه الخلود والعياذ بالله. **الثالثة**- الشفاعة في قوم استوجبوا النار بذنوبهم، فلا يدخلوها لشفاعته صلى الله عليه وسلم.

الرابعة- الشفاعة لإدخال قوم الجنة بغير حساب، عن أبي أمامه رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا**)[١] رواه الترمذي بسند حسن.

الخامسة- الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لبعض أهلها، والله هو الجواد الكريم. وبعد شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يفتح باب الشفاعة لمن ارتضاه الله تعالى قال تعالى (**يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** * طه: ١٠٩) قال المفسرون: أي لمن كان قوله واعتقاده لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عثمان عن النبي صلى عليه وسلم، قال: (**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**)[٢] رواه ابن ماجه بسند صحيح.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة**)[٣] رواه الترمذي.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يشفع الشهيد في سبعين من أهل بتيه**)[٤] رواه أبو داود.

الجنة والنار

ومن نور الإسلام الإيمان بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان في هذا العالم وموجودتان الآن وستكونان الدار الأبدية للمسلمين والكافرين.

([١]) انظر سنن الترمذي رقم ٢٥٥٤ طبعة القاهرة.

([٢]) أخرجه ابن ماجة في سننه كتاب الزهد رقم ٤٣١٣ وفي سنده علاق بن أبي مسلم، قال في حقه الحافظ ابن حجر في التقريب مجهول (٩٤/٢)

([٣]) انظر سنن الترمذي رقم الحديث ٢٥٥٧

([٤]) انظر سنن أبي داود كتاب الجهاد (١٥/٢)

وذلك لظاهر الآيات الدالة على ذلك كقوله تعالى في شأن الجنة (**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**) في آية (**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** * آل عمران: ١٣٣) وقوله تعالى (**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**) في آية (**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** * آل عمران: ١٣١)

ولظاهر الأحاديث التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى كشف لرسوله صلى الله عليه وسلم الجنة والنار وأهلهما، وهي مروية في الصحاح.

وأما مكانهما فهو وإن لم يرد نص صريح في تعيينه لكن الأكثرين من العلماء على أن الجنة فوق السماوات السبع وتحت العرش تمسكا بظاهر قوله تعالى (**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى** * النجم: ١٤) وبقوله صلى الله عليه وسلم (**سقف الجنة عرش الرحمن وإن النار تحت الأرضين**)[١] أي أنها بقعة أخرى مما خلقه الله في هذا العالم، وإسنادها إلى ما تحت الأرض فإفادة فظاعتها والرهبة منها. ثم أن ظاهر الدلائل المذكورة وإن لم يفد القطع واليقين في الموضوع، إلا أن القدر المشترك من الأدلة الدينية كتابا أو سنة، أفاد أنهما موجودان فعلا في هذا العالم، وهو عالم واسع لا يحيط به عقل البشر، وليس بغريب أن يكون فيه هاتان البقعتان، مع أن العلم قد اكتشفت أن الشمس تقارب ربع مليون مقدار الأرض، وما هي إلا كوكب من كواكب هذا العالم الذي لم يكتشف من كواكبه إلا القليل.

وأما صفات أهلهما فمذكورة في القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا مزيد عليه.

أما النار وأبوابها وأوصافها فقد قال سبحانه وتعالى وإن جهنم (**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ** * الحجر: ٤٣) وقال تعالى (**كَلاَ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى** * المعارج: ١٥- ١٨) والآيات

---

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ لم أطلع له على سند، لكن هناك أحاديث تدل على أن الجنة في السماء منها ما رواه: البخاري (**والفردوس أعلاها درجة... ومن فوقها يكون العرش**) راجع ص: ٢٩٧.

القرآنية في فظاعة عذاب النار وهو لها وشدتها على أهلها، كثيرة معلومة عند كل قارئ فاهم، فلا حاجة إلى البيان، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال وهو يخطب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (**إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه**)[١] رواه الشيخان والترمذي.

وأما أهلها فهم الكفار من الجن والإنس خالدون فيها أبدا، والعصاة من المؤمنين منهما يعذبون بالمقدار المقدر لهم في علمه سبحانه وتعالى ثم يخرجون منها ويدخلون الجنة برحمته ويبقون أبد الآبدين.

وأما صفة الجنة وما فيها، فقد قال تعالى في بيانها وبيان خدمها وحورها وفرشها ومأكلها ومشربها (**وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا** * الدهر: ١٩- ٢٢) و (**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ** * الواقعة: ١٠-٤٠) وقال تعالى (**فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** * الزخرف: ٧١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**قال عز**

---

(١) انظر إرشاد الساري الرقاق (٣٢٣/٩)

وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا بله ما أطلعكم الله عليه) ثم قرأ (**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِي لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** * السجدة: ١٧) رواه الشيخان والترمذي.[١]

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب**)[٢] رواه الخمسة.

وأما بناؤها فعن أبي هريرة رضي الله عنه قلت: يا رسول الله ممّ خلق الخلق؟ قال: (**من الماء**) قلنا: الجنة ما بناؤها؟

قال (**لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها**) [أي ما يوضع بين أجزاء البناء كالطين] (**المسك الأذفر**) [شديد الرائحة] (**وحصباؤها اللؤلؤ وتربتها الزعفران من دخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم**)[٣]

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وَلاَ يَتْفِلُونَ ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون**) قالوا فما بال الطعام قال (**جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس**)[٤]

وأما أبوابها فثمانية عن سهل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (**في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون**)[٥] رواه

---

(١) البخاري كتاب التوحيد، انظر القسطلاني ٤٣٦/١٠ ورواه في كتاب بدأ الخلق أيضا، ومسلم في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٢٨٢/١٠)

(٢) رواه البخاري في حديث طويل في الرقاق باب صفة الجنة بلفظ (**ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدم من الجنة خير من الدنيا وما فيها**)

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه الترمذي في صفة الجنة وقال: هذا الحديث ليس إسناده بذلك القوي رقم الحديث ٢٦٤٦ طبعة القاهرة.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (٢٩٠/١٠)

(٥) أخرجه البخاري في كتاب بدأ الخلق، انظر القسطلاني (٢٨٦/٥]

الشيخان.

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**باب أمتي الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب الجواد ثلاثا ثم إنهم ليضغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول**)[١] رواه الترمذي.

وأما درجاتها، فمن عبادة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس**)[٢] رواه الترمذي والبخاري.

وأما أنهارها فقد قال تعالى (**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ** * محمد: ١٥)

وأما ثمار شجراتها وظلالها فقد قال تعالى (**أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** * الرعد: ٣٥)

وأما نصيب أهل الجنة من الجنان فقد قال تعالى (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ** * الرحمن: ٤٦) وأما صفاء القصور، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**) قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال (**بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**)[٣] رواه الشيخان والترمذي.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه رقم ٢٦٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، انظر القسطلاني (٥/٣٧-٣٨) والترمذي في صفة الجنة رقم ٢٦٥١ طبعة القاهرة.

(٣) رواه البخاري في الرقاق، انظر القسطلاني (٩/٣٢١)، ومسلم في كتاب الجنة، انظر شرح النووي في هامش القسطلاني (١٠/٢٨٥) والترمذي في صفة الجنة رقم ٢٥٨١ وبشرح ابن العربي (١٠/٢١)

الكوثر

وأما الكوثر، فهو نهر مختص بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فعن أنس رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم، عن الكوثر فقال صلى الله عليه وسلم (**ذاك نهر أعطانيه الله عز وجل في الجنة أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر**) قال عمر أن هذه لناعمة قال رسول الله (**أكلتها أنعم منها**)[١] يعني أنها ناعمة وشهية لذيذة والآكلون لها أحسن منظرا منها.

وعن أنس رضي الله عنه قال: أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فأما قال لهم، وأما قالوا له يا رسول الله لم ضحكت؟ فقال: (**إنه نزلت علي آنفا سورة**) فقرأ (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرْ**) حتى ختمها فلما قرأها قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال (**فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة وعليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب**)[٢] وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قلت: ما هذا يا جبريل، قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر**)[٣] رواه البخاري وأبوداود والترمذي.

وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (**الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج**)[٤] رواه الترمذي بسند صحيح، ولا منافاة بين هذا الحديث

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٥ طبعة حمص وبشرح ابن العربي (١٠/١٢)

(٢) أخرجه أبو داود في باب الحوض من سننه (٥٣٨/٢)

(٣) رواه البخاري من الرقاق باب الحوض، انظر القسطلاني (٣٣٩/٩) وأبو داود في سننه (٢٣٩/٢)

(٤) أخرجه الترمذي في سننه رقم الحديث ٣٤١٩ طبعة القاهرة.

هذا آخر ما يسر الله إملاءه من التعليقات المتواضعة على رسالة فضيلة أستاذي الشيخ عبد الكريم المدرس المسماة (**بنور الإسلام**) راجيا من الله أن يتقبلها بقبول حسن، كما آمل أن تحظى باستحسان القراء الكرام.

محمد الملا أحمد الكزاني

وما قبله، فإن الحافة من الذهب لا تمنع قباب الدر فوقها، وقد أنزل الله تعالى في قرآنه الكريم ذكر النفختين، وحشر الخلايق، وحسابهم، وسوق الكافرين إلى النار، وسوق المتقين إلى الجنة، واستقبال الملائكة الكرام لهم، وتسليمها عليهم، وتبشيرهم بدخول الجنة خالدين، وحمدهم لله سبحانه وتعالى على هذه النعمة الجسيمة، وتسبيح الملائكة حول العرش العظيم.

فقال (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىَ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىَ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** * الزمر: ٦٨-٧٥)

قد تبركت وتشرفت أنامل يدي اليمنى باقتباس هذه الأنوار من نور الإسلام، تنويرا لقلوب الأخوة والأخوات الكرام، وتذكرة للمتذكرين من أولي الأفهام، وتبصرة للمتبصرين من الشباب المهتدين بهدي الرسول القائد لأمته إلى دار السلام، أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعني وإياهم بها في الدنيا وفي الآخرة عند لقاء الملك العلام.

وكان ختام التبرك قبيل عصر يوم السبت الرابع من أيام شوال لسنة ألف وثلاثمائة وسبعة وتسعين من هجرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، المصادف لليوم السابع عشر من الشهر التاسع لسنة ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين من ميلاد المسيح

عليه وعلى بقية الأنبياء الكرام الصلاة والسلام، وأنا ساكن بغرفة المدرسة المتصلة بالمنارة الشمالية في جامع سيدنا قطب الأولياء حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس الله تعالى سره، وأفاض علينا نوره وبره، من محلة باب الشيخ في بلدة بغداد المحروسة المعروفة ببرج الأولياء ودار السلام، وفي الحقيقة هي دار الإسلام، والمحدثين، والفقهاء، والعلماء الكرام، أعلى الله مقامهم آمين، وإن الفقير إلى الله عبد الكريم بن محمد الكردي الشهرزوري من عشيرة القاضي القاطنين في مركز ناحية شهرزور التابعة لقضاء حلبجة التابعة لمحافظة السليمانية عصمها الله وسائر بلاد المسلمين من الآفات ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكتوبات سعيدي رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: (**إذا ظَهَرَت الْفِتَنُ والْبِدَعُ وَسُبَّ أَصْحَابِي، فَلْيُظْهِرِ الْعَالِمُ عِلْمَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً**). رَوَاهُ الْخَطِيبُ فِي الْجَامِعِ وَغَيْرُهُ. عَنْ عَوَيْمِرِ بْنِ سَاعِدَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**إِنَّ اللهَ اخْتَارَنِي وَاخْتَارَ لِي أَصْحَاباً، فَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَاءَ وَأَنْصَاراً وَأَصْهَاراً فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَاسِ أَجْمَعِينَ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفاً وَلاَ عَدْلاً**). رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ. وَالحَاكِمُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعاً قَالَ: (**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي خَيْراً، أَلْقَى حُبَّ أَصْحَابِي فِي قَلْبِهِ**). رَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**إِنَّ شِرَارَ أُمَّتِي أَجْرَءُهُمْ عَلَى أَصْحَابِي**). رَوَاهُ ابنُ عَدِيٍّ عَنْ أَبِي سَعِيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُد ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**). رَوَاهُ الشَّيخَان. وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟، قَالَ: (**عَائِشَةُ**)، فَقُلْتُ مِنَ الرِّجَالِ؟، قَالَ: (**أَبُوهَا**)، فَقُلْتُ ثُمَّ، فَقَالَ: (**عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب**). رَوَاهُ الشَّيْخَان. وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (**مَا طَلَعَت الشَّمْسُ وَلاَ غَرَبَتْ عَلَى أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكرٍ إِلاَّ أَن يَكُونَ نَبِيٌّ**). رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيد وَأَبُو نَعِيم. وَعَنْ سَلَمَةَ بْنَ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**أَبُو بَكْرٍ خَيْرُ النَّاسِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نَبِيٌّ**). رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَابْنُ عَدِيٍّ. وَعَنْ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (**إِنَّ رُوْحَ الْقُدْسِ جِبْرِيلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ خَيْرَ أُمَّتِكَ بَعْدَكَ أَبُو بَكْرٍ**) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ. وَعَنْ أَبِي سَعِيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (**مَا مِن نَّبِي إِلاَّ وَلَهُ وَزِيرَان مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَوَزِيرَانِ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ فَأَمَّا وَزِيرَاي مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ فَجِبْرِيلُ وَمِيكَالُ وَأَمَّا وَزِيرَايَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ فَأَبُو بَكْرٍ وَّعُمَرُ**). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ [المكتوب السادس والستون]

فهرست الكتاب

الموضوع	الرقم

دُعَاءُ التَّوْحِيدِ

يَا اَللهُ يَا اَللهُ لاَ اِلَهَ اِلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ يَا عَفُوُّ يَا كَرِيمُ فَاعْفُ عَنِّي وَارْحَمْنِي يَا اَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَاَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ اللّهمّ اغْفِرْ لِي وَلآبَائِي وَأُمَّهَاتِي وَلآبَاءِ وَاُمَّهَاتِ زَوْجَتِي وَلأَجْدَادِي وَجَدَّاتِي وَلأَبْنَائِي وَبَنَاتِي وَلإِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي وَلأَعْمَامِي وَعَمَّاتِي وَلأَخْوَالِي وَخَالاَتِي وَلأُسْتَاذِي عَبْدِ اْلحَكِيمِ اْلآرْوَاسِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَاْلمُؤْمِنَاتِ اَلاَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَاْلاَمْوَاتِ «رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ» بِرَحْمَتِكَ يَا اَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَاْلحَمْدُ للهِ رَبِّ اْلعَالَمِينَ

دُعَاءُ اْلاسْتِغْفَارِ

اَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لاَ اِلَهَ إِلاَّ هُوَ اْلحَيَّ الْقَيُّومَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ

إن ناشر كتب - **دار الحقيقة للنشر والطباعة** - هو المرحوم حسين حلمي ايشيق عليه الرحمة والرضوان المتولد عام ١٣٢٩ هـ * ١٩١١ م] بمنطقة -**أيوب سلطان إستانبول**- وأعداد الكتب التي نشرها ثلاث وستون مصنفا من العربية وأربع وعشرون مصنفا من الفارسية وثلاث مصنفات أوردية وأربع عشرة من التركية ومقدار الكتب التي أمر بترجمتها من هذه الكتب إلى لغات فرنسية وألمانية وإنجليزية وروسية وإلى لغات أخر بلغت مائة وتسعة وأربعين كتابا وجميع هذه الكتب طبعت في -**دار الحقيقة للنشر والطباعة**- وكان المرحوم عالما طاهرا تقيا صالحا وتابعا لمشيئة الله وقد تتلمذ للعلاّمة الحبر البحر الفهامة الولي الكامل المكمل ذي المعارف والخوارق والكرامات عالي النسب السيد عبد الحكيم الارواسي عليه رحمة الباري وأخذ منه وظهر كعالم إسلامي فاضل وكامل مكمل وقد لبى نداء ربه المتعال وتوفي ليلة ٢٥ على ٢٠٠١/١٠/٢٦ (الثامن على التاسع من شهر شعبان المعظم سنة إثنتين وعشرين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية) ودفن في محل ولادته بمقبرة أيوب سلطان تغمده الله برحمته الواسعة واسكنه فسيح جناته آمين

اسماء الكتب العربية التي نشرها مكتبة الحقيقة

اسماء الكتب	عدد صفحاتها